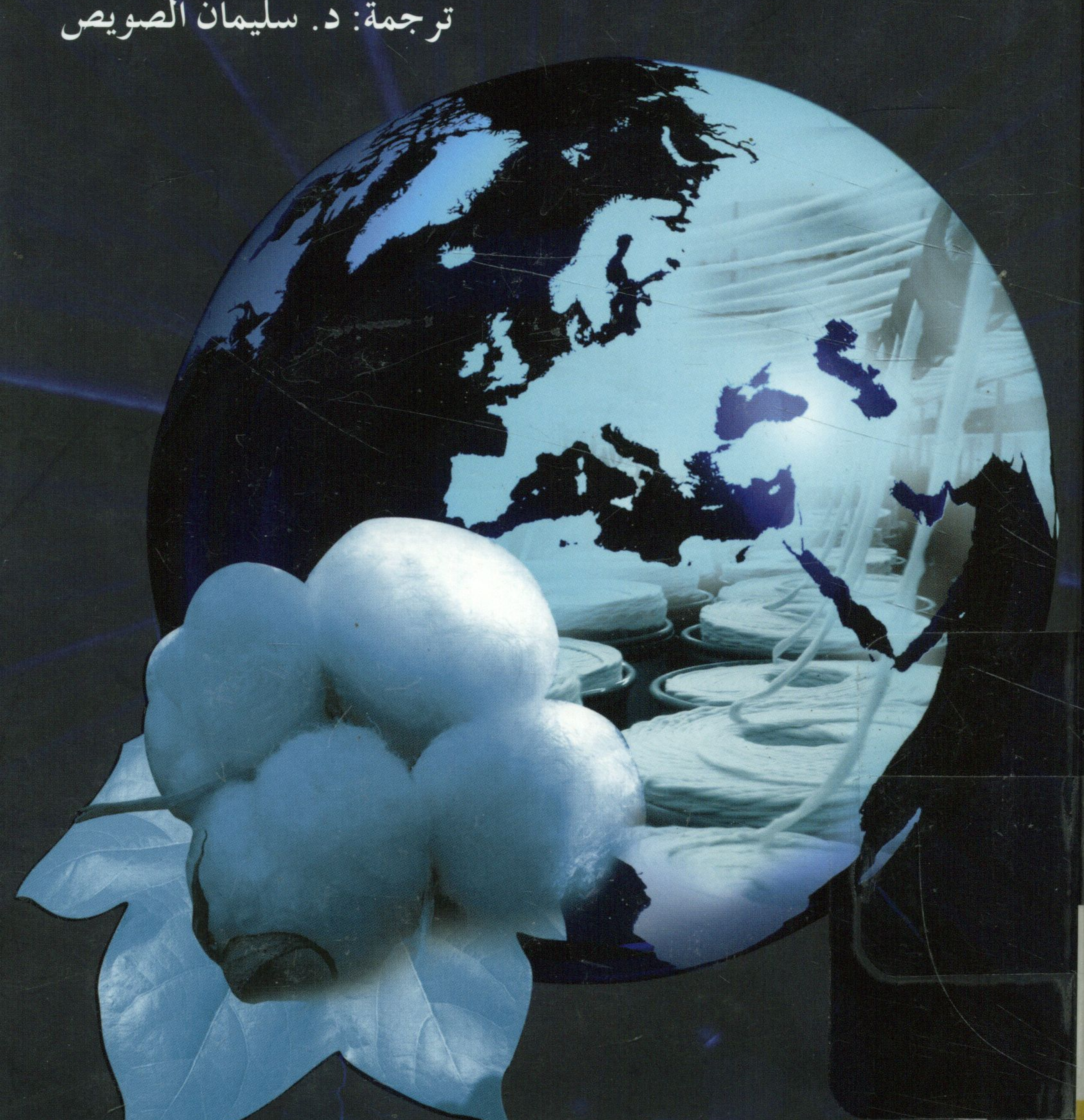
رحلة في بلاد القطن

موجز صغير لنمط من العولمة

إريك أورسينا

ترجمة: د. سليمان الصويص



نبذة عن المؤلف:

إريك أورسينا سياسي وروائي وكاتب فرنسي؛ درس الفلسفة والعلوم السياسية، وتخصص لاحقاً في الاقتصاد. عمل مستشاراً للرئيس الفرنسي الأسبق ميتران، وتقلّـد عدة مناصب حكومية بين ١٩٨٠ و١٩٩٠، رئيس المركز الدولي للبحار، وعضو الأكاديمية الفرنسية.



رحلة في بلاد القطن

موجز صغير لنمط من العولمة

إريك أورسينا

من الأكاديمية الفرنسية

ترجمة: د. سليمان الصويص

مراجعة: د. أحمد خريس

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)

رحلة في بلاد القطن/ موجز صغير لنمط من العولمة

إريك أورسينا

HD9070.5 .O7812 2010
Orsenna, Erik, 1947-
رحلة في بلاد القطن / تأليف إريك أورسينا؛ ترجمة سليمان الصوص.ط.1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة و التراث، كلمة، 2010.
ص. ؛ سم.
ترجمة كتاب : Voyage aux pays du coton : petit...
تدمك: 978-9948-01-610-6
1- القطن - صناعة و تجارة - فرنسا. 2- القطن - زراعة - فرنسا. أ-الصوص، سليمان.

هذا الكتاب يتضمن ترجمة الأصل الفرنسي:
de Erik Orsenna
Voyage aux pays du coton



www.kalima.ae
ص.ب:2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف:97126314468+ فاكس:97126314462+



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.cultural.org.ae
ص.ب:2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف:97126215300+ فاكس:97126336059+



القطن

لوحة من موسوعة ديدرو

إلى سولانج، و أندريه.

مع عرفاني ومحبتي

الفهرس

المقدمة

تعد المواد الأولية بمثابة هدايا تقدمها الأرض لنا. وتكون هذه الهدايا مدفونة، أحياناً، تحت التراب، وظاهرة للعيان في أحيان أخرى. بعض هذه الهدايا أحافير، وهدايا أخرى تكون على صورة مناجم سوف تنضب ذات يوم، أو هدايا نباتية تعمل الشمس ونشاط الإنسان على تجديدها كل سنة.

إن المواد الأولية هدايا تتكلم، فيكفي أن تصغي إليها. إنها تهمس قصصاً متنوعة في آذاننا: كان يا ما كان... يقول النفط؛ كان يا ما كان...تقول حبة القمح.

إن كل مادة أولية هي عالم قائم بذاته: لها أساطيرها ولغتها وحروبها ومدنها وسكانها: الأخيار منهم والأشرار وأصحاب القرائح المبدعة. وعندما تروي كل مادة أولية حكايتها، فإنها تروي في الوقت نفسه حكاية الكرة الأرضية، ولكن بطريقتها الخاصة.

*

*   *

بدأت هذه القصة منذ عصور التاريخ السحيقة. يمر رجل ويلاحظ جنبة (شجرة صغيرة) تنتهي أغصانها بنديفات بيضاء. يمكننا أن نتخيل يده وقد اقتربت منها. ها هم البشر يتعرفون على نعومة القطن.

عندما اجتازت قوات الإسكندر الكبير نهر الهندوس عام 326 قبل الميلاد، التقت بسكان يرتدون ملابس أكثر نعومة وخفة من أية ملابس أخرى. أصاب الجنود الدهشة واستفسروا عن هذا النوع الجديد من الثياب وجمعوا البذور وزرعوها لدى عودتهم إلى اليونان، لكن النتائج كانت مخيبة للآمال، فتخلوا عن مواصلة التجارب. لقد نسي الغرب «شجرة القطن».

استورد العرب أقمشة من الهند، إذ إنهم أكثر قرباً منها. ثم بدؤوا في زراعة القطن في مصر والجزائر وحتى جنوبي أسبانيا: غرناطة وإشبيلية... كانوا يفتلون القطن وينسجونه. ومنذ زمن طويل أعطوا اسماً للنديفة البيضاء: القطن (مكتوبة في النص الفرنسي بلفظها العربي (al-kutun).

وعلى مدى قرون، كان عالمان غريبان عن أحدهما الآخر يتعايشان. في الشمال، كان المسيحيون يرتدون الصوف والكتان؛ وفي الجنوب وباتجاه الشرق، كان المسلمون يرتدون القطن. ولاحقاً ستتيح الحروب الصليبية المجال أمام بضعة أشكال من التبادل، إضافة الى المذابح التي وقعت. وعما قريب، ستطور مدينة «البندقية» تجارتها، وشيئاً فشيئاً تقدم استخدام القطن في أوروبا.

في هذه الأثناء، على الطرف الآخر من المحيط، كانت أمريكا تربي هي الأخرى نديفاتها. وقد عثر على قطع من أقمشة قطنية في «البيرو»،

تعود لأكثر من ألف سنة قبل الميلاد. وعندما نزل إسبان الكورتيس إلى المكسيك، كانوا منبهرين مثلما كان جنود الإسكندر اليونانيين: كانت الملابس المحلية لا تضاهى، من حيث الليونة والقماش الرقيق.

*

* *

القرن الثامن عشر

استبدّ الشغف بالأنسجة القطنية في أوروبا، ولم تعد مستوردات الهند تكفيها. وقررت إنجلترا التي اخترعت للتو آلات الغزل والنسيج أن تأخذ مكان الهند. كانت تحتاج إلى المواد الأولية التي كانت توفرها لها مستعمراتها الأمريكية. كان القطن يزرع في جميع المناطق الواقعة إلى الجنوب من خط العرض السابع والثلاثين (كارولاين، جورجيا، فلوريدا، آلاباما، مسيسبي، لويزيانا – التي بيعت إلى فرنسا – تكساس التي تم انتزاعها من المكسيك، أوكلاهوما، آركنساس، أريزونا وكاليفورنيا).

يحتاج قطف الثمار الى أيد عاملة. وهكذا بدأت أول عملية عولمة في تنظيم نفسها. ولسوء حظها، شكلت إفريقيا جزءاً من هذه العملية. كان التصنيع والرق يتقدمان يداً بيد. وفي حين كانت المصانع تغطي «مانشستر» وضواحيها، أصبحت «ليفربول» مركز تجارة رقيق السود لفترة من الوقت.

مرت مئة سنة وها هي الولايات المتحدة تفوز باستقلالها دون أن تتوقف عن تزويد الوطن الأم القديم بالقطن. لكنَّ هماً معنوياً نبيلاً كان يلازم السلطات الفدرالية. كانت هذه تريد منع الرق في ولايات الجنوب. كما رفضت هذه الولايات التجاوب مع المنع وقررت القيام بالانفصال. وكما نعلم، تبع ذلك قيام الحرب. من سيغذي صناعات النسيج البريطانية؟ وجهت لندن نداءً الى اثنتين من مستعمراتها، هما: مصر والهند. وسوف تقدم هذه الأخيرة أيضاً إنتاجها إلى اليابان التي بدأ نساجوها في الاستيقاظ.

في الوقت نفسه، بدأ قطاع النسيج الفرنسي، الآخذ في التطور، في طرح إنتاجه في إمبراطوريته الإفريقية.

لم تشأ البرازيل أن تضيع فرصة سانحة، فهي تزرع القطن في منطقة «ساو باولو» حيث الأراضي ليست هي الأفضل، ولكنّ الاقتصاد الذي تنشطه القهوة، قد دَبَّ فيه الحماس.

باختصار، ومع نهاية القرن التاسع عشر، غطت القطنيات والمصانع الكرة الأرضية، وكانت تلك تموّن المصانع.

*

*   *

لا يحتاج القطن إلا إلى القليل من الماء (خمسة وسبعين سنتيمتراً من المطر أو السقي)؛ لكنه كي يزدهر، يحتاج إلى الكثير من الحرارة

ولا سيما الضوء. وهو يزرع اليوم في المناطق الممتدة بين خط العرض السابع والثلاثين شمالاً، وخط العرض الثاني والثلاثين جنوباً، على مساحة مقدارها خمسة وثلاثون مليون هكتار في أكثر من تسعين بلد. لكن أربعة منها (الصين، الولايات المتحدة، الهند، وباكستان) تشكل سبعين بالمئة من الإنتاج العالمي. تأتي بعد ذلك البرازيل وإفريقيا الغربية وأوزبكستان وتركيا.

نتحدث عن القطن من طرف إلى آخر من كرتنا الارضية، لكن هل هي النبتة نفسها في كل مكان؟

شجرة القطن عبارة عن جنبة؛ أي شجرة علوها متران إلى سبعة أمتار، لكنها تظل صغيرة وإن شاخت. وهي من نسق (مالفال Malvales)، وعائلة Malvacées، وقبيلة Hibiscées، ونوع Gossypium. وهناك عشرات من الأنواع التي تزرع.

هناك نوعان يسميان: Gossypium herbaceum، و arboreum، يطلق عليهما «القطن الهندي».، وهو يعطي أليافاً سميكة قصيرة.

وهناك نوع آخر اسمه: Gossypium barbadense، يزود الألياف الطويلة، والرفيعة للقطن، ويعرف بالقطن المصري.

أما النوع الثالث فاسمه: Gossypium hirsutum، ويزود أليافاً متوسطة، يمثل خمسة وتسعين بالمئة من الإنتاج العالمي.

لا يقتصر الاهتمام بالقطن على البشر وحدهم. فالحشرات مولعة

به. وفي محاولة للتخلص من هذه الجموع النهّابة الشرهة التي تتلف المحاصيل، تجند البحث العلمي الذي تموّله الشركات العملاقة. واليوم هناك أكثر من ثلث شجر القطن المزروع في العالم ينتمي إلى الصنف المعدل جينياً. وعلى الرغم من احتجاجات المدافعين عن البيئة، فإن هذه النسبة تتزايد سنة بعد أخرى.

*

* *

كل شيء في القطن صالح للاستعمال، لا ترمى من مكوناته أية فضلات.

أولاً: يؤخذ منه أثمن ما يملك وهو الألياف. إنها خيوط طويلة تحيط بالبذور. ستقوم آلات بفصلها عنها. ألياف القطن ناعمة مرنة، لكنها مع ذلك متينةً. إنها تقاوم الماء والرطوبة ولا تستاء من تعرّقنا وتقبل أن تغسل آلاف المرات، وأن تكوى ألف مرة ومرة دون تذمر. تأخذ صبغة اللون كمظهر لها تحتفظ به... إن قائمة مزاياها تطول ولا تستطيع أن تنافسها أية مواد طبيعية نباتية، أو حيوانية أخرى، إذ لم يعد الصوف والكتان يمثلان شيئاً. وإذا كان الخيط الاصطناعي يسيطر على سوق النسيج (ستون بالمئة)، فإن القطن لا يزال يقاوم (أربعون بالمئة).

وهكذا يكسي القطن الجنس البشري.

لكنه لا يتوقف عند هذا الحد. إنه يستخدم طبعاً من أجل صناعة

الكمادات الطبية، وفي صناعة أوراق خاصة (من بينها الأوراق النقدية) أيضاً، والأفلام الفوتوغرافية، وفتائل الشمع. وبما أن القطن حريص دائماً على أن يكون مفيداً، فإن أليافه تدخل في تكوين منتجات التجميل ومعاجين الأسنان والبوظة... وحتى لو بدا طعم بعض أنواع المرق الإيطالية، أو بعض أنواع النقانق الألمانية غريباً، فهل يمكن تخيل احتوائها على القطن؟

البذور بدورها ليست أقل كرماً. إنها غنية بالبروتين وتزودنا بجزء مهم من الزيت الذي نستعمله. ويخشى رجال التسويق من أن الإشارة إلى «زيت القطن» قد تنفّر المشتري، لذلك يطلق عليه اسم أكثر عمومية: «زيت نباتي».

والحيوانات هي الأخرى تتغذى من القطن: إنها تأكل التفل المستمد من البذور وأغلفتها. وتستخدم البقايا في صناعة الصابون والأسمدة والمتفجرات (الغليسرين)، ومبيدات الفطريات، ومبيدات الحشرات...، والمطاط الإصطناعي. كما ينبغي العلم أن الصناعات الكيماوية شغوفة جداً بهذه البقايا النباتية: إنها تساعدها على المشاركة في هذا المطبخ الغامض الذي يطلق عليه التكرير، ويقود إلى صنع مواد بعيدة الاحتمال من بينها المواد البلاستيكية.

لا شك أن هذه المناورات تثير الغم لدى البعض، لذلك فلنعد إلى أمنا الطبيعة، وإلى سلام الأشياء البسيطة. فبعد قطف المحصول تصبح

سيقان وأغصان شجرة القطن فراشاً للدواب، أو يعمل الفلاحون على حرقها؛ لأنه لا يتوفر لديهم وقود أفضل منها.

*

* *

لهذه الأسباب يكرس مئات الملايين من الرجال والنساء وقتهم للاهتمام بالقطن في قارات العالم جميعاً.

ولهذه الاسباب كنت أريد القيام بهذه الرحلة العظيمة منذ سنوات. شيء ما كان يقول لي لأنني سأفهم بشكل أفضل كرتي الأرضية، إذا تتبعت دروب القطن، من الزراعة إلى صناعة النسيج، مروراً بالكيمياء الحيوية، من «كوتيالا» (مالي) إلى «داتانغ» (الصين)، مروراً بـ «لوبوك» (تكساس) و«كوابا» (ماتو غروسو)، و«الإسكندرية» و«طشقند»، و«وادي الفولون» (فرنسا، محافظة القوج).

لقد تجاوزت نتائج التحقيق الطويل آمالي.

فحتى نفهم عمليات العولمة التي جرت بالأمس، والتي تجري اليوم، لا شيء يساوي في قيمته تفحص قطعة قماش؛ لأنها، دون شك، مصنوعة فقط من خيوط وروابط ورحلات مكوكية.

هل كنتم تعلمون أن غضب الخياطين لم يتوقف عن التصاعد في عام 1620 في مكسيكو، عاصمة إسبانيا الجديدة؟ لقد جاءت جالية صينية قوية للإقامة هناك وكانت تعرِض منذ ذلك الحين ملابس بأسعار متدنية

غدت مدمّرة للتنافس[1].

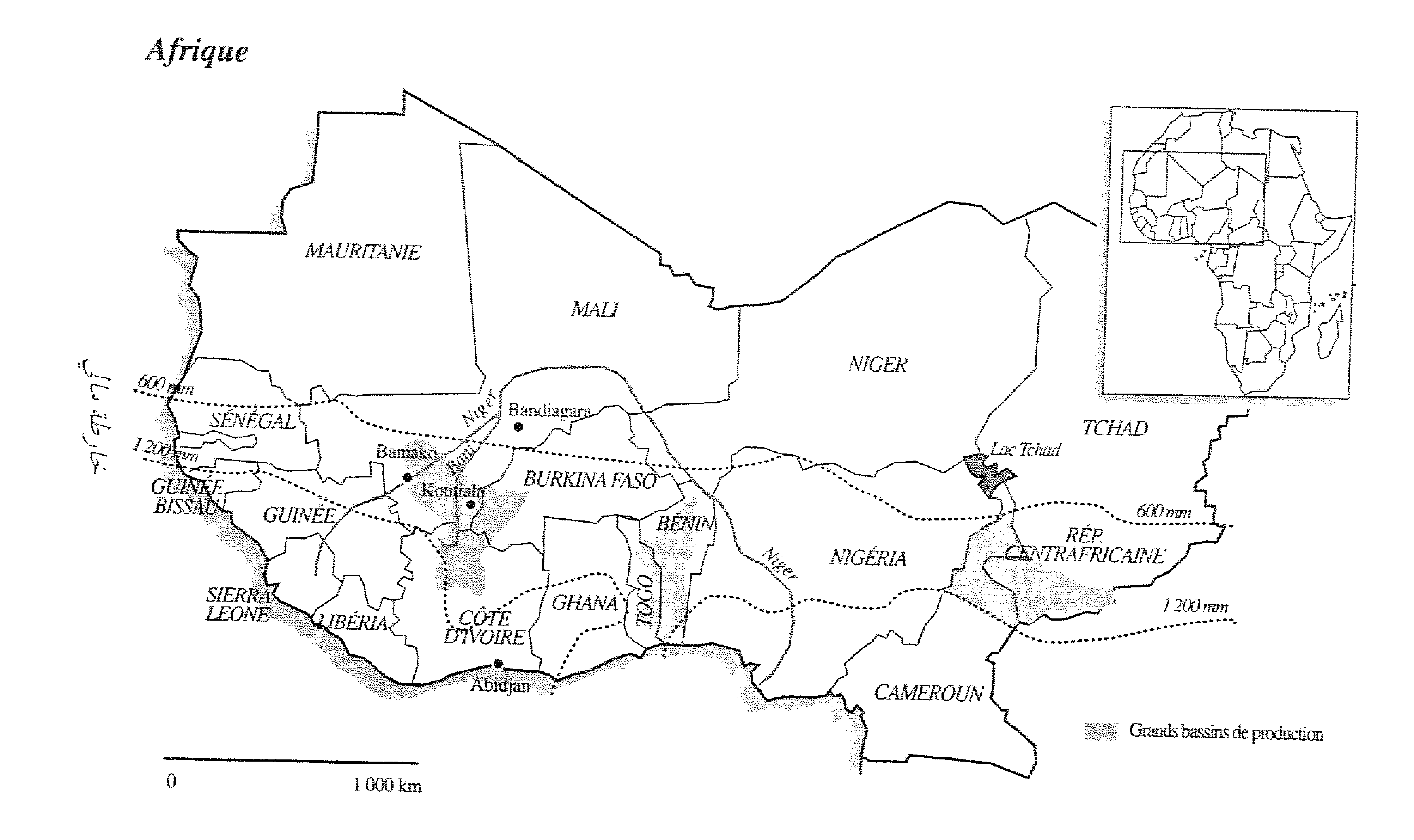
وإذا أردتم أن تعرفوا أكثر عن النعومة، أقصد أن أقول الكواليس الفظة للنعومة، فعليكم بالسير في الطريق، اقتربوا من «شجرة القطن» وأرهفوا سمعكم.

(1) انظر الكتاب الجميل جداً من تأليف سيرج غروزينسكي، «الأجزاء الأربعة للعالم. تاريخ عولمة». دار النشر «لا مارتينيير»، 2004.

1

مالي

النسيج والتحدث والخصخصة


Afrique
MAURITANIE
MALI
NIGER
TCHAD
Lac Tchad
SÉNÉGAL
GUINÉE BISSAU
GUINÉE
SIERRA LEONE
LIBÉRIA
CÔTE D'IVOIRE
GHANA
TOGO
BÉNIN
BURKINA FASO
NIGÉRIA
CAMEROUN
RÉP. CENTRAFRICAINE
Niger
Bani
Bandiagara
Bamako
Koutiala
Abidjan
600 mm
1 200 mm
Grands bassins de production
0
1 000 km

خارطة مالي

كلمة «سوي» (soy)

يسكن شعب «دوغون» في قلب غرب إفريقيا، غير البعيد عن المكان الأسطوري، حيث يصب نهر «باني» في نهر «نيجر». «باندیا غارا»، إن اسم عاصمة هذا البلد، يعني «الطشت الذي تأتي الفيلة إليه للشرب». لقد غادرت الفيلة المكان لكن الاسم بقي.

«الدوغون» مشهورون بأقنعتهم الهندسية الضخمة، وبمخازن الغلال المدببة المتشبثة بالمنحدر الوعر لشاطئ صخري. وهم مشهورون بنظريتهم الخاصة عن نشأة الكون، وهي واحدة من أكثر النظريات غنى، وغرابة، وتعقيداً، وشاعرية، ولم يسبق لكائنات بشرية أن اخترعت مثلها. يدور الموضوع حول أوكار أرضية تماثل البظر، وتوائم مؤسسة، وحصان زانٍ وجنيّ سابع يتقن الكلام جيداً، ورئيس حدادين ملعون قليلاً، وكلاب (كروشيه) من الغيوم، ونملة مشغولة جداً بالجنس، وبوجهاء آخرين من بينهم القطن[1].

يعيش «الدوغون» من السياحة وزراعة البصل، وهما نشاطان لا يزالان غير كافيين للتغلب على الجوع.

هكذا، غادرت نحو عشرة عائلات شاطئها الصخري، في منتصف السبعينات، واتجهت نحو الجنوب. وتبين لها أن الأراضي التي قدمت

---

(1) راجع مارسيل غريول، كتاب «إله من ماء»، دار النشر «فايار»، 1966.

لها في منطقة ليست بعيدة عن الحدود مع «بوركينا فاسو» كانت أقل جودة لزراعة الحبوب من تلك التي كانت قد تركتها خلفها. لكن القطن كان ينمو فيها.

وعندما أُبلغت عائلات أخرى بالنبأ السار، سارعت في المجيء من أجل تأسيس بلدة كبيرة يسكنها نحو ستة مئة فرد. وكان يجب العثور على اسمٍ لهذه البلدة. وحظي اسم «بانديا غارا – 2» بأعلى الأصوات؛ لأسباب ليس من الصعب التنبؤ بها.

هذا الإنجذاب للقطن له جذور قديمة جداً عند «الدوغون»، مثلما يحدثنا الصياد العجوز والأعمى «أوغوتوم – ميلي»:

«عندما طلع النهار وبدأ نور الشمس يبزغ، بصق الجنيّ السابع والثمانون خيطاً من القطن، الذي وزع خيوطه بين أسنانه العليا المستخدمة كأسنان مشط نول. (...)، وفعل الشيء نفسه بالأسنان السفلى من أجل تركيب مستوى الخيوط النظيرة. ومن خلال فتح وإغلاق الفكين كان الجنيّ يدير الحركات التي تفرضها ميادين الحرفة عليه كسلسلة (...).

وبينما كانت الخيوط تتقاطع وتتفارق، كانت نقطتا اللسان – المشعب للجنيّ – تدفع خيط النسيج بالتناوب (...).

كان الجنيّ يتكلم (...)، ويمنح الكلمة من خلال تقنية تكون في متناول الرجال. وكان يظهر بذلك تطابق الحركات المادية والقوى

الروحية، أو بالأحرى ضرورة تعاونهم.

وكان الجنيّ ينشد، وتنسج كلماته في الخيوط (...)، التي كانت هي نفسها النسيج المنسوج، وكان النسيج والمنسوج هما الكلمة. ولهذا، تقال كلمة «قماش» «سوي» (soy)، وهو ما يعني أيضاً «الكلام».

*

*   *

وفي أمسيات القطاف، يلتقي المرء في الريف بعدد لا يحصى من العربات التي تجرها الحمير. إنها تأتي إلى مدخل القرية لتلقي حمولتها على مساحة منبسطة تم كنسها بعناية. ويهبط الليل على الكومات الصغيرة للنديفات البيضاء.

وفي اليوم التالي يسود شعور بالابتهاج عندما تصل شاحنة شركة القطن. فيتم وزن القطن، حزمة حزمة.ثم تجري عملية الحساب ويعلن رقم. عندها يخرج مندوب الشركة من جيبه رزمة كبيرة من الأوراق النقدية ويقوم بالعد. تشرق الوجوه. وفي غمرة الضحك والغناء يتم إلقاء القطن في الصندوق القلاب للشاحنة.

هل اخترعت أنا هذا الحزن الذي كنت أقرؤه في عيون القدامى، عندما كانت الشاحنة تذهب الى المصنع وسط هتافات من هم أصغر سناً؟

قديماً كان القطن المقطوف يبقى في القرية، وفيها كان يُنسج ويُصبغ.

أما اليوم، فما إن يقطف حتى يختفي. ولن يظهر على شكل «تي – شيرت» إلا بعد أن يقوم برحلة بعيدة جداً.

حينئذ، ترتدي نساء القرية في بعض الأيام قمصانهن الفضفاضة الأكثر زخرفة، ويجلسن على حصر منسوجة من القصب أمام الكوخ الرئيس، ويجددن الارتباط مع أكثر التقاليد قدماً. واحدة بعد أخرى، يبسطن كرات القطن الصغيرة فوق لوح خشب. بالكاد تكون هذه الكرات قد خرجت من شرنقاتها البنية من بين الأوراق الجافة، وتقوم النساء بتمرير وإعادة تمرير لفافة من حديد من أجل سحب البذور. بعد ذلك يقمن بالحلج بواسطة نوع من المشط ذي الأسنان الصدئة. ثم يفتلن؛ أي يسحبن الليفة لدرجة أن المرء يعتقد أنها ستنقطع، لكن ليس إلى هذا الحد، إذ يصبح بعدها مثل سلك سرعان ما يلتف حول نفسه؛ لكي يشكل حزمة تكبر بسرعة.

وفي أثناء هذا الوقت كله الذي يستمر لساعات، تتجاذب النساء أطراف الحديث؛ ويمزحن، ويقهقهن، ويثرثرن، بلا توقف، بينما تستمر أصابعهن في الرقص الذي تعلمنه في فترة الطفولة ولم يغب قطُّ عن البال على الرغم من سنوات النفي. أما النساء الأصغر سناً، فيقمن بإرضاع أطفالهن.

من مقر الصياد العجوز الأعمى «أوغوتيم ميلي» بين الأموات، يجب عليه أن يطمئن وهو يتأمل هذا المشهد. فلم ينس أبناء «الدوغون»

الحاليون أحد الأسرار الكبرى: أن الكلام والنسيج يشكلان النشاط نفسه، ويعرفان بالكلمة ذاتها: «سوي» (soy).

بلد الشركة المالية لتطوير النسيج (CMDT)

الطريق حمراء، ومع برودة الجو في الصباح، تنتشر رائحة شجرة «الأوكاليبتوس» في الهواء. أسير إلى جانب «مامادو يوسف سيزيه». أشباح من جميع القامات تتحرك بين الجنبيات. يستمر القطاف الذي يشارك فيه الجميع حتى الاطفال. بين الحين والآخر ترتفع لازمة، أو بالأحرى زمجرات متتابعة. إنها أغنية لإثارة الهمة:

إنكم أُسودٌ!
لن تكونوا أبداً أرانب!
إنكم ضباع!
لن تكونوا أبداً أرانب!

يترجم مامادو سيزيه.
تحملون اسماً!
أعرف كيف تكونون أهلاً له!
وفي الحقول يجب عليكم أن تثبتوا ذلك!

مامادو سيزيه يروي.

تعود زراعة القطن في إفريقيا إلى عهود سحيقة في التاريخ. كانت التقاليد الراسخة مستمرة من قرن إلى آخر. وكانت القرى تزرع فقط من أجل أن تكسو نفسها. لكن الاستيطان قَلَب هذا الهدوء الرعوي. فقد كانت المصانع الفرنسية بحاجة لمواد أولية. لهذا أنشئت إدارة «الشركات الأهلية التعاونية» التي كان ينشّطها رؤساء الأشغال، الذين يطلق عليهم اسم «المعلمون – العاملون». كانت الأسماء نبيلة، إلا أن الواقع كان رهيباً. فالفلاحون يجبرون على إنتاج القطن، وزيادة كمياته، ولم يكن الـ «شيكوت» يغادر يد المعلم – العامل. والـ«شيكوت» هو سوط يوجد في مضربه عُقدٌ.

تهذبت العادات بعض الشيء في بداية الخمسينات. لكن طموح فرنسا في صناعة النسيج ظل قائماً. فلقد تأسست شركة بتمويل عمومي. وكانت هذه مكلفة بحشد جميع الطاقات لكي تكون في خدمة الوطن. ولم يغير الاستقلال شيئاً كثيراً في الوضع باستثناء تغيير اليافطة. لم تعد الشركة فرنسية بل «مالية». واستمر رأس المال عمومياً (الدولة الفرنسية: 40 بالمئة؛ الدولة المالية: 60 بالمئة).

في عام 1972 دخل مامادو سيزيه إلى الشركة المالية لتطوير النسيج (CMDT)، وكان قد أنهى توّاً دراسته في التاريخ. كان عمره خمسة وعشرين عاماً، وقد أوكل إليه محو أمية الفلاحين.

إنني مواطن فرنسي صالح معجب بوزارة التربية الوطنية، ومع ذلك لم أتمكن من إخفاء دهشتي:

– هل كان على الشركة أن تقوم بمحو الأمية؟

– إن فلاحاً لا يعرف القراءة لا يمكنه أن يزرع قطناً جيداً! وبفضل القطن رأيت القرى كيف استيقظت واحدةً بعد الأخرى، بدءاً بهذه القرية «كاينكو». لقد بدأت رحلتي من هناك.

يتدافع السكان؛ الرجال الشيوخ، والرجال الشبان؛ جميعهم يركضون باتجاه دليلي مامادو. أما النساء فإنهن يكتفين بالابتسام من بعيد. إنهم يحثون الخطى، يمسكون بذراعيه ويقدمونه للأطفال. يشيرون إلى الدراجات النارية الصغيرة، الصينية الصنع من طراز «زونجوي» و«دراغون» التي وصلت مؤخراً.

– هل هي هدايا من القطن؟

– ومن غيره تريدون أن يقدمها؟

حتى العنزات توقفت للحظة عن اجترار لبانها المفضل، وهو الأكياس البلاستيكية.

مامادو سيزيه رجل متواضع. لم يقل لي أنه كان يقود المحطة الإقليمية للشركة قبل أن يحال على التقاعد.

بعد أن وجهوا إلينا التحيات الاعتيادية المملة، عثروا على كرسيين

لنا (كرسي مطبخ أصفر، والآخر أحمر). وها نحن، بصحبة السلطات نجلس تحت سقف من خشب الخيزران، تحول تلقائيا إلى محور لمناقشات مملة، في حين كان أبناء القرية الآخرون يقفون من حوله من كل جانب. استمر السكان يغرقون مامادو سيزيه بسيل من الكلام.

يحرك يده كما لو أنه يبعد ذبابة عن وجهه، لكنه لا يريد أن يترجم. «لا شيء مهم، إنها أخبار عائلية». يتناوب رئيس البلدية على الكلام:

– نحن نشكره على المدرسة، والطريق التي عُبدت، والمركز الصحي، والبئر الرابعة، وعلى الدورة الأخيرة حول الأدوية المضادة للحشرات...

استمع الرجل المتواضع، لكنه احتج:

– لست أنا، إنها الشركة (CMDT).

– لن يعترف مامادو بالحقيقة، وهي أن «كاينكو» هي طفلته. انظروا الى أشجارنا على سبيل المثال. هل رأيتم أشجاراً بهذه الكثافة في قرية إفريقية؟ في الأماكن الأخرى قُطعت الأشجار منذ زمن طويل من أجل حرقها. هنا، نحن نحترمها، لأن مامادو علّمنا أن الأشجار تصنع الظل، وتساعد على هطول الأمطار، وأن القطن يحتاج إلى الظل والمطر. القطن لا يحب سوى الأشجار. النباتات الأخرى صديقة له، إذ إن القطن نبتة صعبة: مَنْ يعرف كيف يزرعها يعرف كيف يزرع النباتات كافة؟ وفي مقدمتها الذرة الصفراء، والذرة البيضاء والحبوب.

فضلاً عن ذلك، يُزرع القطن في كل سنة. إنه ليس كالقهوة، أو الكاكاو الذي يجب ان يُزرع لفترة طويلة. يمتلك المزارع حرية أكبر مع القطن إذ بإمكانه تغيير الزراعة. فضلاً عن ذلك، يُعد التغيير أمراً واجباً، وإلاّ فإن التربة تُصاب بالإرهاق. إن القطن هو قاطرتنا.

– عفواً!

– قاطرة تطورنا. القطن لا يجلب النقود فقط. إننا مدينون له بالسلام والوفاق الحسن. ودونه يصبح البشر أكثر فقراً، وبالتالي فرقاء يتقاتلون فيما بينهم...

أشير إلى نوع من الحوانيت، هناك في زاوية الساحة، ليس بعيداً عن كومة القاذورات. ووفقاً لعنوان المحل، فإنه يدعى «كافو جيجينيو».

– «كافو» تعني «الاتحاد» و«جيجينيو» تعني «مخزن الغلال» أو «الهرئ». إنه «اتحاد الأهراء»؛ مصرفنا الذي نديره نحن الفلاحين. لا يوجد هناك قطن بدون أدوية مضادة للحشرات. خمّنوا من علمنا قواعد المالية؟

إنهم يشرحون لي بصبر واعتزاز. يُشترى القطن بسعر مضمون. وعلى قاعدة هذه الموارد المتوقعة، يقدم المصرف القرض، وهو قرض سيخدم القطن (شراء الأدوية المضادة للحشرات وللطفيليات، الضرورية)، وجميع الزراعات الأخرى (أدوات، بذور، حيوانات...). بهذه الطريقة، طوّر القطن منطقتنا من خلال القرض!

*

*   *

ألا نزال في مالي؟

قد يظن المرء نفسه، بالأحرى، في بلد الشركة المالية لتطوير النسيج (CMDT)؛ بلد تؤمّن فيه الخدمات العمومية بواسطة هذه الشركة؛ بلد مهم بحجمه (ثلث أراضي جنوب مالي)، وبعدد سكانه (نحو ثلاثة ملايين). إنه بلد ثري. أما في المناطق الأخرى حيث لا ينمو القطن ولا تحكم الشركة، فإن الحياة لا تقارن بهذه: إنها أكثر فقراً معدمة، ومهجورة.

هذا البلد مهدد من طرف عدو فتاك هو الخصخصة.

في قرية «كاينكو»، لا أحد يفهم جيداً الكيفية التي سيطبق فيها هذا الإجراء. لكن الجميع فهم أنه سيعني نهاية البلد الذي تملكه شركة (CMDT). كان الترحيب الحار جداً الذي حظي به مامادو أقرب الى أغنية سحرية. من خلال توجيه التحية المؤثرة إلى الرجل الذي يجسد الحقبة المباركة، هل سيمنعه أهل القرية من الهرب؟ ربما.

كوتيالا

أعرف جيداً عواصم أخرى للمواد الأولية. «مانوس»؛ الملكة السابقة للمطاط، «جوهانسبورغ»؛ عاصمة الذهب والألماس، «مدينة الكويت»؛ الابنة المباركة للنفط... جميعها استفادت من النعمة لتجميل نفسها.

لكن ليس «كوتيالا» التي هي مع ذلك الحاضرة الرئيسة المالية للقطن. يُطلق عليها لقب «باريس إفريقيا» بمقدار ما يسود فيها من علم، وتبذير مفترضين. ولكي نجد بعض الأسس لهذه المقارنة يجب التحلي بخيال استثنائي، أو توفر هذه البلبلة البصرية التي تؤثر على رؤية بعض المتحمسين للعالم الثالث، خصوصاً المناضلين منهم.

تزخر «كوتيالا» بالبشاشة والألوان، وبهذا السعي الحثيث للعيش الذي يذهل المسافر في المدن الإفريقية جميعها. في كل خطوة يخطوها المرء، هناك عناوين محلات تثير الابتسام، مثل هذه اللافتة التي تعلن عن مرآب بعبارة «أمل الكبح الذاتي»، وعن مصرف تعاوني ب «هنا لا نقرض الأغنياء»، أو لتمجيد طحين الحنطة ب «المسجد الأحمر». لكن أين ذهبت العائدات المهمة التي كانت البلديات المتتابعة تستلمها من الذهب الأبيض؟ بالتأكيد لم تذهب في شراء التجهيزات المشتركة، على الرغم من جهود مدينة «ألونسون» (Alencon)، التي تشير يافطة معلقة

على واجهة البلدية فيها إلى «التوأمة النموذجية». تحت جسر باتريس لومومبا، لم تعد ذكرى النهر سوى ماء آسن قذر، ومجرى ماء في الهواء الطلق يستحم فيه الأطفال. طُردت الحوانيت الصغيرة التابعة للسوق من النطاق المخصص لها، وذلك من خلال المضاربة العقارية، وأُقيمت كيفما اتفق بحيث أصبحت توقف حركة المرور. وفي كل مكان، هناك أكوام القاذورات، والأكياس البلاستيكية، والبطيخ الفاسد...

عرف عن الأفارقة حرصهم على نظافتهم الشخصية وعلى ممارسة الوضوء الشخصي أو الديني بكل دقة. لكن لماذا يتخلون عن كل طموح في النظافة، ما إن يتعلق الأمر بمدنهم؟

يسود جوٌ مغث، ولن يلاحظ المرء روائح العفونة إلا قليلاً، التي تستحوذ مع ذلك على المكان، وتفوح من المدينة الصناعية؛ فخر «كوتيالا»، ومبرر وجودها. إنها مدينة داخل المدينة؛ حوالي عشرين هكتاراً تقع في الوسط تماماً. تنشط فيها ستة مصانع ليلاً نهاراً، طوال أيام الأسبوع. إن هذه المصانع في حالة جوع دائم للقطن. وهناك طابور طويل جداً من الشاحنات يأتي لتغذيتها. تتقدم الشاحنات حتى تصل إلى أنابيب ضخمة متحركة تقوم بامتصاص أطنان النديفات البيضاء، تماماً كخراطيم الفيلة الضخمة جداً. وخلال بضعة أرباع الساعة تُفرّغ الحاوية لكي ينتقل الدور إلى الحاوية التالية. يلبس العمال نظارات الغوص، وأقنعة كبيرة تغطي الأنف والفم، وذلك لكي يحموا أنفسهم من الغبار الذي يحرق العيون ويقضم الرئتين. ومثل هذه التجهيزات

المؤقتة تجعلهم يشبهون ذبابات ضخمة. العمل في هذه المصانع شاق جداً حيث لا توجد أية استراحة، والتوقف الوحيد يقع عندما يحصل عطل طارئ. وإلى جانب ذلك، هناك عطلة لمرة واحدة في السنة، وهو اليوم الذي يحتفل فيه بنهاية الصوم. أنتم يا مَنْ تعتقدون أن الأفارقة كسالى، تعالوا للعمل على فترات التناوب الثلاثية[1] في «كوتيالا»!

تعود ملكية المصانع الأربعة الأولى إلى الشركة المالية لتطوير النسيج. إنها تحلج الألياف وتنظفها، ثم تطويها وتعلبها وتزنها. ويتكفل سيل هائل من الشاحنات بأخذ الحزم (البالات) الكبيرة الزرقاء (وزن كل واحدة مئتان وعشرون كيلوغراماً) ينقلها، ويرفعها فوق أكوام كبيرة حيث ستنتظر حاجة السوق العالمي إليها.

أما المصنعان الآخران فيقعان في منطقة نفوذ «ويكوما»، ويهتمان بالبذور. هناك تُهرس وتُضغط وتُسخن، وتخضع لجميع أنواع الطبخ. فمن جانب، تخرج أسطوانات صغيرة يميل لونها إلى البني، وتعشق الماشية أكلها كما يبدو. ومن الجانب الآخر يسيل زيت. وبعدما يزال لونه ويتم التخلص من رائحته (الفاسدة)، يذهب إلى موائد الماليين ليزيد من لذة بعض الأطعمة.

*

*　　*

(1) نظام عمل مستمر على مدار ساعات اليوم، تعمل فيه ثلاث فرق، كل فرقة تعمل ثماني ساعات: (المترجم).

يهبط الليل؛ ليل إفريقيا الدامس اللزج على «كوتيالا». وما أن يخرج المرء من الأرض المحصورة الواسعة، حيث طنين المصانع الستة المحمية بأسوار عالية، حتى يقع نظره عليها ويرتعش. يبدو المشهد كما لو أن جيشاً كبير العدد يقف على أهبة الاستعداد للاجتياح. وعلى الرغم من أن محركاتها منطفئة، إلا أن هناك غضباً يستبد بهذه الأشياء الهائلة الحجم.

الشاحنات.

إنها الشاحنات التي لا تعد ولا تحصى. يقال إن عددها يفوق الستمئة.

وهي تنتظر.

تنتظر أسابيع لكي تفرغ شحناتها من القطن أو البذور. إنها تقف في عشرة صفوف بانتظار دورها؛ لأن أحداً لم يفكر بإنشاء مستودعات للتخزين: المصنع يتغذى من خلال الغَرْف مباشرة من الحاويات. إنها تنتظر أمام الأبواب المغلقة، أو في الشوارع الصغيرة المجاورة مصطفة كيفما اتُفق.

ولهذا السبب يشكل الانتظار جزءاً من رحلة القطن: انتظار الشاحنات وسائقيها خلال شهري القطاف. أما الانتظار الأسوأ فهو أيضاً خلال بقية شهور السنة، حيث لا يعود هناك شيء يُنقل.

بين الحين والآخر، يُعلن صوتُ هديرٍ أن شاحنة قد أُدير محركها. لقد

تحنن الله أو المصنع عليه وكوفئ صبره. أخيراً سيتمكن من التخلص من حمولته.

رويداً رويداً، تتجاوب عشرات، ومئات من أصوات الهدير، وتتحرك الصفوف الطويلة، ويعود الصمت من جديد، ويستأنف الانتظار.

علمت أن هناك ثلاث فئات من سائقي الشاحنات. المالكون، وهؤلاء لا نراهم أبداً. السائقون، وهم الذين يظهرون فقط عندما تتحرك الشاحنة؛ أي نادراً. وأخيراً المتدربون، وهؤلاء لا يتركون شاحناتهم أبداً. إنهم يتقاسمون كل شيء في حياتها، خصوصاً الانتظار. إن متدرباً على قيادة شاحنة جدير بهذا الاسم، هو ذاك الذي يعيش تحت سقف شاحنته، بين العجلات المزدوجة الأمامية والعجلات الثلاثية الخلفية: هناك يضع سريره الميداني ويُعلق المذياع (راديو) الصغير الخاص به، وهناك يحضر قدحه من الشاي الأخضر. بعض المتدربين ينصبون خيمة أمام صدام الشاحنة. يبدو لي أن زملاءهم ينظرون إليهم شزراً. لا يعزل المتدرب الجيد نفسه عن شاحنته.

لا يوجد لدى هؤلاء الشبان سوى أمل واحد، هو الارتقاء ذات يوم إلى وضع سائق. لذلك عليهم أن يجمعوا ما يكفي من النقود؛ كي يحصلوا على رخصة سواقة. إنه مشروع صعب إذ إنهم يعملون...دون أن تدفع لهم رواتب! ويؤمّن لهم المأكل الشحيح، وبين الحين والآخر

«يشجعون» من خلال منحهم ورقة نقدية.

بالنتيجة، فإنهم ينتظرون.

ولكي يكون المرء منصفاً، يجب القول إن رؤساءهم، والسائقين الآخرين ينتظرون أيضاً. وكما نعرف فإن إفريقيا لا تبخل على نفسها بالحروب الاهلية. فعلى سبيل المثال، عندما يغلق ميناء «أبيدجان» في أعقاب وقوع اضطرابات، فإنه يجب المرور بتوغو وغانا، كي تُسلم حزمات (بالات) القطن. ويترتب على ذلك زيادة بضعة مئات من الكيلومترات، وأشهر إضافية من الانتظار. يقوم السائقون والمتدربون بتجميل شاحناتهم الضخمة؛ لتمضية الوقت الطويل الممل. إنهم لا يكتفون بغسلها وتنظيفها جيداً، بل يقومون بتزيينها. لا يتركون مساحة متاحة للتزيين إلا ويرسمون عليها، سواء أكانت واقية الريح أم واقية الصدام أم صندوق الأدوات. تتزين مواقف السيارات بلوحات ساذجة: مناظر طبيعية نموذجية (سهول وغابات)، مصارع الضواري المشتاقة للحقب التي كان المرء لا يزال يلاقي فيها بضعة حيوانات في إفريقيا (أُسود، زرافات، فيلة ونسور)، أو تحيات جيوسياسية (علم الولايات المتحدة الأمريكية).

لكن الإبداع الأجمل لفناني الطريق (غير المتحركة) هؤلاء يتم التعبير عنه في الشعارات، والأقوال المأثورة التي تُخطط بشغف: «جمال الولد هو العمل»، «كل شيء يمر»، و«من يعلم ماذا يخفي المستقبل؟»، و«

لا تقترب مني كثيراً» و«الله يعطي في السر»، و«التأخير لا يمنع وقوع الحظ»...

في العبارة التالية يتم شرح فلسفة كاملةً: «تستطيع أن تفلت من جميع الحيوانات الكاسرة، باستثناء ذلك الذي يحدد مصيرك».

هل يمكن أن تجسد الشرور التي تَلحق بإفريقيا، بدقة أكبر مما يجسدها هذا المصير البائس للمتدربين من سائقي الشاحنات؟

درس بوركينا

لماذا الخصخصة؟

لماذا تدمر هذه الأرض المحصورة، ذات العذوبة النسبية في غرب إفريقيا حيث الحياة قاسية جداً؟

يملك السوق العالمي الجواب. فطالما كانت أسعار القطن في مستويات مرتفعة، كان بالإمكان ترك الشركة المالية لتطوير النسيج لتتصرف على هواها. كل واحد كان يعرف أن هذا «الكولخوز»[1] الضخم، شركة القطن الأضخم في العالم، لم يكن يستحق المديح بسبب إدارته فقط. كل واحد كان يعرف عن عمليات التهريب التي كانت الشركة تخفيها، وعمليات الفساد التي كانت تغذيها. فعندما تجمع شركة عمومية واحدة نصف إيرادات التصدير لبلد، فإن الأقوياء والمتنفذين في هذا البلد، أياً كان، يقاومون بصعوبة إغواء الغَرف من صندوقه. وبما أن الهدف الأول قد تحقق، وهو التطوير الريفي الذي لا شك فيه، فإن جميع أجهزة السلطة كانت تغض الطرف، بل متواطئة متهمة بتلك العمليات.

(1) كلمة روسية تعني تعاونية الإنتاج الزراعي تعود ملكيتها لمجموعة من الفلاحين الذين يستغلون أرضهم، وأدواتهم الزراعية، ومواشيهم جماعياً. طبّق جوزيف ستالين التعاونيات الزراعية في عام 1929، وبعد انهيار الإتحاد السوفييتي، بيعت هذه التعاونيات الى القطاع الخاص في عام 1992: (المترجم).

لكن الوضع تغيّر عندما انهار سعر القطن. وخشيةً من اندلاع غضب سكان الريف، لم تجرؤ الحكومة على تحميلهم انخفاض السعر، واستمرت في شراء المحاصيل بالأسعار السابقة. وتعمق عجز الشركة المالية لتطوير النسيج، وأخذ يثقل كاهل المالك الرئيس؛ أي دولة مالي. وكان النزيف يفتك بهذه الدولة، لذلك اضطرت لإطلاق نداء من أجل الحصول على تسليف دولي.

فرض البنك الدولي شروطه: أساعدكم، لكنكم ستطبقون الخصخصة.

*

* *

فرانسوا تراوري هو فلاح قبل كل شيء. تقع حقوله على طريق بوبو – ديولاسو، في أقصى غرب بوركينا. لكنه نقابي أيضاً، يترأس اتحادين لمنتجي القطن: اتحاد بلده واتحاد عموم إفريقيا. وبهذه الصفة رأيناه في «كانكون» يحمل السيف ضد البلدان الصناعية. لا أحد غيره يعرف حراك القوى، وتقلب الأوضاع، وضعفها في قارته.

لم يكن تشخيصه للوضع المالي يعرقل الاحتياطات الدبلوماسية.

– فإذا كان من المفروض عليهم أن يخصخصوا اليوم، فمعنى ذلك أنهم أضاعوا فرصة مناسبة بالأمس. من الجميل أن تُطلب مهلٌ. لكن علينا ألا ننسى واقع الأعمال: إذا استمر الوضع في التدهور، فما هي

الشركة الخاصة التي سترغب بالالتزام؟

يبدو أن بوركينا فاسو قد اجتازت الأزمة، وهبوط الأسعار العالمية دون أن يلحق بها أذى كبير. ما هو سرها؟ تستحق القصة أن تروى، لأنها تظهر وجود (وقابلية الحياة) لطريق ثالث بين الخصخصة، وكولخوز الدولة.

في بداية التسعينات لم يكن النظام القديم يرضي أحداً. كانت القرية دائماً هي الضامن للقروض المتعاقد عليها؛ كي تدفع أثمان الأسمدة، والأدوية المضادة للحشرات. إلا أن بعض القرويين كانوا يستخدمون هذه السلف لأغراض شخصية. بالإضافة لذلك، أصاب الركود الإنتاج؛ لأن تسديد أثمان القطن الذي كان يتم تسليمه أصبح أمراً مشكوكاً فيه، ويخضع للحظ.

فتح «سيليستين تيندربيبوجو»؛ مدير الشركة الوطنية «سوفيتكس» النقاش. ولتغذية هذا النقاش، دعا أربعة زعماء فلاحين لزيارة البلدان المجاورة لاستلهام النجاحات، وإذا أمكن تجنب الأخطاء. استقبل الماليون، وهم المعضّدون من جانب شركتهم القوية (CMDT)، بشيء من التسامح المتعجرف، مسؤولي بوركينا فاسو المتواضعين الحائرين.

عاد الرباعي، بقيادة فرانسوا تراوري، بأفكار واضحة، وبمقترحات جذرية قبلها «تيندربيبوجو».

كان مبدأ إعادة التنظيم هذا بسيطاً: يجب على الفلاحين أن يصبحوا

شركاء حقيقيين. لذلك يجب تجاوز أشكال التضامن القائمة في القرية: أُنشئ اتحاد وطني للمنتجين. لكن هذه النقابة يجب أن تهتم مباشرة بإدارة النظام. ولقد قبلت الدولة أن تحرر نفسها من الالتزام، وتم التنازل عن ثلاثين بالمئة من «سوفيتكس» للمنتجين. ولكي يتمكن هؤلاء من تمويل هذا الاقتناء، كان يجب عليهم التخلي عن مكافآتهم. هنا تبدأ دروس التربية. وُضعت قواعد جديدة للعقد، وحُدد لكل منطقة ريفية سعر أدنى مسموح به ومضمون. ووزعت الأرباح – إن وجدت – بين المنتجين، وستُستكمل الدفعات الأولى.

لم تخل البدايات من مناقشات، حادة في بعض الأحيان. فلقد كان فلاحو بوركينا فاسو يتساءلون بسخط: لماذا تكون أسعارنا أكثر انخفاضاً من تلك المعروضة قريباً منا، على الطرف الآخر من الحدود، لدى زملائنا الماليين؟ وكان هؤلاء يستهزئون.

لكن المزاج الحسن غيّر معسكره بعد خمس سنوات، إذ اضطرت الشركة المالية لتطوير النسيج إلى قبول الخصخصة مع ما صاحب ذلك من تفكيك، وذلك تحت ضغط الوضع الضعيف الذي أفضت إليه بسبب العجز المتزايد. وتمترس المنتجون الماليون وراء المطالبة بأسعار غير واقعية؛ لأنهم بلا شك كانوا قد استثنوا من المسؤوليات؛ وعلى الرغم من الوعود، فإنهم لم يتسلموا أية حصة من رأسمال الشركة هذا في حين كانت شركة «سوفيتكس»، المتمتعة بصحة جيدة، تزدري «الخبراء الدوليين»، إذ لم تكن الإدارة المشتركة التي قررها مواطنو بوركينا فاسو

تنتمي الى «الأرثوذوكسية الليبرالية»، التي كان يبشر بها البنك الدولي. لكن ما هي الحجج التي يمكن أن تطرح ضد نظام يسير بشكل جيد؟

يتساءل فرانسوا تراوري:

– هل سيكون بمستطاع مالي استرجاع الوقت الضائع دون أن تدمر ثروتها القطنية؟

أما أنا فإنني أتذكر شعار سائق الشاحنة: «التأخير لا يمنع قدوم الحظ».

معتنقو التعاويذ

على طريق باماكو، وقبل أن نصل إلى سيغو بقليل، تشبه «نيسو» جميع القرى الأخرى في المنطقة: بضع عشرات من الأكواخ، ومثلها مخازن غلال، وبعيداً عن ذلك بقليل، توجد مساحة مسطحة حيث تنتظر تلال من القطن دورها في التجميع. وفي المكان المقابل تماماً اضطررنا للتوقف. انفجر للتو دولاب سيارتنا من طراز «بيجو». وكان لا بد من تغيير الدولاب المعطوب. لماذا استبد بسائقنا كل هذا القدر من العجلة والعصبية؟ لماذا كل هذا الجفاء، بل وعدم الكياسة، في الرد على تحيات الجمهور القليل الذي حضر لمشاهدة رافعة السيارة؟ ولماذا الانطلاق بسرعة كبيرة فور الانتهاء من شد آخر برغي؟ لماذا الاستمرار في زيادة السرعة الآن؟

ليس هناك ما يدعو للتعجيل. لا تزال الساعة السابعة صباحاً، ويا للحظ الجميل، فالجو لطيف في إفريقيا هذه المرة. هناك عصافير تزقزق، رأسها ذو لون أرجواني وصدرها أزرق، إنها بلا شك طيور «أبو تمرة»[1]. النهار لا يزال يجرجر نفسه قبل أن يطلع حقاً، وسحابة خفيفة لا تزال معلقة فوق قمم الغابات المجاورة. وبما أننا نعرف أن الشمس ستبدد قريباً جداً هذه السحابة، فقد كنا نتذوق هذا الجو المنعش كهدية

(1) جنس طير صغير القد مستطيل المنقار، جميل الألوان بصورة متراكبة ومتداخلة وزاهية، وهو يقضم الزهر، ويأكل التمر، وكل ثمر حلو المذاق: (المترجم).

تصعد من الأرض.

لكن لماذا الهروب؟

لن يأتي الرد من السائق، بل من مامادو سيزيه، وفي اليوم التالي عند تناول الفطور. هو الآخر لزم الصمت حتى تلك اللحظة.

«نيسو» قرية يسكنها معتنقو التعويذة الأقوياء. لا أحد يمر بها دون أن تصيبه المخاوف، ولا أحد يغامر بالدخول إليها ليلاً مهما كان المبرر.

منذ سنوات، أعارت الشركة المالية لتطوير النسيج دفيئة كبيرة إلى «نيسو»، هي في الواقع «تجريبية»؛ لكي يتعلم القرويون كيفية تخزين قطنهم بطريقة أفضل. وحسبما اتفق، عاد موظف من الشركة ذات يوم لاستعادة الدفيئة، لكن القرية رفضت، ودار نقاش أُبلغ بعده المحافظ بالمسألة، وذلك للحفاظ على احترام النظام العام، ولإعادة الدفيئة.

– سأُحال على التقاعد بعد شهرين، أجاب المحافظ. إن الأمر يتعلق ب «نيسو»، وأُفضّلُ أن أنقلَ ملف النزاع إلى خَلفي.

وهكذا كان. وقدّر الخلف أن نقل الملف قرار ذكي، لذلك قام هو نفسه بنقله إلى خلفه، الذي قام هو الآخر....

باختصار لا تزال «الدفيئة التجريبية» في «نيسو».

حظاً طيباً لأولئك الذين يقومون بالخصخصة!

باماكو

على بعد خطوتين من محطة القطار، تسيطر امرأة صغيرة شابة على حصينة ضخمة بيضاء، يشبه وجهها وجه عصفور مدبب، عظمي تعلوه خوذة من الشعر الرمادي، ينقسم قسمين بصورة مثالية بواسطة مفرق. تستقبلك بنوع من اللطف الآلي الخاص بسيدات المنزل الطيبات اللواتي يكون همهن الحقيقي الاستقبال الحسن للزائر أياً كان. أما حراسها الكثيرون والمفتولو العضلات، فإن لديهم طرقاً أكثر خشونة في الاستقبال.

اسم هذه السيدة «ڤيكي هدلستون»، إنها سفيرة الولايات المتحدة. وهي تعبر عن قناعاتها بصوت عذب، ونكتشف أن لا شيء أبداً سيجعلها تغير تلك القناعات.

إن حرصها على أمثولة العقل الليبرالي السليم لا يشوبه شائبة.

تقول بضرورة الانطلاق من قواعد صحيحة. فيجب على كل فرد أن يقوم بمهنته. إن مهمة أية شركة قطنية هي إنتاج القطن المربح، وليس محو أمية السكان، ولا صيانة الطرق، ولا فتح المستوصفات الصحية.

والدولة لديها مهمات أخرى غير سد عجز شركة ثقيلة جداً، تدار أمورها بصورة سيئة.

لذلك تصبح الخصخصة أمراً لا مفر من فرضه.

كان صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي يوصيان مالي بذلك منذ سنوات. وتوقعا القيام بتمويل لمرافقة هذا الإجراء، لكن مالي استمرت في رفض الخصخصة.

تتنهد السيدة هدلستون وكأن هذا البطء المتعارض بشكل كبير مع مصلحة البلد أمرٌ ينال منها شخصياً. «تجولت كثيراً منذ وصولي. هذا الشعب يثير دهشتي. إنني أحب مالي».

أنقل لها قلق الفلاحين. إن الشركة المالية لتطوير النسيج تقدم لهم الكثير من...

– إذا لم تحل الدولة محلها، فإننا سنعهد بالتدريب، والصحة إلى منظمات غير حكومية، إنني أثقُ بفاعليتها...

يا للماليين المساكين! ألا يوجد أمامهم من خيار إلا بين كولخوز مهجور، وخصخصة متوحشة ترافقها بعض ضمادات الإحسان؟

هل سأبدو بمظهر الشخص غير المؤدب، وهل سأفسد رقة المحادثة؟ أغادر مالي للحظات، وأعبر المحيط الأطلسي. أتذكر الإعانات المالية الضخمة التي تدفعها إدارة واشنطن إلى منتجي القطن الأمريكيين. ألا تعطل هذه لعبة التنافس الحر،أَليست متعارضة مع قانون السوق؟ بكلمة واحدة، أليس مزارعو كانيكو الذين يطالبون بوضع حد لهذه التوترات الاقتصادية أكثر ليبرالية من زملائهم في تكساس؟

تبتسم لي ڤيكي كما لو أنني طفل متخلف عقلياً، أو نزعت الشمس دماغه. وبالنغمة الناعمة نفسها تنصحني أن لا أَخلط الحابل بالنابل.

– لدى إفريقيا هوس يتمثل في اتهام القارات الأخرى أنها سبب مشاكلها، بدلاً من أن تجد بنفسها وداخلها الحلول. لأغراض التحقيق الذي تقوم به، أعتقدُ أنك ستزور بلدي؟ إذا كنت نزيهاً فسوف ترى هناك زراعة حديثة. أتمنى لك رحلة ممتعة.

*

*   *

عرفت آماني توماني توريه في مدينة آنسي الفرنسية خلال صيف 1992. نظم نادي «أسبن» لقاءً ترأسه ريمون بار[1] الذي وصل كبطل للديمقراطية.

في 24 آذار (مارس) 1991، اعتقل آماني – وكان حينها عقيد مظليين – موسى تراوريه، هو الرجل الذي استبد بمالي منذ أكثر من عشرين عاماً.

وفي 8 حزيران (يونيو) 1992 أوفى بوعده، وكان الوحيد من بين زملائه العسكريين الأفارقة: لقد أعاد السلطة إلى رجل مدني هو ألفا عمر كوناري الذي انتخب ديمقراطياً على رأس جمهورية مالي.

ساهمت أفعاله اللاحقة في زيادة أسطورته: فلقد قام بكثير من مهمات

(1) رئيس وزراء سابق لفرنسا: (المترجم).

الوساطة في إفريقيا، واستمر في عمله لصالح الأطفال المرضى... كان الشعب المالي قد انتخبه للتو لتولي أرفع مسؤولية في البلاد. استقبلني هذه المرة في منزله الجديد، وهو القصر الرئاسي.

نعرف أن باماكو تعني بلغة بامبارا «خليج كيمان»[1]. ألهذا السبب اختارت الأرواح الفطنة إقامة الإدارات الرئيسة فوق مرتفع؟ تلة السلطة تسيطر إذن على المدينة. وعلى التلة الأخرى، باتجاه الشرق، بُني مستشفى.

لا يخفي الرئيس قلقه عني: «من قبل كنا نسمي قطننا «الذهب الابيض». وكنا نعرف الذهب من خلاله، ذلك أننا كنا نستخرج منه أكثر من مئة طن في السنة. لفترة طويلة، كان القطن أفضل حليف لنا. هل قرأت هذه الدراسة؟ خلال خمس سنوات تراجع الفقر بنسبة عشرة بالمئة في المناطق الأخرى. اليوم ها هو الذهب الأبيض يتحول إلى لعنة علينا. يمثل القطن ما يعادل نصف إيراداتنا من التصدير. يؤمن العيش مباشرة لنحو ثلث سكان بلدنا: ثلاثة ملايين ونصف من الرجال والنساء! وربما خمسة عشر مليوناً إضافياً لدى جيراننا! كيف تريدون أن نتخلى عن القطن؟ هذا صحيح، لقد قبلتُ أن أضمن للفلاحين سعراً أعلى من السعر العالمي. هل كان بإمكاني أن أتصرفَ بطريقة أخرى؟ كانوا سيثورون! هل هذه هي إرادة البنك الدولي: منطقة أخرى من عدم الاستقرار في جنوب بلدنا، على حدود ساحل العاج بالضبط

(1) جنس تماسيح متفاوتة الحجم، تعيش في أمريكا الاستوائية خاصة: (المترجم).

حيث لا يتوقف وصول اللاجئين؟ كيف تريدون أن أُطعمهم؟ والثلاثة ملايين ونصف من سكان بلدي، الذين إن لم يجدوا شيئاً للأكل، فإنهم سيأتون أولاً إلى المدينة، ثم يذهبون إلى فرنسا بالوسائل كافة. سيتعلقون حتى بعجلات هبوط الطائرات. هل هذا ما تريدونه؟

لم يفقد آماني توماني توريه شيئاً من حماسه في قاعة المحادثات الكبرى العامة الباردة، حيث كل شيء ينتمي إلى أجود الأصناف، من الثريات والمقاعد الوثيرة والمنضدة المنخفضة، باستثناء بعض اللوحات ذات الأسلوب الرفيع. وعلى العكس من ذلك، يبدو أن الرئاسة قد استعادت شبابها. كان يتحدث بلغة بسيطة واضحة، دون هذه الأزهار من البلاغة المنمقة التي يحشو القادة الأفارقة خطاباتهم بها.

«إنهم يرهقوننا بسبب عجزنا. لكن لا أحد يتطرق إلى أسباب هذا العجز. ولولا الإعانات المالية التي يتلقونها من دولتهم، لكان المزارعون الأمريكيون ينتجون قطناً أغلى من قطننا. ضاعفنا إنتاجنا عشرين مرة منذ الاستقلال. منذ أربعين سنة ونحن نكافح، يوماً بعد آخر؛ لتحسين أوضاعنا. لعبنا لعبة التنافس إلى آخر المدى، لكن دون توفر أدنى حظ في الكسب، ما دام اللاعب الأقوى يمارس الغش.

«ماذا بإمكاننا أن نفعل في مواجهة حرب العملات بين أوروبا، وبين الولايات المتحدة؟ وبحكم انتمائنا إلى منطقة الفرنك، فنحن في عجز تام إزاء اليورو. ما إن يرتفع حتى ينخفض سعر قطننا ما دام شراؤه

بالدولار. هل تجدون هذا طبيعياً؟ إنه من بين البلدان الأكثر فقراً، ويظل مرتبطاً بالعملة الأكثر ارتفاعاً؟ وكلما صعدت هذه العملة، سقطنا. ولا أحد يعترض، خاصة البنك الدولي».

يقوم الرئيس بحركة خرقاء قليلاً تعبر عن انزعاجه، ويرفع أكمام قميصه الفضفاض الأزرق المطرز. هذا القميص لا يناسبه بالتأكيد، إنه واسع جداً وجميل ومطرز. ينهض متابعاً حديثه.

«الخصخصة. أنا موافق عليها. يبدو أن ليس لدينا خيار في ذلك. لكن لن أدع البنك الدولي يحطم إنتاجنا كله من القطن، عبر الإجراءات المتسرعة. يلزمنا شيء من الوقت. في بعض الأحيان أتساءل إن كان هذا هو هدفهم: تحطيم إنتاجنا من القطن، وهو الأمر الذي سيناسب منافسينا الذين تعرفونهم بلا شك. قل لهم ما دمت ستذهب إلى واشنطن: أنني لن أتساهل فيما يتعلق بالوقت»

يبدو القلق جلياً على محيا هذا العسكري الذي اجتاز أزمات كثيرة، ولا تنقصه الشجاعة. ليحمِ الله رؤساء مالي؛ لأن مهمتهم ليست بسيطة.

كنت أفكر بالزمن، وأنا خارج من القصر، أو بالأحرى بالمجابهة القاسية بين العهود وبين الحقب التاريخية. ليست العولمة مسألة تتعلق بالمكان فقط، لقد افتتحت حرب الساعات الجدارية.

لم تكن الاقتصاديات الوطنية في عجلة من أمرها في القرون السابقة:

كانت تبني نفسها في منجى من الحدود الجمركية العالية المحكمة جداً. لم تكن تنفتح إلا بعد أن تصبح قوية بما فيه الكفاية؛ لكي تقارن نفسها بمنافسيها الأخطر. اليوم لم يعد يسمح بهذه الحماية، وبهذا التباطؤ «التربوي». ما إن يبدأ المرء الملاحة حتى يصبح مطلوباً منه مواجهة الرياح في عرض البحر.

هل لهذا التسارع من معنى؟ كثير من الخبراء يعتقدون أنه سيتوجب على الصين، وباكستان تخفيض إنتاجهما من القطن خلال خمس أو عشر سنوات على الأكثر. ستصبح الأراضي الجيدة نادرة والسكان في تزايد: ما السبيل لإطعامهم دون تنمية الزراعة المخصصة لإنتاج المواد الغذائية؟

عندها سيكون بمقدور إفريقيا أن تخلّص نفسها بلباقة، لأنها لا تعاني من ضغوط متعلقة بحجم المساحة.

ولكن بعد خمس أو عشر سنوات، ماذا سيتبقى من القطن المالي؟

قد يقال إن نيكولا نورمان، سفيرنا الذي يرافقني، قد اكتشف مصادر قلقي الراهن. لكنه كعادته يغير تخصصه، والهيئة التي يتقمصها. هو ليس دبلوماسياً فقط؛ إنه عالِمٌ مغرمٌ بالطبيعة. يلفت انتباهي إلى أنه يقع على يسارنا، في أسفل الدرج الرخامي وحيث كنت أعتقد أنني أرى نوعاً من شجر النخيل، شجرة «سيكاس ريفولوتا» (جنس نباتات للزينة)، وهي شجرة أُنقذتْ من العصر الجيولوجي الأول، متحوّلة الى

أُحفورة نباتية قديمة عمرها خمسمئة مليون سنة. يتردد رئيس التشريفات الرئاسي: هل يجب عليه أن يستأذن بالانصراف، أو متابعة الدرس؟ بالنسبة للسائق يبدو عليه أنه معتاد على الأمر. اعترف لي بالصعوبة الحقيقية الوحيدة في عمله: فعندما يصرخ السفير، يتوجب عليه أن يتوقف فوراً حتى إن كان وسط موكب رسمي. إن معنى ذلك أن طائراً نادراً يطير في السماء.

قبل أن ننزل ثانية إلى باماكو، يغيّر السفير الموضوع العلمي. يبدو أن الهضبة ذات الرمال الصلصالية التي كنا نقف عليها هي واحدة من الأراضي الأقدم في العالم. إنها تعود إلى مليارين من السنين، قبل العصر الحجري الأول. في تلك الحقبة، يستأنف السفير كلامه، كان كوكبنا مكوناً من قارة واحدة. ويؤكد لي أننا نقف في المكان الذي كان يشكل مركزها. أهزُ رأسي مندهشاً. لكن هل يجب أن نصدق السفراء دائماً؟ جعل تقدمُ الاتصالات مهنة لهم تستحق مكافأة أقل من السابق. وعليه فإن لديهم الميل لمنح أنفسهم أهمية لم يعودوا يملكونها.

ملعونة هي سوق الملابس المستعملة!

تعد أميناتا تروريه ملكة، بسبب قامتها، وسلطتها الطبيعية، والاحترام الذي يحيطها، والأساطير التي ترافقها، وقصص معاركها في سبيل عولمة بديلة، وتألق قمصانها الفضفاضة الزاهية. إنها ملكة تقاتل.

تركت هيئة الامم المتحدة ومهماتها ذات المكافآت المجزية. وهي بذلك تصرفت على النقيض مما يفعله أفارقة آخرون كثيرون لا يتعبون من مهاجمة الإمبريالية لفظياً، لكنهم يقبعون في وضعهم المريح جداً كخبراء في المؤسسات الدولية. اختارت العمل في «القطاع الخاص»، وتعيش في أحد أحياء باماكو. في هذا الحي فتحت فندقاً ومطعماً، ورواقاً للفن، ومتجراً للموضة، حيث تقدم الأزياء التي تصممها ابنتها «أوا». عيّنها الرئيس السابق وزيرة (للثقافة)، وثم أقالها؛ لأن الغيرة كانت ولا شك قد أصابته قليلاً.

استعادت أميناتا أعمالها، وزرعت الأشجار، وحشدت الشبان في حيّها، كي ينظفوا الشوارع المحيطة، ويجردوا القنوات التي هي بمثابة مجار. هي تكره القذارة («عار إفريقيا»). أشاطرها غالباً تشخيصها لأمراض إفريقيا، لكنني لا أدرك جيداً العلاجات التي تقترحها. لا ضير في ذلك! فهي ملكة تقاتل حتى النهاية.

أستغرب غياب صناعة نسيج بالقرب منها، في هذه البلد —مالي—

الذي يعد منتجاً كبيراً للألياف. إن أي مصنع يحتاج الى طاقة، وهذا ما ينقص مالي. لكن هل كان ذلك السبب الوحيد؟

عوضاً عن الإجابة، نصحتني أميناتا فقط أن أذهب إلى الأسواق.

هناك تعرفت على سوق الملابس المستعملة. جبال من الملابس التي تفرغها الشاحنات على الأرض. تشكيلات من أردأ الأنواع: السراويل، والتنورات، والفساتين، والـ«ت – شيرت» المستعملة. كان جيش من الخياطين يستولي عليها ويستخدم ما لديه من مهارة إسباغ نوع من الجِدّة الزائفة عليها: كان بعضهم يمسك مقصاً ويقص المطاط الداخلي للدراجات بشكل طولي لكي يستبدل مطاط السراويل الصغيرة. سألت عن مصدر الثياب المستعملة، فاستهزؤوا مني قائلين: «مَنْ يستطيع أن يعرف؟». لكن عند النظر ملياً رأيت كنزات صوفية «بلوفر» تمر مباشرة من أكياس العون الإنساني الى رفوف التجار...

ومثلما تقوم المساعدة الإنسانية بمنافسة الفلاحين، حاملة غالباً بذور المجاعات في المستقبل، فإن الهبة تدمر الإنتاج المحلي. والملاحظ أن هناك تواطؤاً غريباً مع الصناعة الصينية التي تتحالف مع الإحسان القادم من الشمال لتدمير كل محاولة لنهوض النسيج المالي في مهدها.

حاولت بلدان إفريقيا الغربية والوسطى اجتذاب المستثمرين في سنوات السبعينات؛ كي تنشئ مصانع للغزل والنسيج. قليل منها أتى ولم يبق أحد تقريباً. وبالنظر إلى سوق الملابس المستعملة (خمسة وعشرون

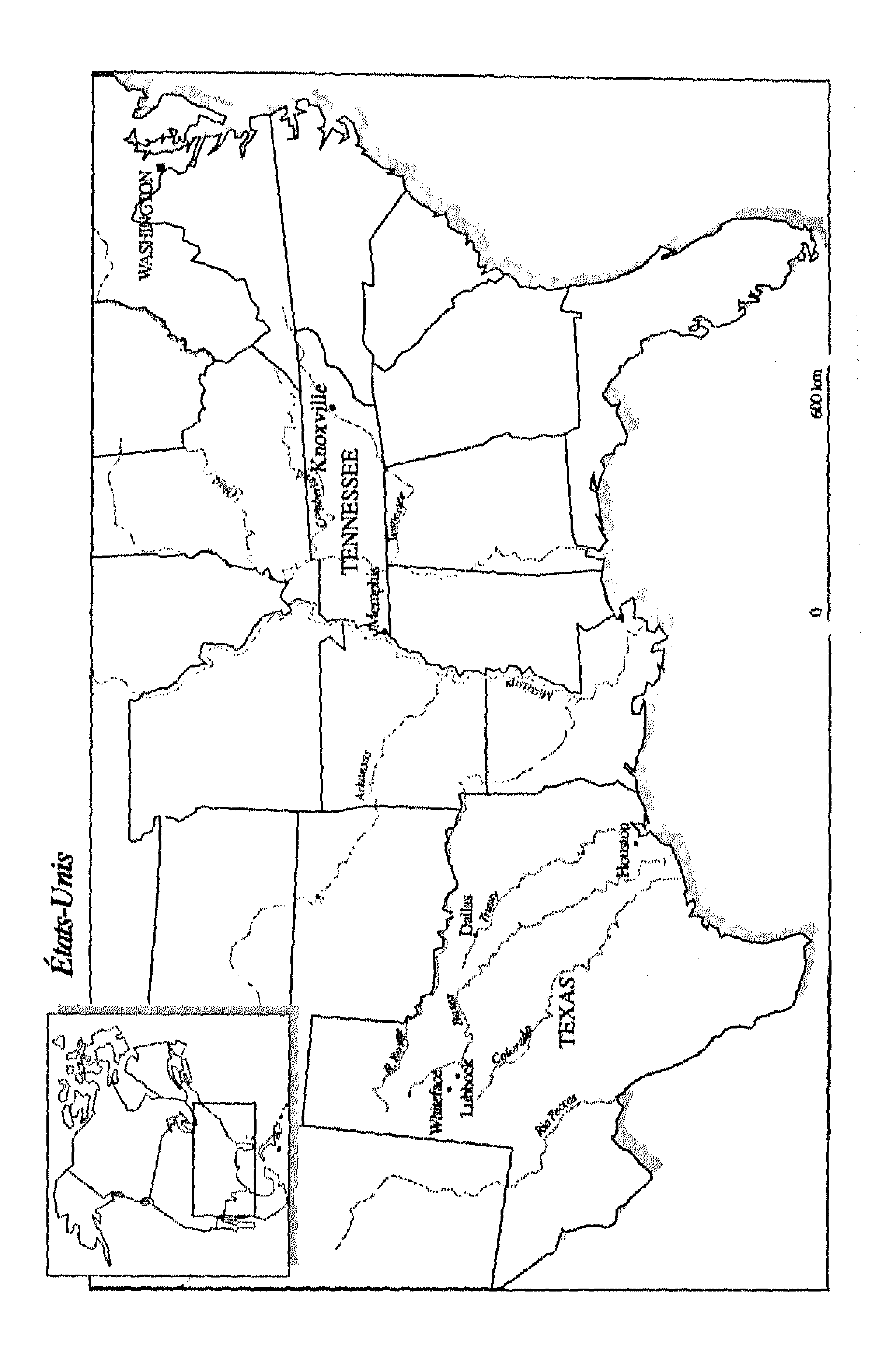
بالمئة من السوق)، فكيف يمكن مقاومة المستوردات الهمجية الآسيوية التي تسخر مما يسمى الحواجز الجمركية؟ وكيف يمكن إطلاق صناعة سلع كمالية (de luxe) عندما تطلب النساء الأنيقات الشمع الهولندي لتنوراتهن، عوضاً عن القماش المحلي؟

في غانا وحدها يُعد استهلاك المنتج الوطني واجباً، ومصدراً للاعتزاز. أما في المناطق الأخرى فيتفاخر الناس غالباً بثيابهم ذات المنشأ الأجنبي.

2

الولايات المتحدة

المجد لجماعات الضغط!



خارطة الولايات المتحدة

عاصمة اتخاذ القرارات

أي مكان في العالم ذلك الذي تؤخذ فيه القرارات ذات النتائج الأخطر، فيما يخص العدد الأكبر من سكان هذا الكوكب؟

ستبدو نيويورك أو بكين مناسبة أكثر لهذا الدور. لا تبدو واشنطن أنها المدينة الملائمة، إذ لا يوْجد فيها أي ناطحة سحاب شاهقة، وتشتمل على مساحات خضراء كثيرة، وليس فيها ما يكفي من الألغاز. ليس هناك من عجلة يمكن أن يحس بها المرء، وهو يسير في الشوارع العريضة جداً التي تصطف الأشجار على جانبيها. هناك ضاحية شاسعة مليئة بالمساكن العائلية. في كل حديقة يوجد حلبة تزحلق مصنوعة من البلاستيك الأحمر، وكوخ بلاستيكي أخضر، ولوحات كرة سلة مصغرة تميل إلى إثبات حقيقة هي: أن الأطفال ملوك هنا، وموضع الاهتمام الأول. تثير الكنائس والمعابد الكثيرة التي ترصع الأيك أول ظنون المحقق. بشر لديهم كل هذه الحاجة للتكلم إلى الله هم بالضرورة مرهقون، إما بمصير أو بثقل مسؤولياتهم. إن صاحب القرار مسؤول يطلب نصيحة، وهل هناك ناصح أفضل منه تعالى الذي يرى كل شيء؟

أما الإشارة الثانية لأهمية واشنطن فهي المحامون، وهي علامة يتعذر دحضها أكثر بكثير من سابقتها، إذ يتكاثر المحامون هنا بسرعة. في أسفل البنايات كافة، تعكس اللوحات النحاسية التي تحمل أسماء

محامين أشعة الشمس بشدة. ولهذا السبب بلا شك يحمي الكثير من المارة عيونهم بنظارات سوداء: إنهم يحاولون الهرب –على طريقتهم– من مناورات القانونيين المنوّمة مغناطيسياً. وبإمكان المرء التنبؤ أنهم سيحاولون بذل أقصى الجهد دون طائل، والسير بسرعة، لكنهم لن يتمكنوا من الوصول ذات يوم، وسيسقطون في فخاخهم.

تريدون مثالاً؟ 2000 جادة ماساشوسيت؛ وسط مبان هادئة تماماً يوجد قصر أحمر وأبراج صغيرة، وأسطح ومراقب حصون...مخبأ لأنماط هجينة، نصفها من الجنّيات، ونصفها الآخر من الساحرات. إنه مسكن عائلة أدامز. ويقال إن هذا القصر الأحمر مغطى بشكة (عدة المحارب) إلى درجة أن أسماء المحامين النحاسية تجلّل واجهته. هل كنتم تعرفون بوجود محامين في مدينة واشنطن وحدها أكثر من أولئك الموجودين في اليابان كلها؟

وممّ يعيش المحامون؟

من المساعدة في عملية اتخاذ القرار، ومن تثبيت القرارات عبر إبرام العقود، وبعد ذلك من فسخها عبر المحاكمات.

بهذا المقدار من الحضور الإلهي، وبمثل هذا الازدحام من المحامين... لا يستطيع المحقق الأكثر سيطرة على أعصابه من أن يمنع نفسه من الابتسام. لقد بلغ غايته، فواشنطن هي حقاً عاصمة اتخاذ القرارات.

*

* *

ولأن واشنطن هي عاصمة القرارات الأكثر أهمية، القرارات التي تتعلق بأجزاء العالم جميعها، فإن هناك بالضرورة ألواناً كثيرة لأجساد البشر في الشوارع. إنهم يأتون من أجزاء العالم كلها، محاولين المشاركة في القرار الذي يهمهم.

ولأولئك الذين يشبهونني ويحبون في آن معاً مجاورة القرار، ومشاهدة التنوع البشْري (نسبة إلى البَشْرة) لكوكبنا، أنصح بالجلوس على مقعد، على الرأس الغربي للمثلث المشكل من الشارع الثامن عشر، وشارع (H)، وجادة بنسيلفينيا. ستشاهدون منظراً لا يحجب بأبنية جديدة، يطل على بناية زجاجية، نقطة التقاء جميع شعوب الأرض.

بعضهم سيقول لكم أن مقعداً آخر، في نيويورك هذه المرة، في مواجهة مقر الأمم المتحدة، سيمنحكم متعة أكبر أيضاً. لا تصغوا إليهم، لأن هيئة الأمم المتحدة نادراً ما تتخذ قراراً، في حين أن الناس لا يتوقفون عن اتخاذ قرارت الحسم، والاختيار، والإملاء في بنايتي الزجاجية... بنايتي الزجاجية هي أكبر العيادات، وفي الوقت نفسه أكثر مدارس الحداثة قسوة. يرمم الناس فيها النصف (الفقير) من العالم، ويحاولون ترسيخ القواعد الأساسية لكل حضارة لدى النصف الآخر.

بنايتي الزجاجية هي الأكثر أهمية في العالم؛ لأنها بناية البنك الدولي

حيث لا يتوقف الجمهور عن الدخول إليها، في حين أن جمهوراً آخر لا يتوقف عن الخروج منها. في الواقع، فإن المصرفيين الدوليين[1] هم دائماً في مهمات: عندما يكون أحدهم طبيباً وتربوياً، فإن ذلك يتطلب الذهاب للالتقاء بالسكان. إنها لقاءات مربحة جداً لشركات الطيران، ولوكالات السياحة (لا يستطيع المصرفي الدولي أن يسمح لنفسه بالسفر على الدرجة الاقتصادية – ذلك أن مكانته توجب ذلك). وهذه اللقاءات هي مربحة أيضاً للمصرفيين الدوليين ما دامت المهمات تترافق مع نفقات مهمة.

لكن علينا ألاّ نكون مغتابين. إن الشراهة المالية لدى مصرفي دولي يحترم نفسه ليست سوى باعث ثانوي. فالمحرك الحقيقي للمصرفي الدولي، هو الشغف أن يكون على حق في كل شيء، ودائماً وفي كل مكان.

في كل رحلة من رحلاتي، بما فيها الأكثر بعداً، على الطرف الآخر من البحر، وفي أقصى ما وصلت إليه آثار الاقدام، صادفت مصرفياً دولياً، سواء تعلق الأمر بالريّ أم الملاريا أم القروض الصغيرة أم محو الأمية لدى الفتيات، والمصرفي الدولي دوماً على حق.

وعلى مدى يومين كاملين، كنت أجلس على مقعدي على حافة جادة بنسيلفينيا، ولم تكن عيناي تبارحان الجمهوريْن المبرقشين، أولئك الذين يدخلون إلى البناية الزجاجية، والآخرين الذين يخرجون منها،

(1) المقصود موظفو البنك الدولي، يستعمل التعبير هنا للتهكم: (المترجم).

ذاك الذي ذهب في مهمة وذاك الذي عاد منها.

كان عليّ أنْ أنهض، وأقف أمام الباب طارحاً الأسئلة: فما دام هؤلاء المبعوثون يعرفون كل شيء عن أي شيء، فإن بإمكانهم أن يفسروا لي أسرار القطن. لكن التعب منعني من ذلك. كنت أعرف ما سوف يردده جميعهم على مسمعي. الخصخصة، الخصخصة في مالي، الخصخصة في مصر، الخصخصة في أوزبكستان، الخصخصة في الهند...

كيف يمكن الاعتقاد أن كلمة واحدة يمكن لها أن تجيب على الاسئلة جميعها التي يطرحها العالم؟

ربما كان وجود بنك واحد للعالم كله، حتى وإن بدا ممتلئاً بأفواج من الجمهور المسافر المبرقش، فكرة ليست حسنة؟

*

* *

أحب زيارة القصور، جميع القصور. وبما أنني أعاني من الدوّار، فممنوع عليّ صعود الجبال. وعليه فإن القصور تمنحني مؤونة العلو، والارتفاع الاجتماعي إن لم توجد القمم المغطاة بالثلوج. ومثل جميع الهواة الحقيقيين، أفضل القصور التي لا تزال تعيش حياتها الحقيقية، تلك التي بدلاً من أن تتحول إلى متاحف، مثل أغلبية القصور، لا تزال تأوي ملوكاً، وملكات، أو بصورة أفضل، رؤساء، أي: أناساً أقوياء.

طرقت إذن باب قصر القصور، المكان الذي توجد فيه القوة الكلية

المسيطرة على كل شيء فوق هذا الكوكب (بما في ذلك القطن أيضاً)، باب البيت الابيض.

أجابني «شارل كونر»، المستشار الزراعي لجورج دبليو بوش أنني أخطأت في عنوان مكان القرار. إن كونغرس الولايات المتحدة هو صاحب اليد العليا في هذه القضايا الحساسة، ولاسيما أحد أعضائه واسمه «شارلز ستنهولم»، الشخصية الأكثر نفوذاً في القطاع.

شكرت كونر وذهبت إلى «شارع د» ذات صباح شديد البرودة.

ما أشد دهشتي وأنا أكتشف أن مكتباً... للمحامين هو المكان الذي يأوي هذا البرلماني!

في الواقع كان المحترم شارلز ستنهولم قد هزم للتو في الانتخابات الأخيرة، على الرغم من أنه كان قد مثل تكساس جيداً على مدى ست وعشرين سنة. وللحصول على مزيد من الدقة الجغرافية، فإنني ما إن دخلت إلى مكتبه حتى رفع أسفل سرواله، لكي يريني جزمته اليمنى حيث كان شكل دائرته منقوشاً عليها. في اليوم التالي لسقوطه، كان المكتبُ الذي يقوم بحشد مجموعات الضغط المتخصص في الملفات الزراعية قد وظّفَه.

لم يكن بإمكاني أن أتلقى درساً أكثر وضوحاً حول النظام السياسي الأمريكي، هذا النسيج المرصوص (والقانوني جداً) بين البرلمان وبين مجموعات الضغط.

شارلز ستنهولم مقاتل في سبيل القطن. يشهد على ذلك جدار مزدان بصور (المحترم ستنهولم بصحبة بوش الأب، أو مع هذا الوزير أو ذاك، المحترم ستنهولم وراء مقود الحصّادة جون دير، المحترم ستنهولم وسط حقل أبيض تماماً...). يطلق شارلز على الجدار بحنو (the me wall). كيف يمكن ترجمة هذا الإدغام الذي تمتلك اللغة الانجليزية عبقريته؟ «الجدار – أنا»، أو «الجدار المكرّس لي»؟

يواصل زيارة المكتب.

– هذه اللوحة، هناك على اليمين، هي من أعمال زوجتي. بإمكانك أن ترى مزرعتنا. وفي الخلفية هناك كنيستنا. مزرعتنا غير بعيدة عن «لوبوك». تبلغ مساحتها ثمانية مئة هكتار.

وداخل خزانته، المؤطرة بالزجاج، تصطف كؤوس وميداليات لا حصر لها، أحرزها صديقنا. جمعية مزارعي تكساس تشكر ش. ستنهولم على عمله (تموز/ يوليو 1991)؛ كونفدرالية القطنيات تحيي رجل الكونغرس ستنهولم على تفانيه للقضية القطنية، اتحاد صناعيي النسيج يحيي ابن تكساس المقدام، شارلز ستنهولم...

صديقنا شاعر وجداني.

– القوة الأولى والقاعدة الحقيقية لأمريكا هي العائلة. والقطن هو إحدى العائلات الأمريكية الأكثر التحاماً. لن يتمكن أحد على بث الفرقة بيننا.

صديقنا حازم.

– أولئك الذين يهاجمون القطن الأمريكي سيلاقون معارضة.

صديقنا لديه أفكاره الخاصة عن الجغرافيا السياسية.

– الشكوى الموجهة ضدنا في منظمة التجارة العالمية؟ هل تعرف من الذي قدمها؟ البرازيل والبلدان الإفريقية. ألا تجد أن هذا التحالف غريب بعض الشيء؟ المساحة المتوسطة للمزارع في البرازيل: بضعة آلاف الهكتارات بينما هي لا تتجاوز الأربعة أو الخمسة آلاف في إفريقيا.

صديقنا ليبرالي.

– نحن نؤمن بحقيقة السوق وعدالته. سنلغي طوعاً إعاناتنا المالية، عندما سيلغي سائر العالم، بدءاً بإعانات الأوروبيين. ولا تنسَ أن تذهب إلى الصين أيضاً للتحقق. الآسيويون هم ملوك المساعدة المستترة.

صديقنا فخور ببلده.

– أمريكا تحب زراعتها، والزراعة هي «خميرة» قيمنا. عندما يهجر بلدٌ زراعته، يفقد روحه.

صديقنا متواضع.

– المدافع الحقيقي عن زراعتنا هو مارك لانج، المدير العام للمجلس الوطني للقطن. أنصحك بمقابلته في مدينة «ممفيس». سيشرح لك كل

شيء.

صديقنا يحسن الاستقبال والترحيب.

– ما دمت موجوداً فيها، واصل طريقك أكثر إلى الغرب، باتجاه تكساس العليا. توجد هناك المزرعة العائلية في «أريكدال». قدم أجدادنا من السويد، وابني هو الذي يدير المزرعة الآن. ستشاهد حفيدي أيضاً. عمره تسع سنوات، أهديته بندقية تضاهي طوله؛ لممارسة الصيد. يجب البدء بذلك مبكراً.

الأشباح ومانيتو الكبير[1]

عندما اكتشف المهاجرون الأوائل النهر الطويل جداً الذي أطلق عليه الهنود المحليون اسم مي –زي – سي – بي (أي «والد جميع المياه»)، وجدوا فيه شبهاً بالنيل، فقرروا أن يستقروا على ضفافه. أين يمكن العثور على مكان واعد بمستقبل مشرق أكثر؟ باشروا في بناء مدينة أطلقوا عليها اسم أول عاصمة لمصر وهي «ممفيس» (قبل ميلاد السيد المسيح بأكثر من عشرين قرناً). كان هؤلاء المهاجرون يملكون الثقافة، أما ورثتهم فقد تمتعوا بالمثابرة: شيّدوا هرماً ضخماً قرب الجسر، ليس بعيداً عن المكان الذي اغتيل فيه مارتن لوثر كينج. هذا المكان هو مركز المؤتمرات الخاص بهم.

كيف يمكن الهروب من الماضي بعد بداية كهذه؟

لا تحتكر «ممفيس» (Memphis) الحنين. تنافسها لشبونة أو «ساو لويس دو مارانهاو» على سعفة النخيل في ذلك. لكن البداهة تذهلك منذ الخطوات الأولى: «ممفيس» مدينة تتغذى من الذاكرة، وأولها هذا الشكل الخاص للذاكرة: الموسيقى.

لا شك أن «البلوز»[2] قد ولدت ذات يوم في حقل ليس بعيداً من

---

(1) روح الخير والشر لدى بعض القبائل الهندية، والمعنى المجازي هنا هو «الشخص المهم والقوي»: (المترجم).

(2) «البلوز» موسيقى جاز بطيئة، ألّفها زنوج الولايات المتحدة الأمريكية: (المترجم).

هنا، وهي ابنة العبودية ومشقة العمل. كان الناس يزرعون القطن في هذا الحقل، مثلما كان عليه الأمر في جميع المناطق المحيطة. كانت «ممفيس» تعيش من هذا المنّ. ولذلك تتقابل في روح المدينة إلى الأبد، الحسرتان اللتان لا انفصام لهما: حسرة الزمن الذي كان فيه قطن تينيسي يسود العالم، وحسرة الزمن الذي كان النغم نفسه يغني «البلوز».

لا يسعى ضوء النهار إلى تجميل أحد، فقلب المدينة عبارة عن كومة من المباني التي يميل لونها إلى الرمادي وهي من جميع الأحجام والأنماط، تنتشر فوقها مواقف السيارات، وهي تحتل أفضل الأماكن وترتفع إلى خمسة، أو ستة طوابق. لماذا استهجان ذلك؟ الكل يعلم أن السيارات تهرّب الزيت أحياناً وتطلق الدخان، إلا أنها نادراً ما تتبادل الشتائم ليلاً، وهي لا تمارس الزنى أبداً، وضجيجها لا يخلف ذرية لا تطاق. ومما لا شك فيه أن السيارات -كمستأجرة للمكان- أفضل من البشر. فلماذا تحرم من منظر يُطل على النهر؟

هل سيستقبلنا الشخص الذي جئنا من أجله: مارك لانج؛ المدير العام للمجلس الوطني للقطن؟ إن هذا المجلس هو جمعية تضم جميع الأمريكيين المحترفين في مجال القطن. «مارجوري» هي المساعدة، وهي سوداء متعالية تضع البودرة على وجهها، وتتعامل مع الناس ببرود. لم تترك لنا سوى القليل من الأمل.

– السيد لانج مشغول جداً... يا للخسارة! كان السيد لانج موجوداً في واشنطن في الوقت نفسه الذي كنت فيه هناك... هّلا ذكّرتني بجنسيتك؟ فرنسي؟ يرتاب السيد لانج من الأكاذيب... سوف نتصل بك.

بانتظار أن يقرع جرس الهاتف الخلوي، كنت أنظر إلى البطات، وهي تتخبط في الماء. تجتذب هذه المخلوقات الظريفة نزلاء فندق «بي بودي» (Peabody) (الفندق الفخم المحلي). إنها تسكن في البركة الصغيرة الموجودة في القاعة الرئيسة مقابل الاستقبال، وتتنزه وتقأقئ بين الزبائن الذين يقهقهون.

في 21 تشرين الثاني (نوفمبر) 1938، قرر بضعة أشخاص من ذوي النفوذ في قطاع القطن، تأسيس المجلس الوطني للقطن؛ للدفاع عن مصالحهم. واتخذ هذا القرار في قاعة خاصة في فندق «بي بودي».

تستعيد المدينة مظاهرها ليلاً، مع وصول الأشباح التي تذّكرنا بالماضي القريب. يسكن الأكثر ضجيجاً بينهم شارع «بيل» حيث أقام الجنرال الشمالي، يوليسيس غرانت مقر قيادته في ذلك الشارع خلال الحرب الأهلية. وبعد ذلك بوقت متأخر –أي منذ منتصف الخمسينات– سَكنَ فيه و. س. هاندي وأتباعه، من بينهم إلفيس بريسلي.

لكي تكون الأكثر صمتاً، لم تكن الأشباح التي اختارت السكن على طول النهر هي الأقل حضوراً. يجب التعرف فقط على مكان لقاءاتهم.

إنه مبنى من أكثر المباني تقشفاً، ويقع في 64 شارع الاتحاد. يتطلب الأمر وجود عيون حادة، ومصباح لكي تفك رموز اللوحة النحاسية التي نُحيي نصفها:

لم ينته جهدك الذي تبذله للقراءة. سِر ثلاث خطوات والتفت إلى اليسار، تجد نفسك في شارع «فرونت» (الجبهة) حيث تنتظرك قصيدة محفورة على لوحة نحاسية. إنه تكريم للمكان وحسرة أخرى.

شارع «فرونت» (الجبهة)

كثير من الناس الذين سافروا في أرجاء العالم

عاشوا في ش.ف.

قاتلوا ووهبوا حياتهم وأعادوا الروح إلى ش. ف.

ولكن مع آلاف الذكريات

التي تتزاحم من حولي

أريد أن أبقى حتى يوم الحساب في ش. ف.

كان هناك العديد من الفرسان المكتئبين

الذين اشتهروا في خوض معارك نبيلة في ش. ف.

كان هناك معارك ظافرة أُخرى خاسرة

فيها من تمزق جلده، أو جُرح، أو بقرت بطنه

قرون الثيران والدببة، باذلين حياتهم

ثمناً في ش. ف.

لست مكاناً أنيقاً جداً، ش.ف.
ثم إن وجهك متسخ يا شارع الجبهة،
ولكن في أعماق بناياتك الحزينة والباردة
توجد قلوب رجال نابضة تساوي الذهب
مَنْ هو و. ج. بريتون؛ كاتب النشيد إذاً؟

هناك أسرار تنتظرنا من الجانب الآخر للباب. لا تأتي الأشباح إلى هناك بمحض المصادفة، فلقد اجتاحت الذكريات القاعة الكبرى: عشرات الصور لأزمان قديمة، من بينها آلات القطاف الأولى، وباخرة على النهر حطمها الرصاص، وصورة لمهندسين يقفون أمام آخر طراز لمحلجة القطن. وهناك صورة ل «ألفيس» نفسه، وابتسامته غير المكترثة تعلو شفتيه: إنه يعانق طفلاً يمد إليه ساق شجرة قطن.

هناك واجهة كاملة مخصصة للمراسلات والتحويلات. كانت الأوامر المتعلقة بمعاملات القطن ترسل بواسطة البرقيات. ولذلك كان يجب تقليص عدد الكلمات. كان أول رمز (كود) وضع هو ذلك الذي أنشأه رجل اسمه س. ب. هوارد الابن عام 1926، وبعد ذلك بثلاث سنوات، حل محله نظام جديد من اختراع تيودور بوينتنغ (Buenting)؛

كان التجار يرتبون خمسة أحرف بالطرق الممكنة جميعها، ومن خلال ذلك كان باستطاعهم أن يقولوا لبعضهم بعضاً كل شيء دون أن يضيّعوا وقتهم الثمين.

بوينتنغ، هوارد... تشعر بالعار؛ لأنك لا تعرف شيئاً عن هذه الأمجاد القطنية. وها هو ذا و.ج. بريتون يلبس قبعة، ويبدو في صورة احتفالية بين بضعة مساعدين، نعم هذا الشخص «بريتون» هو كاتب القصيدة. هل كنتم تعلمون أن مهنته الحقيقية هي المالية، وأنه قاد هذه البورصة لفترة من الفترات؟

أدت غرفة المدخل، المصنوعة من النحاس والخشب الثمينين، دورها التلقيني. نستطيع الآن أن ندخل عبر الباب الصفّاق.

قاعة كبيرة مستطيلة الشكل، في طرف منها يوجد مكتب، وفي الطرف الآخر حزمة تزن مائتين وعشرين كيلو من القطن الرمادي اللون بسبب الغبار. هناك خمسة صفوف من الأرائك حيث يمكث العارضون والمشترون. ينظر هؤلاء من خلوات هاتفية يعلوها «طابق مسروق» (mezzanine) مغطى بلوحة سوداء لا نهاية لها. يوجد سطر لكل ولاية:

ألاباما

أريزونا

أركنساس

كاليفورنيا

إلخ...

وتتتابع الأعمدة من اليسار إلى اليمين:

تقرير المحصول، المتوقع، النوعيات...

كان الضوء ضعيفاً، مثلما أن القاطع الكهربائي قد حرك ثلاث مراوح في الوقت نفسه، كما أن المصابيح مشدودة ببراغ فوق شفرات المراوح. كانت أنوار السيارات تمر عبر النوافذ ذات الزجاج السميك، الذي يطل على «شارع الجبهة». كانت القاعة تمتلئ بخيالات متحركة.

قريباً يكون قد مضى ثلاثين عاماً على إغلاق هذه البورصة. إذن لماذا لا تزال خانات اللوحة مزودة بأرقام؟ أية طبشورة هذه التي لا تزال تقاوم هذا المقدار من الزمن الماضي؟

يهمس إلي السيد ستانلي بالجواب ونحن خارجون. إنه مكّلف بتصميم متحف القطن القادم، لكنه قلق ويتساءل: هل سيرى النور يوماً؟ لقد أُعطيت وعوداً بتمويل مشروع المتحف، لكن الأموال تأخذ وقتاً طويلاً قبل أن تصل.

– كنت أتابع نظراتك، لا شك فهمت، أليس كذلك؟ أجدادنا كانوا يتناوبون على العمل. في كل صباح كان واحد من بينهم يتصل من نيويورك. كان بإمكانك أن تثق فيه. لم يعد أحد يأتي من أجل التجارة. لكنها كانت الأسعار الحقيقية، تلك التي كان يسجلها على اللوحة؛

ممفيس مدينة وفية.

في الخارج كان الجسر الحديدي أشبه ببرج إيفل ممدداً، في حين كان الهرم يلمع من كثرة الأضواء الإعلانية. لكن جميع محلات التجارة الكبيرة كانت مغلقة في شارع الجبهة. أما الأبواب والنوافذ فقد سُدت وتحولت إلى سور. حانوتان فقط لا يزالان على قيد الحياة، الأول: متخصص في الوشم، والآخر: في تاريخ «البلوز». قنديل صغير كان يسهر على مجموعة «غيتارات».

*

* *

1918 «نورث بارك وي»، مقابل حديقة الحيوانات تماماً: لا يوحي الشكل الخارجي للمبنى المصنوع من الطوب الأحمر ذي الطابق الواحد، بأنه جذاب، على الرغم من الزخرف المثلث الشكل عند المدخل، الذي يعود إلى الفترة الإغريقية الحديثة. يوجد في هذا الحي السكني منازل أخرى يثير مظهرها الدهشة والإعجاب.

الباب الرئيسي مغلق. بعد أن يمضي بعض الوقت في انتظارٍ قلق (هل تراجع السيد لانج عن قراره باستقبالك؟) تدرك أنه يجب المرور من الخلف. قدّم نفسك أمام آلة التصوير وابتسم لها بلطف. بعد ذلك تعطى الأوامر وتجد نفسك في «قدس الأقداس». مدخل متواضع، لا توجد فيه أية مظاهر للبذخ، لكن الافتخار يملأ الجدران. فهناك عشرات

اللوحات المعدنية المغطاة بالذهب والفضة، التي تشهد على الخدمات الجيدة التي قدمها المجلس الوطني للقطن. وما إن يمر الوقت الضروري لاجتياز قاعة كبرى (إنها هي التي تحمي الباب المغلق، هذه المرة، القاعة باذخة إذ تحتوي على أرائك جلدية، وطاولة منخفضة مصنوعة من الخشب الاستوائي، وحائط يضم صور المسؤولين القدامى)، ها هو...

... مارك لانج!

يبدو كما لو أنه طفل ضخم ذو قامة طويلة بالكاد أصابته الشيخوخة: مغلف بشكل جيد، خدّاه مدوّران وخلف نظّاراته السميكة يحمل نظرة ضاحكة، وكأنه أفضل تلاميذ الصف.

إنه طفل ضخم، يطلق أمامك بهدوء، رقماً عوضاً عن لقمة خبز مغمسة، فاتحة للشهية:

– ثلاثون مليار دولار.

إنه موضع فخر لعبته الأخيرة وكبريائها؛ يمثل هذا المبلغ رقم أعمال أعضاء المجلس الذي تشرّفه قيادته.

– نحن ندافع عن مصالح جميع قطاعات إنتاج القطن، من المزارع إلى موزع النسيج، مروراً بأصحاب مصانع المواد، ومنتجي البذار، ومخترعي أدوية مكافحة الحشرات، وأصحاب المغازل والنساجين...

تستمع مارجوري؛ المساعِدة السوداء المتبرّجة كثيراً بشغفٍ إلى

أحاديث رب عملها، دون أن يبرح عينيها هؤلاء الزوار الفرنسيين للحظة: يبدو أنهم لا يقولون له شيئاً ذا قيمة.

كيف لا تتم مشاطرة هذا الكبرياء؟ إن مصالح هذه الجماعات المختلفة متضاربة تماماً. ومع ذلك فإن متلاعباً وحيداً من طبقة شجاعة يستطيع أن يحافظ على وحدة تلك المصالح. وحده مخادع استثنائي يستطيع أن يخفي عن المجموع، أن المستفيدين الوحيدين من النظام هم المزارعون.

حقاً إن الطفل الضخم ذا القميص الأزرق الفاتح معلم.

توّفق الآلة التي أُخترعت قبل مارك لانج، والتي طورها الأخير كثيراً، بين فيزياء السوائل، وبين صناعة الساعات الجدارية الدقيقة. لنُلخّص ولنُبسّط:

يجسد المزارعون الأمريكيون بضع قيم مؤَسسّة للأُمة، ولاسيما الفحولة والحياة في الهواء الطلق، موافق؟ موافق! كيف لا يواجَه المزارعون بمشاعر الحب؟ يصدر قانون إطار مرة كل خمس سنوات محدداً السياسة الزراعية الجديدة للإدارة (لا أريد القول إنها تَعِدُ القطاع بمبلغ معين من الإعانات المالية): إنه مشروع قانون الزراعة. أيجب الاستمرار في مساعدة هؤلاء السكان المثيرين للإعجاب والشجعان بالتأكيد، لكنهم قليلو العدد، إذ يشكلون اثنين بالمئة من مجمل سكان البلد؟

تدور رحى الحرب على مدى أشهر: وخلف الانقسامات التي تكون موالية لهذا الطرف أو ذاك، يتواجه برلمانيو الدوائر الريفية والآخرون. تنهمك جماعات الضغط في العمل وتخطب الصحافة بإطناب وتشدق. ويؤدي ناتج عمل هذه القوى الى اعتماد رقم ما. وفي ختام عدة قفزات فجائية يعود السلام، وتبدأ العصافير في الغناء من جديد فوق حقل المعركة.

النتائج للفترة 2003—2007: عشرة مليارات دولار هي عبارة عن وعود للمزارعين الأمريكيين.

كان بإمكان المجلس الوطني للقطن أن يظهر فرحاً كبيراً: إنه مَنْ قاد جيش جماعات الضغط الزراعية.

وبالنسبة لمارك لانج وأصدقائه؛ فلا تزال المسألة الأكثر حساسية قائمة وهي: كيف السبيل لكي تقع الحصة الكبرى من هذا المنّ في كيس نقود مزارعي القطن؟ لم يكن لدي، للأسف الشديد، علم بالمكائد المستخدمة، لكنني أرحب فقط بالحصيلة.

الأمريكيون مقامرون قنوعون، فالفائز يجب أن يُحتفلَ به، بغض النظر عمن يكون، ودون حقد وبلا حياء. وهكذا تسلم المجلس الوطني للقطن مرة أخرى، جائزة أفضل جماعة ضغط في الولايات المتحدة عام 2003.

تعزا فعالية مارك لانج بنسبة كبيرة لصفاته كساعاتي: يجب على رب

عمل جيد لجماعة ضغط، أن يلتزم بالسيطرة على الروزنامة السياسية بإتقان تام. في واشنطن وفي حفلة الرقص الغريبة هذه للديمقراطية الأمريكية، حيث يرقص الجميع مع بعضهم بعضاً منذ الصباح حتى المساء، فإن لتقلبات القلب قوانينها. يَعْرِفُ الغواة الذين يقومون بعمل جماعة الضغط، تارة كمتملقين وتارة كنصابين، الفترات التي تخبو فيها مقاومة فرائسهم كالبرلمانيين، وذلك عند الاقتراب من تصويت معين مثلاً. إن المهارة الأولى لعمل جماعة الضغط ترتكز، إذن، على مواءمة وقت تقديم المطالب على إيقاع الانتخابات. فالانتخابات الرئاسية تجري كل أربع سنوات، أما الانتخابات النيابية فكل سنتين، ويمثل رُبع الشخصيات الأكثر نفوذاً في الكونغرس، الولايات القطنية، وكأن هذا الأمر جاء مصادفة. ويمكن للمرء أن يتوقع استقبالاً جيداً منذ الآن، لطلبات المزارعين من أجل مشروع القانون القادم للزراعة: إن دخوله حيز التنفيذ (2008)، يتوافق مع معركة الانتخابات الرئاسية.

لكن المهنة معقدة. فبالتوازي مع النبض الوطني، يجب على عضو جماعة الضغط أن يقلق من تسلسل الأحداث المتعددة الأطراف. إنَّ لمنظمة التجارة العالمية إيقاعاتها، التي يجب اللعب معها اليوم، وأخذها بعين الاعتبار.

فكيف يتم الرد على إدانة منظمة التجارة العالمية للإعانات المالية، التي تقدمها الإدارة الأمريكية إلى مزارعي القطن في بلدها؟

أولاً: عن طريق كسب الوقت، ثم عن طريق العولمة. وفي الواقع، فإن التكتيكين يشكلان تكتيكاً واحداً، إذ يجب إدراج بند إزالة جميع الإعانات المالية (لا الأمريكية حسب) عن مجموع الإنتاج الزراعي (وليس فقط عن إنتاج القطن) على جدول أعمال الجلسات القادمة لمنظمة التجارة العالمية. إن إدارة نقاش عالمي بهذا الاتساع، سيطول أمدُه بالضرورة إلى ما لا نهاية. وفي غضون هذه المداولات الطويلة، ستستمر الآلة الجميلة لمارك لانج في توزيع مبالغ الأموال الضخمة دون مضايقات مهمة.

– تصرخ أمريكا في كل مكان، إنها تؤيد فضائل الليبرالية. كيف تدافعون –إذاً– عن هذا النظام المتعارض بشدة مع منطق السوق؟

– لا أحد أكثر ليبرالية مني. إن عالماً دون أية إعانات مالية سيكون أفضل. لذلك، أكرر هنا، لنلغِ في وقت واحد جميعاً، جميع الإعانات المالية المرئية والأخرى. لدينا قائمة بها. هل تعرف كم من مساعدة يقدمها الاتحاد الأوروبي إلى منتجي القطن في أقطارهم؟ مليار دولار كل سنة، ولبلدين هما أسبانيا واليونان فحسب! والشيء نفسه تفعله الصين. لماذا توجه الانتقادات إلينا وحدنا؟

– لأن بلدكم، الذي لا يضاهى، هو أكبر بائع على الكرة الارضية: فله أربعون بالمئة من جميع الصادرات. إن نظامكم يحطم السوق!

يبتسم مارك لانج دون أن تبدو عليه أية علامة من علامات نفاد

الصبر. لقد سبق له أن سمع هذه الحجة ألف مرة، وأجاب عليها ألف مرة. لكن التكرار والمزيد منه، والابتسام والمزيد منه، مهمتان رئيستان لعضو جماعة الضغط. إنه يستشهد بدراسات جادة، وبأساتذة كبار، وبأفضل الجامعات. لديكم جامعات جيدة في فرنسا؟ نتائج هذه الدراسات قاطعة: السعر العالمي لا يعتمد علينا. لنكن واضحين: إنه تأثير يمكن إهماله، وبالكاد يمكن تحديده كمياً.

استوضحت، فيما بعد، عندما عدنا إلى الموتيل[1] الجميل الذي أقمنا فيه في الأحياء الفرنسية، أرقاماً أخرى؛ فالإعانات المالية تدعم –بتكلف– أنواعاً من الإنتاج غير المربح. ودونها سيتوقف المزارعون الأمريكيون عن زراعة القطن. وعند انخفاض العرض، ستستأنف الأسعار ارتفاعها، الذي سيتراوح بين خمسة وسبعة عشر بالمئة، وفقاً للخبراء.

(1) الموتيل: فندق على الطريق العام يبيت فيه الرحالون، ويوقفون في ساحته سياراتهم: (المترجم).

في صحبة رئات البحر[1]

تينيسي.

كانت أشعة الشمس الخفيفة التي تسبق الربيع تعطي قليلاً من العذوبة للهواء، واللمعان ل «كرومات»[2] الشاحنات الضخمة التي كانت تتجاوزنا وهي تُصدر أصواتاً حادة. كانت تبدو كأنها حيوانات ضخمة قادمة من كوكب آخر، ومتعجلة للعودة إليهن بعيداً جداً عن تينيسي. كانت الحقول منبسطة وفارغة تماماً: لدي الخيار في أن أستعيد فيها الزمن القديم، والعبيد السود يسيرون على الأقدام، بينما الأسياد يعتلون صهوة الخيول. نجحت تينيسي في تحقيق انفصالها. أما التحريض الذي كان يسود بقية الولايات المتحدة فلم يكن يعنيها.

كيف كان بإمكاني أن أتنبأ بالدوار الذي كان ينتظرني في «نوكسفيل»؟ فما إن غادرت ممفيس باتجاه الشرق، حتى وجدت الطريق العام رقم 40، وهو يقودني بهدوء إلى أراض كان يبدو لي أني أعرفها دوماً حتى وإن كانت تلك هي رحلتي الأولى لها. تلك الأراضي التي كان يصعد منها التاريخ القديم المزدوج المعقد: تاريخ القطن وتاريخ الموسيقى. كنت أعيد قراءة ملاحظاتي حول الاختبارات الجينية؛ كي أحضّر نفسي

(1) بالفرنسية «méduse» هو جنس حيوانات هلامية بحرية تضيء في الليل: (المترجم)

(2) جسم بسيط معدني أبيض لا يصدأ، يستعمل في طلاء عدد من المعادن لصيانتها: (المترجم).

لزيارة المختبر الذي كان مثبتاً في قعر السيارة الضخمة الثقيلة.

*

*   *

.1900

تكاد الحرب الأهلية تضع أوزارها، وتكاد تجد الأرياف توازناً جديداً، فما إن انتهت العبودية، حتى ابتدأ التحضير لاضطراب آخر. اجتازت حشرة صغيرة «ريو غراندي»، وبدت كأنها شغوفة بالقطن الأمريكي. كانت تسمى «بول ويفيل» (Boll Weevil)، ولم تكن ممارسات أنثاها مقبولة: كانت تثقب بواسطة متكها[1] حفرة في برعم الزهرة، وتضع فيها بيضة. بعد فترة وجيزة، كانت اليرقانات تولد، وتبدأ بالتهام كل ما يحيط بها. وكانت الأرض تكتسي ببراعم ميتة. يستطيع المرء أن يتوقع منذ الآن، أن كارثة تنتظر موسم الحصاد.

وهذا ما تعبر عنه أغنية «البلوز»، التي تعود إلى تلك الحقبة[2]:

(حسن، يحصل التجار على نصف القطن،

وحشرات الـ «بول ويفيل» تحصل على الباقي،

ولا تترك لزوجة المزارع المسكين،

إلا فستاناً من القطن القديم

مليء بالثقوب، مليء بالثقوب).

---

(1) المتك: مقدم الرأس في الحشرة: (المترجم).

(2) أوردها ستيفن يافا في كتابه «القطن الكبير»، نيويورك، «فايكنغ»، 2005.

أصيبت الولايات بالوباء، الواحدة بعد الأخرى. كانت الحشرة تتقدم نحو الشرق مسافة ستين كيلومتراً كل سنة.

وفي محاولة لمحاربة هذا الغزو، سيكتسب المزارعون عادة سكب كميات كبيرة من المبيدات الحشرية في حقول القطن التابعة لهم (قرابة نصف المبيدات الحشرية التي كانت تستخدمها الزراعة الأمريكية بأكملها). وسيضاف إليها قريباً كميات كبيرة من مبيدات الأعشاب الرديئة.

استمر المزارعون الأمريكيون في إنتاج القطن، ولكن بهذا السعر المتزايد في الارتفاع للأموال، وللبيئة. وسنة بعد أخرى كانت الصناعات الكيماوية تعثر على أسلحة جديدة. في الحقيقة، علينا أن نثق في الولايات المتحدة: هذه البلاد تعرف كيف تحشد طاقاتها خصوصاً، عندما يتبين أن هناك سوقاً يَعِدُ بجني أرباحاً طائلة. تريد هذه البلاد لنفسها، أن تكون «أمة حلول لا أمة مشاكل».

1976.

طرحت شركة «مونسانتو» مبيداً للأعشاب في السوق، انتشر فوراً على نطاق واسع. أطلق عليه الفنيون اسم «غليفوسات» (glyphosate)، في حين سماه الآخرون «راوند أب» (Round up). لم يترك «طيفه الواسع» أي حظ للنباتات غير المناسبة. وتواصلت الأبحاث في «سان

لويس» (ميسوري)؛ مقر «مونسانتو»، بتمويل من هذه السلطة العالمية الأكثر رواجاً. وبعد ذلك بسبع سنوات، أعلن الشاب «روب هورش»، أحد علماء الكيمياء الحيوية لهذه الشركة، أنه قد عدّل للتو زهرة البيتونيا جينياً.

مسكينة زهرة البيتونيا! لن تدوم ساعة مجدها طويلاً. لم يكن الاهتمام موجهاً إليها، بل إلى الآفاق التجارية الواسعة التي تعلن عن وصولها. كيف يؤثر الـ «راوند أب»؟ فما إن يُسكب منه القليل على أية عشبة، حتى يبطل لديها نشاط الإنزيم المنتج للأحماض الأمينية. وعندما تجرد العشبة من هذه الأحماض فإنها تموت. يكفي أخذ جين هذا الإنزيم وجعله مقاوماً ل «راوند أب»، ثم إدخاله في شجرة القطن. وستتحمل هذه الشجرة مطراً من الـ«غليفوسات» دون أضرار، وذلك على النقيض من جميع النباتات المجاورة التي ستموت بعد أيام قليلة. اخترعت «مونسانتو» للتو وسيلة النجاح المزدوجة: بيع مبيد الأعشاب، وبذور النبتة التي تقاوم مبيد الأعشاب في آن واحد.

لنذهب بعيداً أكثر. لنبحث الآن عن وسيلة لتطوير الإمكانات لدى شجرة القطن، قاتلين جميع أعدائها الآخرين.

منذ مطلع القرن العشرين، كان العلماء يعرفون بوجود ميكروب اسمه Bacillus thuringiensis (BT)، وهو من بين أكثر الميكروبات جاذبية وخفة روح، ذلك أنه يقتل الأسروعات واليرقانات عبر ثقب

جدار أمعائها. وبالنتيجة رش المزارعون حقولهم بال BT على أمل أن يتخلصوا من الحشرات إلى الحد الأقصى. لكنه جهد كان غالباً بلا طائل، فالحشرات الصغيرة تتجنب سيل المادة السامة دون عناء، وذلك من خلال الاختباء في قعر الليفة.

بعد ذلك خطرت لفرق «مونسانتو» فكرة إدخال جين «باسيلوس» في شجرة القطن نفسها. لن يتمكن «النهابون» من الهروب من مصيرهم، ما دام السلاح الذي سيقتلهم موجوداً داخل جدارهم نفسه.

وما إن تم تخيل الحل حتى حقق فوراً.

فإذا بذار شجرة جديدة تولد، وهي مقاومة بصورة مزدوجة لمبيدات الأعشاب و »النهابين».

كيف يمكن ألا يولى الاهتمام بهذا الطفل العبقري، علم الأحياء الحديث؟

*

* *

حاول البروفسور نيل ستيوارت، عالم جينات النبات المشهور عالمياً، عبثاً ارتداء القميص الأبيض، لكن بقي عليه أن يحمل شعاراً لا يخدع: اللحية الطويلة قليلاً. يؤكد نيل أنه كان «نبيهاً» في عهده. لكن نباهة نظرته تثبت أن عالم النبات لم يسئ استخدام العشب (بمعنى الحشيش)

كثيراً. يفكر بسرعة مبتهجاً. كان استقباله حاراً: نادني نيل. اشتغل على القطن، وقام بأبحاث كثيرة عليه، لدرجة أنه تساءل إن كانت النباتات المعدلة بواسطته يمكن الاستمرار في تسميتها بالقطن.

– يجب أن يكون الإنسان نزيهاً إزاء أسماء الأشياء، إنك توافق على ذلك؟

إنني موافق.

– لا تقلق. إنني لم أهجر القطن. لكني سمحت لنفسي بأخذ إجازة قصيرة. لا يزال علم النبات يخطو خطواته الأولى. هل تريد أن أُريك؟

كيف يمكن أن أرفض؟ أية معجزة تحضرها لنا «تينيسي»؟ أطفأ نيل ستيوارت الضوء.

ظهرت في الظلام ثلاث بقع، وثلاثة خطوط عامودية تومض بضوء فوسفوري. قبل ذلك، كانت هناك غابة صغيرة من النجيليات في حوض فوق طاولة المختبر الكبيرة.

– ما رأيك في ذلك؟

تنفعل كلماته من شدة الرضى.

– لا أفهم. ماذا يجري؟

– يجب على تقنيتنا أن تتحسن، لكننا نقترب من الهدف. بلّغ أصدقاءك البيئيين الأوروبيين، أننا سنجعلهم يحبون التعديلات الجينية.

يشعل النور من جديد. كأنني كنت بحاجة إلى كل الوضوح الممكن كي أفهم.

– هو ذاك. أشرح لك. رئات البحر حيوانات عجيبة. اكتشفنا أنها تضيء لدى اقترابها من مواد معينة. بإمكانك أن تحزر البقية.

أطلب من نيل ستيوارت أن يتابع درسه.

– أدخلنا جينات رئة البحر في بعض النجيليات هذه. زرعناها فوق هذا الدمّال [السماد] الذي خلطناه مع مسحوق. نعم إنه المسحوق (الديناميت) الذي تُصنع منه المتفجرات...

تأخذه الحماسة فيصبح سريعاً في كلامه.

– قريباً، وبفضل علم النبات، سوف نخلّص الكرة الأرضية من جميع الألغام المدفونة، هذه التي تهشّم أفخاذ الكثير من الأطفال. يكفي أن تلقي طائرة بذور نباتات معدلة على الأرض التي يشتبه بوجود ألغام فيها. وعندما تنمو ويحل الليل، يشير ضوؤها الفوسفوري بدقة إلى المكان الذي تغفو فيه أدوات الموت هذه. شكراً لرئات البحر! عندما أفكر أن أغلبية الناس تكره هذه الحيوانات! حسنٌ. لقد استحققنا أغنية صغيرة، أليس كذلك؟

يتوجه البروفسور نيل ستيوارت إلى خزانة تقع تماماً خلف نباتاته السحرية، ويخرج غيتاراً.

– لا تقلق. «تينيسي» لم تنس قطنك العزيز!

(عندما كنت طفلاً صغيراً جداً،
كانت أمي تهدهدني في مهدي،
في حقول القطن القديمة خاصتنا،
كان ذلك في لويزيان، ليس بعيداً عن «تكساركانا»
في حقول القطن القديمة خاصتنا.

وعندما كانت حقول القطن تتلف،
لم نكن نجمع كثيراً من القطن،
في حقول القطن القديمة خاصتنا،
كان ذلك في لويزيان، ليس بعيداً عن «تكساركانا»،
في حقول القطن القديمة خاصتنا).

كانت القدم اليمنى للمغني تضرب بفرح على بلاط المختبر. شاهدتها منذ النظرة الأولى: لم تكن الطفولة بعيدة أبداً عن البروفسور نيل ستيوارت. كانت تطفو، وهي دائماً على استعداد لتغمره.

كانت هناك مساعدتان تقرعان بأيديهن وقد أصابهما الخجل. كان لونهما بنياً وصغيرتان في الحجم، لا شك أنهما من أصول مكسيكية.

أما أنا، وبدلاً من أن أنضم إلى الحفلة في هذا المكان الجذاب من جبال الأبالاش، بدأت في تحضير حجج البيئيين الأوروبيين.

أطرح بداية هذه العقود التي يوقع عليها الفلاحون إجبارياً. هل صحيح أنهم يلتزمون باستعمال البذور المعدلة جينياً مرة واحدة فقط؟ أولئك الذين يعيدون زراعة بذور متحدّرة من المحصول، هل تؤكدون أنهم يدانون بقسوة من طرف المحاكم؟

يرفع «الهيبي» القديم ذراعيه إلى السماء:

– ألا تدفعون أجراً لقاء العمل في أوروبا؟ مَنْ الذي استثمر ملايين الدولارات في الأبحاث الضرورية من أجل إيجاد البذور؟

– لكن، ما إن يدخل المزارع في الدوامة حتى يصبح من الصعب عليه الخروج منها!

– هو حر إذا أراد العودة إلى القرون الوسطى، وتدمير نفسه بمبيدات الأعشاب والحشرات!

احتفظ «الهيبي» القديم من شبابه المناضل بهذا الميل إلى النقاش. هو مسرور أنه قادر على التحادث مع أحد سكان القارة القديمة، التي هي جزءٌ من الكرة الأرضية، وتدهشه ردود فعلها بالتأكيد.

استمر النقاش وقتاً طويلاً قدمت خلاله اعتراضاتي المشروعة جداً، واحدة تلو الأخرى.

هل اكتسبت المناعة؟

– إضافة للعلاجات القديمة، كان يجب زيادة الجرعات.

ثمة انتقال التغييرات إلى نباتات أخرى؟

– أحسن طريقة للسيطرة عليها، هو معرفة آلياتها الخاصة بصورة أفضل.

المخاطر الصحية؟

– لم يظهر شيء منها.

يملك البروفسور جواباً على كل شيء، كمواطن خال من العيوب ينتمي إلى «أمة الحلول»، في مواجهة ممثل لحضارة قديمة مشدودة إلى «مبدئها الخاص بالحيطة والحذر».

يغادرني، وهو يعبر عن ملاحظة أخيرة:

– أعرف أن جماعات الضغط المعادية للجينات عندكم، قد توصلت إلى تبني منع البحث. منع البحث! كيف تقبلون بهذه الجاهلية؟ في هذا المجال كما في المجالات الأخرى، لدينا الانطباع أن أوروبا تدير ظهرها لزمانها. إنها تدمر نفسها... أوروبا مهد العلم الحديث!

هذا بلا شك ليس نوع الكلام المستحب جلبه في جعبة الشخص نفسه.

لا أوصي أحداً بقضاء سهرة في موتيل في نوكسفيل (تينيسي) بمعية

حقيقة وحيدة كهذه.

كلب وخيول ميكانيكية والريح

ما معنى أن يكون بلد منبسطاً؟

تعطي الحكمة المحلية أفضل الأجوبة: لا تقلق بشأن كلبك. لا توجد أية فرصة لضياعه. يستطيع أن يهرب حيثما شاء، وأن يركض مدة ثلاثة أيام وثلاث ليال، لكنه لن يغيب عن ناظريك أبداً.

أقفر المكان.

تتجه النظرة إلى الجهات الأربع الأصلية، واحدة تلو الأخرى، دون أن تعثر على أدنى نتوء. تكاد تطل شجرة من وقت إلى آخر لتحية العين. الآفاق عارية. يبدو أنها تتوالى على هذا النحو حتى كندا، حتى جليد القطب الشمالي، لِمَ لا؟

هل يمكن أن يكون كوكبنا قد توقف فجأة عن أن يكون مستديراً، دون أن يخطرنا بذلك؟ لحسن الحظ أن الشاحنات تذكّرنا بالحقيقة العلمية، فهناك نحو مسافة بعيدة في عمق الطرق المستقيمة للغاية، حيث لا نرى في البداية إلا السقوف، سطح يلمع. وشيئاً فشيئاً، كلما اقتربت تبدو كأنها تخرج من الأرض. ولا تكاد تمر حتى يأخذها مجدداً تقّوس الأرض غير المنظور، ثم تبدأ من جديد في الغوص. ربما تشعر

بالخجل ولذلك تختفي؟ قد يكون هذا سبباً في أننا لا نرى شيئاً من حمولتها؟

نهاية آذار (مارس).

الأرض حمراء إلى ما لا نهاية. وييباب: لن تبدأ الزراعة قبل بداية أيار (مايو). ووسط هذا الفراغ الشاسع جداً، يشعر المسافر الذي عرك جميع أنواع الوحدة، أن لديه حاجة حيوية: حاجة للحضور، أيّ حضور. كأن نقول –مثلاً– لو يستقبل بارتياح، بل وببهجة قطيع الخيول الداكنة اللون التي ترعى هنا وهناك في الحقول. لكن فحصاً سريعاً سيُعْلِمَهُ أن الأمر يتعلق بآلات لا بحيوانات. وفي دماغه، تهزأ اللازمة الصغيرة للإدراك عبثاً: ها أنت ترى جيداً أن الأمر يتعلق بمضخات، ولا علاقة له البتة بالشعر، أو الحياة المتوحشة للمراعي. ما هي إلا مضخات مألوفة تمتص النفط. لا يهم. فجيدٌ أن يتزود المرء بصحبة الخيول حتى إن كانت ميكانيكية، لأن حركة هذه الخيول المزيفة تملك شيئاً عذباً يائساً، يشقّ على المرء تحّمله. إنها تئن، وتنحني الى ما لا نهاية، ثم تنهض من جديد، وتحني رأسها نحو الأرض، ربما لإلقاء تحية، أو أداء صلاة تعيدها ألف مرة ومرة.

الحضور الوحيد الآخر يذكّر بالطيور، أو بالأحرى، بمحاكاة، أو بنمو مفرط لها: الطائرات. أعرف جيداً أنها أجهزة للري. وهذه

الأقواس الحديدية الطويلة المركّبة فوق عجلات صغيرة تتدلى منها الأنابيب. لكنني أفضّل أن أرى فيها هياكل عظمية لمناطيد مسيّرة، أو مناطيد أخرى موجهة، تبدو لي كأنها ستحاذي -عما قريب- بقايا أرض قديمة للطيران.

يستنجد فراغ هذه السهول العالية لتكساس بالخيال، وهي السهول التي تهب عليها الريح نفسها أكثر مما تهب فوق البحر. يمكن للمرء أن يتفهم تديّن السكان المحليين. مَنْ -باستثناء الله- يمكن أن يسكن مثل هذه الصحراء؟ وبما أن الله، وفقا للمصادر الأكثر إطلاعاً، يسكن السماء، وأين يمكن العثور على أفضل مرجعية في مجال الشاقولية (العمودية) في هذه الآفاق المثبطة للهمة؟

تولى القرى أهمية أقل من المزارع، لذلك لا توجد لافتات تشير إليها. طريق المزرعة 67 تتقاطع مع طريق المزرعة 72. ومن هذا التقاطع تبدأ طرق تقود إلى مزارع أخرى: الـ 202 تقع على اليمين، والـ 208 تقع على اليسار.

سرت أميالاً وأميالاً، ومع ذلك فإنني لا أزال -وبعناد- في طريق المزرعة 303. لماذا هذا الاختيار في حين أن هناك مزارع أخرى كثيرة تمد لي ذراعها؟ شيء ما كان يقول لي أن هذا هو اتجاهي، وهو وحده، دون أيّ من زملائه سيفشي لي أسرار القطن التكساسي.

للأسف، لن أصل أبداً إلى المزرعة 303.

إذ إن مركزاً سكنياً قد انبثق فجأة في الأفق، أقصد أن أقول بضعة منازل مؤقتة مسبقة الصنع (بنغالو) تكاد تكون أعلى من السهل:

ويت فيس (WHITEFACE)

تشير إلى ذلك لوحة تضاف إليها بضعة أحرف خجولة، ولم يمض وقت طويل على إعادة طليها:

435 نسمة

هذا التوضيح المثير يستدعي طرح سؤالين:

1. هل يُصِّحح رسام مكلف، الرقم حالما تتحرك الأحوال المدنية؟

2. أين هم هؤلاء الـ 435؟

السيارات هناك، البيك-أب، وذات الدفع الرباعي، البرلينية[1]، لكن لا أحد «وايت فيسي» أو «وايت فيشن».

وايت فيس: من أين جاء هذا الاسم؟

(1) نوع من السيارات: (المترجم).

الوجه الابيض، الوجه الفاتح، الوجه الشاحب...

هل هو تحذير للسكان القدامى ذوي البشرة الحمراء، وهل هي طريقة لإفهامهم بوضوح أنهم خارج مناطقهم هنا.

كنت خائب الظن. جاء الجواب الصحيح من طرف مراهق، كان يقف وراء صندوق المتجر الكبير الوحيد الصغير، بينما كان يحتسي جرعتين من الجعة، ويطلق معها الحازوقة بضع مرات. المتجر متخصص في المشروبات المحلاة بالسكّر، والبطاقات السياحية التي تمثل يسوع المسيح، والمفاتيح التي على شكل شمعات وكعكعات جافة.

– وايت فيس..؟ يطلق عليها هذا الاسم بسبب الحيوانات... الأبقار، إذا شئت... فهنا رؤوس الأبقار بيضاء.

– لم أشاهد أيّ حيوان في الحقول.

– أقول لك ما يقوله كبار السن... فهم يتذكرون الحيوانات.

*

*   *

يروي لنا المراهق –أمين الصندوق– أنه يوجد في «وايت فيس» بنك أيضاً، وكنيسة، وبقالة، ومرآب، وشركة صغيرة للقرميد الأحمر، ومتحف. لكن المتحف مغلق... متى أُغلق؟ لا أحد يعرف.

– لكن إذا كنت تهتم بالزمن الماضي، فيمكنني أن أعطيك تاريخ

وصول القطار إلى هنا.

أشكره مقدماً. أوروبا قارة قديمة تتغذى من التواريخ.

– هذا ما قيل لي. أوروبا عجوز، أظن أنني لن أذهب اليها أبداً. يعود تاريخ القطار إلى عام 1925.

كان المتحف المغلق مخصصاً للطاقة الكهربائية وفي نهاية سنوات الثلاثينات، كانت «وايت فيس» قد بَنَت ملعباً (مبنى للألعاب الرياضية). ولكي يتم تدشينه بصورة مشرفة، تم دعوة فريقي كرة سلة. وفي منتصف المباراة، ضعف النور ثم حل الظلام. سارع رئيس البلدية ومساعدوه وطافوا في المدينة، وأخذوا يقنعون السكان غير المهتمين بالرياضة (أولئك الذين استخفوا بالملعب) بضرورة إطفاء مصابيحهم، ومقاطع التدفئة، وأجهزة المذياع، وأجهزتهم الأخرى المستهلِكة للطاقة. عاد النور شيئاً فشيئاً، واستؤنفت المباراة.

*

*   *

– هل تهتم بالقطن؟ إذن أنت محظوظ.

ينحني المراهق –أمين الصندوق– فوق طاولة الشراب، ويمد ذقنه، وفجأة يتكلم بصوت منخفض:

– هناك، خلفك يوجد أكبر مزارع في المنطقة.

ألتفت إلى الوراء وأشاهد رجلاً عجوزاً بديناً بلغ الستينات من عمره بلا شك. إنه يتغدى: يأكل لقمة من فطيرة، ثم يشرب جرعة من الكوكا الخفيفة. من جديد يتناول لقمة ثم جرعة. ينظر أمامه مباشرة ويضع قبعة حمراء فوق، تشير بصورة جليّة أنه من مشجعي نادي (Spurs).

– يتكلم يوماً، وفي اليوم التالي لا يتفوه بكلمة. حظاً سعيداً.

اقترب.

– هاي.

– هاي.

– هل بإمكاني أن أجلس؟

لا جواب.

إذن أجلس.

– إنني قادم من فرنسا.

– آه!

– إنني مهتم بالقطن.

– وأنا أيضاً.

يمد لي أكبر منتج في المنطقة بطاقة الزيارة، وهي بطاقة جميلة جداً، خلفيتها خضراء:

بوبي ج. نيل

صندوق البريد 357

وايت فيس، تكساس 79379

الزاوية العليا من اليسار مُزيّنة بصورة. نرى فيها بوبي وهو جالس على جرّاره، رافعاً الراية المرصعة بالنجوم. وفي الأسفل عبارة يغرز فيها المسمار: Proud to be an American farmer (فخورٌ أن أكون مزارعاً أمريكياً).

– هل يمكنني أن أتحدث معك؟

– عن ماذا؟

– عن القطن.

لا جواب. الفطيرة. الكوكا. الفطيرة. الكوكا. لا جدوى من الإلحاح. لقد تم تنبيهي لذلك. لا يتكلم الرجل في هذا اليوم.

كان عليّ أن أنتظر حتى اليوم التالي؛ كي يتحدث إليّ عن القطن. يملك المزارع الذي قَبِلَ أن يتحدث إليّ مساحة متواضعة: ست مئة هكتار بدلاً من ألف ومئة. لكن لديه كلباً؛ وبفضل هذا الكلب استطعنا أن نتعرف إلى بعضنا. كانت الريح شديدة ذلك اليوم. وكانت هناك كرة كبيرة من الأشواك تتدحرج على الطريق. كان يبدو أنها قادمة من بعيد، ربما من أريزونا، أو كولورادو. كان الكلب يلعب بها. عندما لا يمكن للمرء أن يتوه، فإن عليه أن يتسلى بشيء ما. هبّت ريح أكثر عنفاً من

سابقتها بحيث دفعت الكرة اتجاه الكلب. لم يكن بإمكانه أن يتخلص منها، فقمت بمساعدته. عندها دعاني صاحب الكلب إلى جرّاره.

– ملعون هذا الريح.

– ملعون هذا الريح.

مع مثل هذا التقديم وصداقة الكلاب المتبادلة، يصبح الناس أصدقاء بسرعة.

– هل تريد أن تتعرف إلى حياة مزارع قطن؟ هل أنت جاهز كي لا تضحك كثيراً؟ مِنْ أين تريدني أن أبدأ؟

هناك حظيرة لكل مزرعة. تشتري معدات مستعملة بالديْن: «يجب أن أستبدلها حتى قبل أن أُسدِّدَ قرضي». يملك سيارة من طراز متواضع (فورد كوبرا)، ومنزلاً متواضعاً (بنغالو) لإيواء عائلته... على الرغم من الستة مئة هكتار خاصته، «جو» ليس واسع الثراء، إلا إذا كان يكتم ما في نفسه. ومع ذلك، فهو يقبض الإعانات المالية الجيدة، التي لا يمكن عدها تافهة. تدفع الإدارة دولاراً في مقابل كل دولار يُسْتَلم من البيع.

إذن أين هي النقود؟

يقودني «جو» إلى قاعدة «ريس» (Reese) العسكرية القديمة.

حطّم محصول 2004 جميع الأرقام القياسية؛ لم يعد الناس يعرفون أين يخزّنون القطن. وبما أن المستودعات فاضت بالبضاعة، فقد استأجر

الناس المطار من العسكريين. الآلاف، والآلاف من الحزم (البالات) كانت تقوم بالحراسة فوق المدرج المخصص لهبوط الطائرات وإقلاعها. يا لغراية الجيش الأبيض المحروس عبر الأسلاك الشائكة، والمتابع من خلال برج مراقبة مهجور.

تعبر عن حيرتك بتهذيب.

– هل سيجد هذا الإنتاج العملاق من يشتريه؟

يبتسم إليك كمن يبتسم لطفل جاهل بالتأكيد.

– العالم بحاجة دائماً إلى القطن الأمريكي.

إذن، أين تذهب النقود؟

كوني قادماً من مالي، حيث الإعانات المالية هي رمز للقدرة الاقتصادية الكلية والتخمة الفاحشة للولايات المتحدة، كنت أتوقع أن ألتقي بمليارديريين، لكني وجدت بورجوازيين صغاراً، هم مزارعون جزئياً. بالتأكيد هم يزرعون حقولهم، لكن الكثير منهم يمارس مهنة أخرى (معلم، صاحب مرآب) ويعيشون في المدينة «الكبيرة» المجاورة؛ «لوبوك» (Lubbock).

من أجل عرض هذا الموضوع المؤلم، رفع «جو» ذراعيه إلى السماء.

– زوجتي لا تحب الريف. ولا أريد أن اتحدث إليك عن الأولاد.

بحذر، ومن خلال كامل الحصافة، واللباقة اللتين أعتقد أنني قادر

على ممارستهما. سألت «جو» إن كان يعرفُ ملياردير اً «قطنيا»، وإذا كان سيقبل بتعريفي عليه.

– على كل حال، هل كنت مخطئاً في قولي أن خمسة وسبعين بالمئة من الإعانات المالية تذهب إلى عشرة بالمئة من أكبر المزارعين الكبار.

– أنا لا أتعاطى السياسة، خصوصاً مع فرنسي.

هكذا توقفت صداقتنا فجأة بلا نتيجة. ذهب جرّار «جو». أما كلبه الذي جثم بفخر على الجناح الأيسر، فإنه لم يلق نظرة نحوي.

لن أُعطى فرصة للنقاش مع واحد من هؤلاء «المزارعين الكبار»، المستفيدين الرئيسين من نشاطات مارك لانج. ستظل أبوابهم موصدة أمامي دائماً.

غير أنني سألتقي بثروتهم.

عاصمةٌ عالمية

قبل عام 1890، كان السهل خلاءً. في بعض الأحيان كانت قطعان ضخمة تجتازه في طريقها إلى مسالخ بعيدة.

كيف تولد المدينة؟ فجأة يتوقف أحدهم؛ رجل ترافقه أسرته ربما. يأتي من بعيد، من مكان على ظهر الأرض حيث لم يعد ثمة أمل. وإلا فلماذا اختار الهجرة؟ يصل من ألمانيا أو تشيكوسلوفاكيا. كان يظن أنه سينزل في نيويورك. لكن دون أن يعلمه أحد، جرى تحويل الرحلة إلى مرفأ لويزيانا، أو تكساس. ارتأت انجلترا الجديدة أنها أصبحت مكتظة بالسكان. فليذهب المهاجرون للاستقرار في مكان آخر. منذئذ وهو يمشي، ترافقه عربة صغيرة تحمل كل ما يملك من ثروة. يجب تخيّل السير البطيء: عشرة أو خمسة عشر من الأميال كل يوم (عشرين كيلومتراً). منذ أسابيع ومناظر الطبيعة لا تتغير: السهل ولا شيء غيره مزروعاً بعلّيقات قصيرة.

فجأة يتوقف الرجل. لا نبع ماء للشرب، ولا منحدراً صخرياً للاحتماء من الريح. لماذا المكان هنا أولى من غيره؟ لماذا اليوم أولى من الغد؟ ومع ذلك فهو يتوقف، ولا أحد يدفعه للسير خطوة واحدة زيادة.

في اليوم التالي، يبدأ العمل. عما قليل رجل آخر، وعائلة أخرى

سينضمون إليه. بعد مئة سنة، أصبح عددهم مئتين وخمسين ألفاً، يعيشون وسط هذه الأرض الخلاء.

عندما يعيش المرء وسط الخلاء/العدم[1]، فإن من الأفضل ان يتعلق بشيء ما: كلمة، حسرة، ذكرى الجذور الضائعة، أوروبا التي تركها المرء خلفه، Lŭbeck (لوبيك) التي ستصبح فيما بعد Lubbock (لوبوك)[2].

لوبوك أرض منبسطة. في هذه المنطقة من غرب تكساس، لا تشعر الأرض بأية حاجة للأصالة. صنعتها الطبيعة أفقية، وأفقية ستبقى. لا يوجد أبداً أية تلة، أو منعرج لوادٍ. فَهِم البشر هذا الدرس عبر الاستكانة، والتذلل اللذين يشيران إلى رسالة أرضهم. ليس جائزاً هنا أو مقبولاً بناء ناطحات سحاب. يبني المرء بيته منخفضاً ويقبل بإذلال نفسه.

«لوبوك» فسيحة، حيث الهكتارات من المنازل المؤقتة المسبقة الصنع (بنغالو)، تعقبها هكتارات أخرى لمنازل إضافية. وبين الحين والآخر تبرز متاجر كبيرة (سوبرماركتات). لا يأتي المتجر الكبير وحده أبداً بل كمجموعة. يمر المرء إذن بهكتارات من المتاجر الكبيرة التي تبهره بأضوائها. لذلك يشعر بالارتياح وبنوع من الحنان، وهو يعاود رؤية

(1) الواقع ان كلمة rien الفرنسية تعني حرفياً «لا شيء»؛ لكنها في السياق المذكور أعلاه يمكن أن تعني «الأرض الخالية من كل شيء» (المترجم).

(2) وفقاً لرواية أخرى، لوبوك تحمل اسم محارب قديم في حرب استقلال تكساس، وترقى الى رتبة عقيد اتحادي هو «توماس سالتوس لوبوك»، المولود في 29 تشرين الثاني (نوفمبر) 1817 في شارلستون، وقد توفي في 9 كانون الثاني (يناير) 1862 في ناشفيل.

منازل (البنغالو). تريح الألوان غير البهيجة لجدرانها، المطلية بالرمادي والبني، العيون. أما تقنيات التسويق فهي معروفة. يعلو الصوت عند ساعة بث الإعلانات على التلفزيون. هنا، مثلما يجري في أي مكان آخر، «تُعد» الألوان في المناطق التجارية.

لوبوك مدينة متمددة: تجتاز الطرق العامة الكبيرة (الأوتوسترادات) محيط منازل (البنغالو)، عوضاً عن الشوارع، بل حتى الجادات. بسبب هذا الوضع، يحق للسيارات أن يكون لها مقعد في المجلس البلدي!

لوبوك مدينة غنية. يشاهد المرء، وهو يتنزه على طول الطريق 114، تشكيلة واسعة من المساكن الباهظة التكاليف. إنها نسخة من إنجلترا الجديدة (قرميد، المشربيات القوسية، النوافذ المقصلية)[1]. طرفة عين موجهة لكاليفورنيا (المزيد من زجاج النوافذ، قليل من الصلب)... تحية إلى التخمة الألمانية القديمة (المتانة، القوة)، حيث يظن المرء نفسه، وكأنه في الحي السكني لهامبورغ، أو فرنكفورت. لكن، مثلما يمكن للمرء أن يتوقع، فالأفضلية لطراز «ناتشيه – نوستالجي»: تألق يوناني جديد، جبيهات من أعمدة، وأي شيء في الحديقة يذكّرك بـ«القرينولين»[2] – يا للخسارة! لقد فاتك للتو مشاهدة «سكارليت»[3].

الإسناد والاحترام يوجبان ذلك.

(1) نافذة يتحرك مصراعاها صعوداً أو نزولاً؛ أي أشبه بالمقصلة: (المترجم).

(2) قماش قطني يابس لتبطين الثياب: (المترجم).

(3) بطلة جنوبية في رواية «ذهبَ مع الريح» لمؤلفتها مارغريت ميتشل التي صدرت عام 1936، وتحولت لاحقاً إلى فيلم سينمائي مشهور: (المترجم).

إذ إن لوبوك تعيش أولاً من الذهب الأبيض: هي وحدها مع ضواحيها تنتج رُبع القطن الأمريكي.

تصنع المصانع آلات للقطن؛ يبيع وكلاء السيارات، سيارات وشاحنات نقل القطن، أو أولئك الذين يزرعونه؛ ينتج الكيماويون الأسمدة، والمبيدات الزراعية، ومبيدات الحشرات للقطن. في الطرف المحيطي للمدينة توجد مصانع أخرى شاسعة (الأضخم في العالم)، تكرر زيت القطن؛ والجامعة (نوع من المدينة الإسبانية في القرن الثامن عشر، جديدة تماماً) تدرّس القطن، «الموتيلات» تستقبل الزوار القادمين من أجل القطن (وهل هناك سبب آخر للمغامرة في زيارة لوبوك؟)؛ المتاجر الكبيرة، ودور السينما، والأطباء يغذون، ويسلّون، ويداوون أهل القطن، في حين أن القساوسة يعدّونهم للحياة الأبدية. ولقفل دورة النظام، يقوم المؤمّنون بتأمين القطن، وتقوم البنوك بإعطاء قروض إلى جميع الذين سبق ذكرهم، وإلى هذا الحشد في لوبوك، الذي ينشغل من قريب أو بعيد بالقطن. أما مجد المدينة، فهل كان لمغني «الروك أند رول»؛ «بودي هولي» أن يوجد أصلاً لولا القطن، إنه أبُ «البلوز»، وهو نفسه خالق الروك؟

تعود أقوال مارك لانج؛ ملك جماعة الضغط، إلى ذاكرتي. إن القطن الأمريكي على صورة لوبوك: عائلة واحدة وحيدة. دون الإعانات المالية، هذه الإعانات الممتازة والملعونة في البرازيل ومالي، فإن هذه العائلة تسير كلها إلى الإفلاس.

*

* *

«لوبوك» القوية هي العاصمة العالمية للقطن. لماذا، عندئذٍ، هذا الإحساس بالهشاشة، والانطباع أن هذه المدينة لم توجد كي تدوم؟

هل هذا بسبب شبابها؟هل يوجد لمدينة تأخرت ولادتها فترة طويلة مكان للأبد؟ هل يجري ذلك بسبب الريح الحاضرة، والزوابع المستمرة التي لا تتوقف عن كنس الشوارع العريضة جداً؟ لا يتوقف عن لعنها وفي الوقت نفسه تكريمها. افتتحت لوبوك متحفاً للمحركات الهوائية قبل فترة وجيزة. زيادة على ذلك، يمكن للمرء أن يشاهد أنواعاً قديمة جداً منها، عند زوايا بعض الشوارع. شكراً للريح التي تسحب لنا المياه من أعماق الأرض. كيف سيكون بإمكاننا زراعة القطن دون مياه في هذا المكان العالي من تكساس؟

هل يمكن أن يعزا هذا البقاء المؤقت العابر إلى هذه المنازل المصنعة مسبقاً (الجاهزة)، وإلى هذه الحقول من البيوت المتحركة التي تحتل الأحياء المنعزلة عن المركز. هل هي دائمة فعلاً؛ هذه المدينة التي يوجد في الكثير من منازلها دواليب، تبدو كأنها جاهزة للمغادرة خلال ساعة؟ أليست، بالأحرى، موسمية؟ والمواسم ليست فقط تلك المرتبطة بالضوء والشمس: إن للثروة دوراتها أيضاً. فإذا كان القطن ذهباً أبيض، فإننا نعرف ماذا جرى لمدنٍ في نهاية هجمات التهافت عليه.

عندها تعمل لوبوك دون أن تشغل نفسها بنهاية العالم. القطن ودائماً المزيد من القطن ودائماً القطن الذي يطلبه السوق.

هذه هي القوة الأولى للولايات المتحدة. لا المناخ ولا جودة الأراضي هما المفضلان. فمن هذه الناحية تعد إفريقيا متفوقة بما لا يدع مجالاً للمقارنة.

تحمي أمريكا نفسها بألف طريقة على الرغم من أغاني عشقها للتنافس الحر: بالإعانات المالية، والأنظمة الحاذقة، والتقنية، أو بالأمور الصحية والحواجز الجمركية المدارة ببراعة.

لكن أمريكا تحب السوق. ولنكن أكثر دقة: أمريكا تؤمن بحقيقة السوق. فبدلاً من أن تردد على مسامعها – مثلما يفعل غالباً الماليون والبرازيليون – «إنتاجي جيد، إنتاجي هو الأحسن»، تصغي أمريكا الى السوق؛ تريد أن ترضيها وأن تفعل كل شيء كي تقدم لها ما تنتظره.

أنشأ المهنيون، ممن هم على علاقة بالجامعة (جامعة تكساس للتكنولوجيا)، معهداً للأبحاث. منذ الصباح وحتى المساء، تقوم نساء بتفكيك أقمشة محبوكة قادمة من الصين. ثم يقوم باحثون بتحليل الألياف الموجودة فيها بعناية فائقة.

– تترقبون هذا النوع أو ذاك من القطن، أيها الأصدقاء الصينيون؟ لا توجد مشكلة.

أعطيت التعليمات إلى المتلاعبين بالجينات، ثم إلى المنتجين: ولكي

يبقى الزبون ملكاً، تم التضحية بصناعة النسيج الأمريكية القديمة دون ذرف الدموع عليها. أغلقت مصانع ولايتي كارولاينا الاثنتين أبوابها منذ وقت طويل.

لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير بمالي التي جئت منها إذ لا يفسر المستوى المتدني للأسعار كل شيء. لا تملك إفريقيا الوسائل لتمويل أدنى بحث. كما أن المساعدات التي تقدم في هذا المجال تتقلص سنة بعد أخرى. لماذا نستغرب بعد ذلك من الصعوبات التي تواجهها في السوق العالمي. كيف لا يصاب المرء بالقلق عندما يرى أن محصولها يتناقص، في حين يتقدم في كل مكان آخر؟.

*

* *

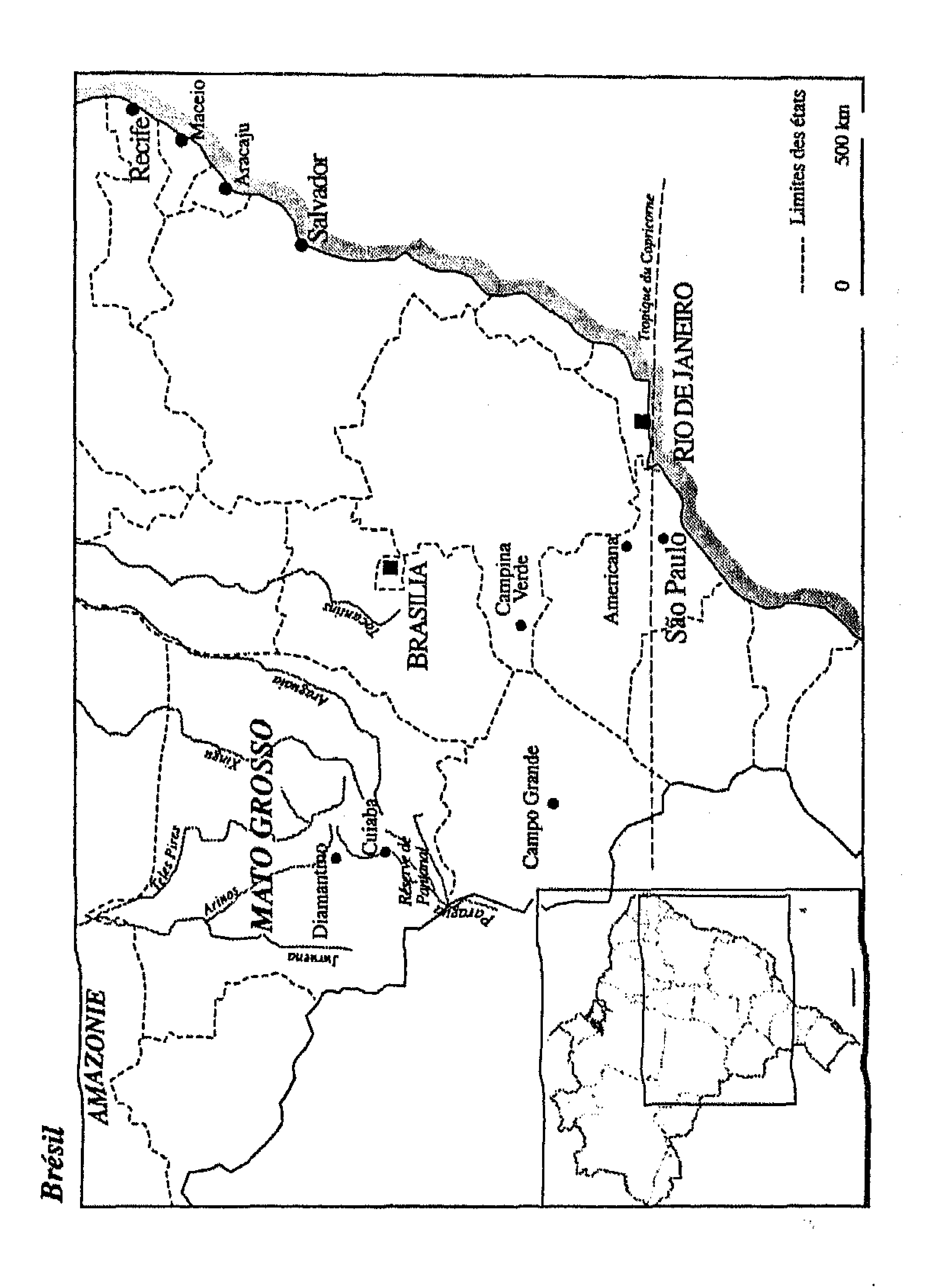
عندما كنت في لوبوك علمت بالانتصار القانوني للبرازيل، وحلفائها الإفريقيين: أدانت منظمة التجارة العالمية مبدأ الإعانات المالية الأمريكية، وأمرت بتفكيكها.

لم يبدُ أن هذا الخبر قد أرعب أصدقائي الجدد التكساسيين. هزوا أكتافهم. كان مارك لانج ماكراً. لقد قابلته، أليس كذلك؟ سوف يجد حلاً بالتأكيد...

3

البرازيل

مزرعة المستقبل



خارطة البرازيل

ماتو غروسو[1]

لونان للذهب

هؤلاء الناس يحبون السفر، إنهم يحلمون بالثروة. يعدّون حياتهم في مدينتهم الجميلة «ساو باولو» —العاصمة الاقتصادية للبرازيل الكولونيالية سابقاً—[2] كأنها أمرٌ كئيب رتيب؛ لذلك فهم يرحلون إلى الغرب، نحوَ الأراضي المجهولة. يطلقون عليهم اسم «باندير انتيس»[3]. أحدهم كان يسمى «باسكال موريرا». كانت رحلته طويلة، أفسدها البعوض، وبعض الحيوانات الأخرى الأكثر خطورة. ورغم ذلك، تخللها بعض الترفيه، ولاسيما التسلية بقتل «بياغويا»[4] المرعبين.

ذات يوم جميل من عام 1719 قرر الله —تبارك وتعالى— أنْ يكافئ

(1) إحدى الولايات الأمازونية الواقعة في القسم الغربي من البرازيل، وهي كلمة تعني «الغابة الكثيفة». وتظل هذه المنطقة إحدى أغنى مناطق العالم من حيث «التنوع الحيوي»، لكنها تأثرت خلال العقود الأخيرة بأعمال إزالة الأحراج، والتشذر البيئي؛ بسبب إقامة الطرقات وتطبيق الزراعة المكثفة. مناخها استوائي ذو رطوبة عالية جداً: (المترجم)

(2) تمتد الفترة التاريخية المعروفة باسم «البرازيل الكولونيالية» من سنة 1500 وحتى سنة 1822، سنة الحصول على الاستقلال من الاستعمار البرتغالي: (المترجم)

(3) اسم كان يطلق على الرجال الذين بدؤوا يتسللون إلى داخل البرازيل، ابتداءً من القرن السابع عشر، بغية البحث عن الثروات المعدنية، أو لأسر سكان أصليين وتحويلهم إلى عبيد. وكانت الحملات التي تشن لاكتشاف داخل البرازيل من نوعين: رسمي وكان يسمى «انترادا» أي (دخول)، وخاص وكان يسمى «بانديرا»، أي الرايات. ولذلك، فمن وجهة نظر علم الدولة تعني كلمة «باندير انتي» «الرجل الذي يتبع راية»: (المترجم).

(4) محاربون شجعان من الهنود الحمر في القرن السادس عشر: (المترجم).

صديقنا باسكال على فضوله وإصراره. وجد حجراً معروفاً لدينا جميعاً: انه الذهب. انتشر الخبر في أنحاء البلاد، محمولاً على أجنحة طائرين هما -بلا شك- زوجان من الببغاوين الزرقاوين.

تبع ذلك هجوم الطامعين بالذهب، وولدت مدينة أُطلق عليها اسم «كوييا»، على اسم النهر المحلي. استنفد المعدن الأصفر بعد بضع سنوات، وبدا مصير «كوييا» مظلماً.

لكن النهر يفيض بالأسماك، وضفّتاه المرويتان بالفيضانات هي من أكثر الأراضي خصوبة. تحول الباحثون عن الذهب إلى مزارعين. تواصل إعدام بضعة هنود؛ لكي لا تُفقد مهارة القتل. ووقعت معارك مع القادمين الجدد «الباوليين»[1] الذين تجرؤوا على المطالبة بأراض. تسيل الدماء، وتنمو المحاصيل، وتمر القرون.

قال شارل ديغول: «البرازيل هي بلد المستقبل، وستظل كذلك دائماً».

.1970

مما لا شك فيه أن البرازيل استيقظت؛ كي تكذّب الجنرال الذي طرده الفرنسيون من السلطة قبل فترة وجيزة. وهب الرئيس كوبيتشيك البلاد عاصمة جديدة هي «برازيليا»، أرادها أن تكون في وسط غير محدد في

(1) نسبة إلى «ساو باولو»: (المترجم).

قلب أراضٍ بكرٍ. وكانت الإشارة مفهومة.

خرجت «كويبا» من سباتها، وبدأت تكبر مثلما يحصل مع عدد قليل من المدن الأخرى في العالم. كان عدد سكانها يزداد بنسبة خمسة عشر بالمئة كل سنة. وفيما كانت تنمو بسرعة فائقة، وُلدت مدينة أخرى توأم على الضفة الأخرى من النهر، إنها «فارزيا غراندي» التي يقرب اليوم عدد سكانها من المليون.

ممَّ يعيشون؟

تقع الـ «بنتانال» —وهي محمية طبيعية رائعة— على مرمى حجر. يأوي هذا المستنقع الشاسع الذي تعادل مساحته نصف مساحة فرنسا، أنواعاً من الحيوانات أكثر مما تأوي منطقة الأمازون كاملة؛ لهذا يمكن للمرء أن يفهم لماذا يتدافع السياح لزيارتها. لكن تدفق الزوار هذا لا يفسر حيوية، وغنى هذه المنطقة الضائعة وسط القارة الأمريكية الجنوبية المسماة «ماتو غروسو». «ماتو» تعني «دَغل»، «سهل كثير العشب». أما «غروسو» فتعني «الفظ»، «المتوحش»، «السوقي»... وهذه هي طبيعتها: مراعٍ مزدحمة تقريباً بأشواك الغابات، يعلوها أشجار صغيرة لا قيمة لها.

الأخبار الأخيرة الواردة من الجبهة

يجب أن تسلك الطريق؛ لفهم أحجية الثروة، وهي طريق سترتفع

بعد قليل في غابة استوائية. تنضم إلى صفٍ طويل من الشاحنات، وتصعد رويداً في طريق متعرجة تنتشر أشجار كبيرة على جانبيها. يعلن لنا الدليل أسماءها كما لو أنه يقدم لنا أصدقاءه واحداً واحداً. نفضي إلى هضبة يبلغ علوها ستمئة متر، عندها يتضح كل شيء.

لا شيء يعيق البصر. يبدو المشهد كما لو أنَّ هناك بحراً متعدد الألوان، مجموعة من الأخضر الفاتح، أو الأخضر الداكن التي يتخللها الأحمر الشاسع للأراضي المحروثة. بحر ثابت لكنه رغم ذلك يتموج بهدوء. القسمات الوحيدة التي تبدو عند تأمل هذه المساحات الشاسعة، هي سدود الأشجار التي لا يمكن اختراقها. إنها تخفي وتحمي مسارب المياه، في حين اختفت بقايا النباتات البدائية، واستبدلت بأخرى تفيد الإنسان مثل: الصويا، والذرة الصفراء، والذرة البيضاء، والقطن. إنها بلا شك الأرض الزراعية الأكثر إتساعاً على وجه الأرض، وطموحها الوحيد هو أن تتوسع أكثر.

مرت ثلاثون سنة، ورغم ذلك فإن هذا السهل العالي كثير العشب لم يكن يثير اهتمام أحد. لم تكن قد بدأت المجازفة الزراعية. تتوالى اليوم المزارع الضخمة التي تبلغ مساحتها تقريباً ستة إلى سبعة آلاف هكتار. ونشأت بين هذه المزارع مدن مثل: «كامبينا غراندي»، و«كامبو فيردي»، و«ديامانتينو»، وهي بمثابة شقيقات صغيرات، أو مراكز أمنية ل «كويبا». إنه غرب بعيد استبدل الحانات بسلاسل الخدمة الذاتية (ماكدو، كينتاكي فرايد شيكنز). لا يوجد أية زريبة مرئية، ولا أي قطيع

يثير الغبار في الشارع الرئيسي (المعبّد المحاط بأرصفة منصوبة فيها مصابيح). يسير «الشريف» في سيارة يعلوها فانوس دوار. إنه يحرس منازل وكلاء الآلات الزراعية، ومحلات الأسمدة والمبيدات الزراعية. لا شيء يشبه مدينة جديدة إلا مدينة جديدة أخرى: الضوء، والنظافة، والشعور الدائم بالفراغ، والانطباع أن المرء يتنزه في ملابس فضفاضة. تراكم انجازات الحياة وحده، ومرور السنين سيملأ المكان، وسيعطيه ملامحه الخاصة.

عادةً، تقام المدينة الجديدة بين مدينتين قديمتين، وفي البرازيل، يعدُّ قيامها تسجيلٌ لتقدمٍ، وتوطيدٍ للجبهة.

إنها جبهة غزو حقيقي. وسنة بعد أخرى، يوسّع هؤلاء الذين يُطلق عليهم «الرواد» الأراضي الخصبة زراعياً في بلدهم مترامي الأطراف، ولهذا يقومون باستصلاحها بأقصى درجة ممكنة. لا تكون الخسارة في النباتات كبيرة، عندما يتقدم الرواد في السهل كثير العشب الذي يسمى «سيرادو»(1): الأيك وحدها تختفي، ومعها العليق، أي لا شيء ثمين فعلاً. لكن الرواد يهاجمون أيضاً الغابة حيث يقطعون ويحمّلون أجمل الأشجار ثم يشعلون النار فيما تبقى.

أنظرُ باتجاه الشمال، وألاحظُ أعمدة من الدخان تصعد إلى السماء.

---

(1) هو نوع خاص من السهل كثير العشب موجود في أمريكا الجنوبية. الكلمة بحد ذاتها تعني «المغلق» أو «الكثيف»، وهي تطبق على هذه النباتات بسبب صعوبة التجول فيها: (المترجم).

إنها دلالة على أن الأمازون يتراجع هناك، مثلما يتراجع في أماكن أخرى عديدة. بالرغم من اليمين الذي أقسمه العزيز «لولا»، عندما كان ولا يزال مرشحاً للرئاسة، لم يسبق وأن أزيلت أحراج بهذا القدْر.

تقنية الجُدْجُد

أنتَ الآن مدعوٌ إلى مزرعة برازيلية كبيرة (فازيندا)[1]، ولكن هناك نصيحة: لا تطرح أبداً على مضيفك السؤال اللطيف التالي:

– أودُ أن أفهمَ التاريخ الغني المعقد جداً لأمتكم الجميلة جداً، ولذلك هل يمكنني أن أعرفَ، كيف وضعتَ يدك على هذا الملك الواسع والبديع؟ أعن طريق الوراثة؟ أم عن طريق التملك من الدولة؟ أم أنك اشتريتها من ملك خاص؟

سيُفسِد عليكَ هذا النوع من الأسئلة إقامتك بالتأكيد. وإذا أمعنت في فضولك، فإنك تجازف في جلب متاعب جدية إلى نفسك.

توجدُ احتمالات قوية، أن لا يكونُ سيدُ هذه الأماكن محتفظاً بأي سند ملْكية. استقر فيها ذات يوم، قائلاً لنفسه: «هذه الأراضي الممتدة

(1) فزيندا (Fazenda) هي مزرعة ذات حجم كبير مخصصة لكل أنواع الزراعة، أو تستخدم لتربية الماشية. يعكس وجود هذه المزارع الشاسعة اللامساواة التي تميز توزيع الأراضي في البرازيل، فيحتل أقل من 1 بالمئة من المزارعين الكبار 44 بالمئة من الأراضي الزراعية المستغلّة على شكل مزارع، أو «فيزندا»، تصل مساحة الواحدة منها إلى أكثر من ألف هكتار. بالمقابل يحتل 40 بالمئة من المزارعين أقل من 1,2 بالمئة من المساحة القابلة للزراعة: (المترجم).

من الهضبة إلى النهر كلها لي». الويل لأي مزارع أو ممثل للإدارة إذا جاء يوماً ليحدثه عن القانون.

في عام 2000، طلب راؤول جونغمان، وزير الإصلاح الزراعي في عهد الرئيس كاردوزو من «مالكي» ثلاث آلاف وخمس وستين مزرعة كبيرة، أن يبرزوا السندات التي تبرر وجودهم في تلك المزارع، تبين أن ألف وتسع مئة منها كانت مزوّرة. ورغم ذلك، فإن شيئاً لم يتغير في إسناد ملكية الأراضي. تَعرفُ كيفية سير الأمور: المحامون ثرثارون جداً والإجراءات طويلة جداً...

هل تريد أن تجعلَ وثيقةً مزورةً تبدو كأنها قديمةٌ بأسرع وقت ممكن؟ ما عليك إذن، إلا أن تضعها في صندوقٍ دُسَّ فيه جُدْجُدٌ. يا للحيوان المسكين، سيشعر بنفسه كأنه ضائعٌ في حلكة الظلام، وسيتملكه الإرتباك ولن يكون قادراً على أن يمسك نفسه... يبدو أنَّ لا شيء أفضل من «فضلات» الجُدْجُدِ لكي تضفي على ورقةٍ جديدةٍ مظهرَ الورقة العتيقة، أي: الأصلية.

*

*   *

جنرال في ريعان الشباب

توجد مزرعة «موراو» إلى الشرق من «كامبو فيردي». لابد للمرء

أن يجتاز مساحة شاسعة الأبعاد لكي يصل إليها، إذ إنَّ ذلك الشخص الذي سيخاطر بنفسه فوق هذه المرتفعات الشاهقة، سيدرك سريعاً أن نقاط الاستدلال القديمة لم تعد موجودة. تنتمي هذه الحقول اللامتناهية إلى تموّجاتٍ أرضية طويلة بطيئة لا يبدو معها أن آل «ماتو غروسو» تملك شاطئاً.

يَلعبُ أطفالٌ على يمين المدخل، إنهم يشبهون أطفال العالم الآخرين: الأثواب الرثة نفسها فوق الظهر، والمخاط الأخضر نفسه الذي يسيل من الأنوف الصغيرة، والضراوة نفسها في التنافس على كرة رخوة، لم يعد فيها شيءٌ مستدير من فرط ما قضمها الغبار والجرذ. لا شك أنهم يسكنون في المخيم الذي يحاذي الطريق: أكداسٌ من الصفائح، وألواح الخشب، وأغطية من الأكياس البلاستيكية، وقطع الخيام، وسيارات مفتوحة الأبواب، بعضُها يملك دواليب كاملة، وأغلبها يرقد فوق قرميد. النساء تطبخ والرجال نيام، وكلاب تلعق بعضها بعضاً، وأجهزة مذياع صغيرة تزعق. إنهم أولئك الذين لا يملكون أرضاً، وتطلق عليهم تسمية الـ «دون أرض».

يبلغ عددهم الملايين في البرازيل. هل طُردوا جميعاً من أرضهم؟ واحسرتاه لهواة المعارك الجميلة الواضحة بين الخير والشر، فالجواب سلبيٌّ. إن أغلبية هؤلاء الناس الفقراء هم غير مزارعين، ولكن بما أنهم لا يملكون شيئاً، فإن هذه المعركة هي أملهم الوحيد. يحتلون أو يحاصرون المزارع (فازيندا). يتجمعون أحياناً ويسيرون تجاه «برازيليا»؛ لمطالبة

الرئيس لولا، العامل السابق، الوفاء بوعوده. يَظفرُ بعضهم بمطالبه بين حين وآخر، ويستلمون قطعة أرض، لكنها بالتأكيد غير كافيةٍ؛ لكي يبقوا على قيد الحياة، حتى ولو كانوا أكفّاء...يجبُ على المزرعة، في هذه المنطقة القصّية عن أي سوق، أن تتجاوزَ مساحتُها ألفي هكتار؛ كي تكون مُربحةً.

يبيع هؤلاء التعساء حينئذ أراضيهم، إلى واحد من كبار الملاكين المجاورين، وبما أنهم يصبحون من جديد «دون أرض»، فإنهم يستأنفون معركتهم[1].

*

* *

يبدأ عالم آخر في نهاية ممر أشجار «الاوكاليبتوس»[2]، حيث تحيط مساكن نظيفة جداً بملعب لكرة القدم المغطى بالعشب تماماً. هناك شبان منشغلون داخله، وآخرون يغسلون ملابسهم وينشرونها في الشمس، ثم يغفون في أراجيح النوم، أو يداعبون حشرة حمراء: شابّان من بينهم يلمّعان مقاعد السيارة، وثالث انهمك في المحرك، ولا نشاهد عجيزتيه

(1) لا تحتكر آل «ماتو غروسو» هذه النهاية الحزينة المتوقعة. في كل مكان في البرازيل، يراوح الإصلاح الزراعي مكانه بسبب انعدام الإرادة السياسية الحقيقية. تمنح الرئاسة الامتيازات إلى «اليزنس» الزراعي الذي يشكل الممّول الأول لإيرادات التصدير، على حساب الكيانات العائلية الصغيرة التي تعرقل الهجرة إلى المدن. وهذه الكيانات تمثل خمسة وسبعين بالمئة من التوظيف الريفي، وتستمر في توفير الغذاء لأغلبية السكان.

(2) جنس شجر للأحراج والتزيين يزرع عادة في المناطق الحارة: (المترجم).

اللتين تتحركان على إيقاع مذياع السيارة.

يبدو كأنه الشقيق الصغير للاعبي كرة القدم: السروال، والقميص ذاتا اللون الأسمر الفاتح نفسيهما دون قيافة، والجزمات الجلدية ذات الرؤوس المحددة نفسها. هناك مرافق آخر، لكنه لا يلعب، ولا يختلط بأية مجموعة، إنه ينظر ويبتسم. إنه ماركوس، المدير، طفل أصله من «ماتو غروسو». ولد في «كامبو فيردي»، أنهى التعليم الثانوي المهني، ووصل إلى المزرعة في ربيعه السابع عشر، حيث يمارس المهن جميعها. يرأس ماركوس اليوم مئة شخص، ويكرس وقته كاملاً للسبعة آلاف هكتار، وهو لم يتعدَ الثالثة والعشرين سنة من عمره.

يمكنُ التعرف على عمر بلدٍ فوراً، من خلال التعرف على إيقاع الجو الذي يشبه النبض. هنا الإيقاع سريع، ومرح، وبرّي. في بلدنا، يكون وَجِلاً وخاملاً وضعيفاً. يجعلك شباب البرازيل تشعر أن فرنسا عجوز جداً... لا شيء أكثر شباباً في البرازيل من سهل آل «ماتو غروسو»، كثير العشب، حيث الأراضي استصلحت منذ فترة وجيزة، والمدن قد خرجت تواً من الأرض. ولم يمضِ وقت طويل على مغادرة المدراء للمراهقة، مثلما كان جنرالات نابليون.

اليوم هو الأحد في المزرعة. تبدو كأنها [مدرسة] ثانوية أُنزل العقاب بتلامذتها جميعاً في القسم الداخلي. إنهم يسكنون بعيداً جداً؛ فيقضون عطلتهم الأسبوعية في منازلهم، وحينئذ فهم يقطعون الوقت

كيفما اتفق. يتقاضون ستمئة يورو شهرياً، في المتوسط، مقابل ستين ساعة عمل في الأسبوع (وتصل إلى ثمانين، وأحياناً الى تسعين خلال الأسابيع الثمانية المخصصة للقطف).

على بعد مسافة قصيرة، تحيط الفيلات الصغيرة المخصصة للرؤساء بقاعة الطعام.

يمتد بحر من الخضرة على مدى النظر، ومن كل جهة. فيبدأ في شهر آيار (مايو) بالتحول إلى البياض؛ ليغدو مثل محيط من القطن. قلب المدينة أشبه بجزيرة، لكنّ الوهم لا يطول إلا قليلاً. يقوم المدير الشاب بمساعدتي لزيارة مكتبه، حيث يوجد جهاز إرسال البرقيات، والحاسوب، والفاكس، في حين تومض أرقام على الشاشة:

– أحدث نشرة لأسعار نيويورك، السوق تُصدِر لنا أوامرها من هناك. يناديني الآن.

يقودني إلى خارج المكتب، ويُريني مفتخراً مستودعاً يتكدس فيه القطن بكميات ضخمة.

– هذه هي حريتنا.

– عفواً؟

– تعطي السوق أوامرها. إذا كنا لا نحب أوامرها... نُخزِّنُ هنا كل القطن الممكن تخزينه، وننتظر حتى تغيّر السوق رأيها!

– وفي حالة استمرار الأوامر السيئة؟

– عندها يجب أن يكون المالك ثرياً. وحدهم الأثرياء يستطيعون الانتظار.

– هل يعدُّ مالكك ثرياً؟

– إنه أكثر من ثري.

– هل يأتي إلى هنا في كثير من الأحيان؟

– أبداً، موجود دائماً في مكان آخر.

– أين؟ ماذا تقصد بمكانٍ آخر؟

– في مكان بعيد. في عام 1985 عندما اشترى هذه الأراضي، كانت تساوي ثمانية مئة دولار للهكتار. الآن تساوي ستة آلاف. ذات يوم سوف يبيع ما اشتراه، وسيشتري أراضٍ أُخرى في الشمال بسعر ست مئة دولار. المالك رائد، والرائد يذهب دائماً إلى مكانٍ أبعد. لقد اتخذت قراري بالذهاب الى أنغولا.

– لماذا تذهب بعيداً جداً؟

– أنا رائد أيضاً، لكنني دون ثروة، كلما كان الرائد فقيراً كان عليه أن يذهب إلى مكانٍ أبعد. هذه هي فرصتي الوحيدة كي أغدو سيّد نفسي يوماً ما.

*

*   *

يشكل المصنع الذي تشتغل فيه عاملات الحلج جزءاً من قلب المدينة. وبدلاً من أن يكون مدعاةً للخجل، فيتطلب ذلك اخفاءه، فقد تم انشاؤه في الوسط، ويبدو أنه محاط بحنان حقيقي.

– لماذا دهنتم الآلات باللون الأحمر؟

– البرازيليون هم أفضل طيارين في العالم.

– وإذنْ؟

– أفضل الطيارين يقودون أفضل السيارات.

– بدأت أحزر.

– آلاتنا هي الأفضل في العالم أيضاً. إنها تستحق اللون الأحمر. تماثل آلاتنا في مجال الحلج سيارات الـ«فيراري»، في مجال سيارات السباق.

يتبسم لي، ويرفع إبهامه بشكل مستقيم ويقول:

– اللون الأحمر صالح للإنتاج، ولإعطاء مردود جيد.

الراهب – الجندي

يبلغ الستين من العمر، نشيط، يلبس قميصاً واسعاً قصير الأكمام

(تي – شيرت)، وسروالاً قصيراً يصل إلى الركبتين (برمودا) وحذاءً رياضياً؛ شعره أبيض طويل مرخيّ نحو الخلف، ومربوط بشريط إنه: لوسيان سيغي، خليطٌ نصفه يشبه المطرب الفرنسي «هوغ اوفريه»، ونصفه الآخر يشبه الممثل الألماني «كلاوس كينسكي». إنه كتلة من الحيوية، ومخزنٌ للعلوم، وطاحونة كلام في آن واحد. يعمل مهندساً زراعياً ذات شهرة عالمية، وهو عضو في «مركز التعاون الدولي للبحث الزراعي من أجل التنمية»، منذ ثلاثين عاماً. كان المسؤولون عنه إدارياً يحملون تجاهه نظرة سلبية؛ لأنه يثير الجلبة، ويتصرف تصرفاً مستقلاً دائماً. لا يمل عن التنديد، والوعظ طوال الوقت.

لا يملك الدِّين ميزة احتكار الأشخاص الملهَمين وأصحاب الرؤيا. إن للعلم –وحتى لعلم النبات الذي يبدو هادئاً– رهبانه (جنوده) أيضاً.

الحرث هو العدو الشخصي لـ«لوسيان سيغي»، بل يعدّه الشر المطلق، والشيطان بعينه. أما إنجيله، وضمانة الازدهار للجنس البشري كله، فهو الشجر.

لنلخّص هذين المبدأين:

أولاً: لنتوقف عن الحرث.

يشق المحراث أثلاماً جميلة، ولكنه:

– يقوم بتعرية الأرض، وهذا يقود إلى انجرافها بواسطة المياه، أو الرياح وفي الوقت نفسه يؤدي إلى جفافها.

– يحرّر حداً أقصى من ثاني أكسيد الكربون في الهواء.

– يؤدي إلى تسريع فقر التربة من خلال إزالة المعادن الموجودة فيها.

ثانياً: لنقلّب الغابة!

تنمو الأشجار الكبيرة غالباً في تربة رقيقة وفقيرة. لكنَّ مصنعاً بيولوجياً يعمل عند أقدامها بصورة دائمة من أجل تغذيتها: الأوراق، والأغصان التي تتحلل، وكذلك جميع الحيوانات المتعايشة معها، من الميكروبات إلى الديدان التي تحفر ممرات بلا كلل، أي: تهوّية التربة. إضافة لذلك، تحد الظلال من تطور الأعشاب المسماة بـ «السيئة»: ثمانون بالمئة منها لا تنمو إلا في الضوء الكامل.

يساعدني صديقنا لوسيان في زيارة مختبره: نجو عشرين قطعة أرض كل واحدة منها تبلغ مساحتها نصف هكتار حيث يجري التجارب على الأساليب جميعها الممكنة لزراعة القطن.

– انظر!

تخرج الشتلات الأكثر سويةً، وتجهيزاً التي تحمل الرؤوس الأكثر استدارةً وكثافةً من أرضية النباتات المجففة، وليس من الأرض العارية.

يتألق لوسيان.

– ها هي النتائج عندما يتم إعادة إنشاء الغابة!

التشابه لا يفقأ العين. ولكن بأي حقٍ سأخيّب أمل حماسة كهذه؟ أهزّ رأسي كما لو أنني كنت مقتنعاً تماماً: نعم، يا لوسيان، تبدو كما لو أنها غابة.

سيأتي التفسير لاحقاً من خلال قطعة أرضٍ أخرى هي عبارة عن «غابة» قيد التأسيس، وفوقها تنمو عُشبة (Brachiaria). الصنفان أخضران، وهو ما يثبت أنهما وجدا طريقهما إلى الرطوبة، بالرغم من أن الأمطار قد توقفت منذ شهرين. ستتحول الأعشاب إلى أعلاف. وما أن يتم الحصول على البذور، حتى تتغير السيقان إلى قشٍ، ستتمكن «أشجارٌ» أخرى من النمو فوقها بكل راحة: أشجار القطن.

في كل خطوة مشيناها في «الغابة»، كانت مئات الببغاوات الصغيرة جداً تطير. جعلت منها منطقة نفوذ لها. يأخذ لوسيان الشتلات واحدة تلو الأخرى في يده، وبين الحين، والآخر يغرس إصبعين في الأرض ثم ينهض متألقاً.

إنه يكلم نفسه، أو ربما يتكلم إلى الطيور. وفي النهاية، تنجب المساحات الشاسعة الصوفيين.

إلى المراكز المحصّنة

شمال ديامانتينو. سرنا في البداية ثلاث ساعات في الطريق وسط شاحنات مزدحمة. وسرنا مثلها على طريق ترابي بين الذرة الصفراء،

والذرة البيضاء. تتمثل الإشارات الوحيدة التي كانت تدل على وجود بشريّ في رأس خزان الماء الذي كان يتخطى طوله أشجار النخيل، أو صرير محولٍ للطاقة يدار بالهواء، أو عندما كانت تتوقف السيارة بعد كل هذه الخضخضة في محاولة لإعادة الجلوس. كان هناك تمثال للعذراء مريم يرحب بنا في وسط القرية الوحيدة التي صادفناها. و رُكّبَ على رأسها حنفية دوّارة لرش العشب بالماء من أعلى مكان.

توجد مزرعة «غابيراما» التي تبلغ مساحتها سبعة عشر ألف هكتار في أقصى طرف الطريق. تملك المجموعة الزراعية – الصناعية «مايدا» هذه المزرعة (فازيندا)، وهي تدير في الوقت نفسه نحو مئتي ألف هكتار في جميع أنحاء البرازيل.

هناك عنابر من جميع الأحجام، بل مجموعة من العنابر المقامة هنا، وهناك فوق الأرض الصُّلبة.

توجد عنابر ضخمة مخصصة للقطن، وعنابر كبيرة للآلات. وهناك عنابر طويلة مخصصة للنوم، وعنبر شفاف مركّب عليه الزجاج يستعمل مطعماً. وآخر مكعب محاط بحديقة هو «فيلا» المدير. وثالث دون جدران مخصص لطائرة المالك الزرقاء، ورابع دون سقف للطائرة الصفراء المخصصة؛ لفرش الأسمدة. وكان يحضّر له صفائح معدنية متموّجة جديدة.

العنبر هو الحليف الأول للبرازيل؛ لأن البلد الذي يتطور يكون بحاجة

لمساعدة العنابر. العنبر هو البناية التي تتركب بأسرع ما يمكن، وعندما لا تتوفر وسائل الراحة فيه، فإن هذا يشير إلى أن المرء لا يقصده للاستراحة. العنبر بحد ذاته محفّز على العمل، وهو يعني أيضاً أن الوقت لم يحن بعد؛ لكي يتجذَّر وجود الشخص في المكان؛ لأن العنبر لا أساسات له.

لكن مجموعة من العنابر لا تؤدي بالضرورة إلى قيام مزرعة بل قاعدة، وهذا يعني مركزاً متقدماً محصّناً في وسط معادٍ غالباً.

يشبه الرجال الذين نقابلهم عمال الأرض في كل مكان. إنهم أبناء الأرض وقد انتزعوا توّاً من أمهم التي لن تتوانى عن استعادتهم. لكن العنابر هنا تكمل القصة. عما قريب يجب أن يرحلوا عنها، ويواصلوا المسير نحو الشمال لفتح حقولٍ أخرى وتغيير الأرض.

تشير هذه الصفوف الطويلة من العنابر، أننا موجودون في مكان بلا ماضٍ. ها نحن ننزل عند الرواد الأكثر طليعية، الرجال الواقفون على الخط الأمامي. إن شيئاً ما يتغير في الجوّ، هناك انفعال، وارتجاج على مقربة من المجهول، وربما من الخطر.

إن هاوياً للحدود، وشخصاً نهماً لحافة الخرائط، لا يمكن أن ينخدع بها، فالحدود لم تعد بعيدة.

*

*   *

لا ترى العين على امتداد الأفق سوى الأبيض. إنه اليوم الأول لقطف

المحصول (الاثنين الموافق 16 آيار/مايو)، ومما لا شك فيه، أنه اليوم الأول لقطف المحصول في «ماتو غروسو». تتحرك بضع بقع خضراء بعيداً، وبعد مسافة أبعد، تضع الغابة حداً للّون الأبيض. كم مِن الوقت ستقاوم؟ إن بحراً من البياض قد استحوذ على قلب البرازيل. بالنسبة لنا، البياض هو الثلج أو الجليد. الأبيض يعني النقي والنقي هو البَرد. ما هو إذن هذا الأبيض الاستوائي؟ وما هي الفخاخ التي يخفيها؟

تكشف البقع الخضراء عن نفسها عند الاقتراب منها: إنها حيوانات متوحشة، بل حشرات إذا أردنا الدقة، نهّابة هائلة الحجم (يبلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار)، ومرعبة بشراهتها: ستة غيلان خضراء ذات أصابع سوداء معقوفة تمسك بأشجار القطن البائسة وتدخلها في هاوية، هي في الواقع فمها – هذا إذا كان بالإمكان إطلاق اسم فم على تجويف تدور فيه بلا توقف اسطوانات من الصلب بدلاً من الأسنان– باختصار، ست آلات مكتوب عليها «جون ديري»[1] تقف في صف واحد، ترافقها حشرات ميكانيكية أخرى: نملٌ أصفر، وهي الأخرى ضخمة مكلّفة بنقل القطن، وأنواع من اليعاسب[2] الرمادية والحمراء: تنبسط أرجلها اللامتناهية التي تكون عادةً مطوية. ما هي هذه السحابة التي تُغشي الأرض والتي منها تسقى الحقول التي جُمع محصولها منذ وقت قصير؟ أرجلٌ ذات مسام، بل كثيرة التبول... إن فسيولوجيا هذه اليعاسيب البرازيلية الغريبة فيها شيء كثير مما يدهش.

(1) شركة أمريكية شمالية عالمية لصناعة المعدات الزراعية: (المترجم).

(2) اليعسوب: جنس حشرات مفترسة شفافة الأجنحة: (المترجم).

في هذه الأثناء سُكب القطن في الصناديق القلاّبة للشاحنات، ثم تسحقه كبسة لوقت طويل. شاحنات أخرى تنتظر حيث حضرت للبحث عن هذه السبائك الرمادية الكبيرة. يصيب المرء دِوار جديد بعد ذلك الذي تسبّب فيه اللون الأبيض. تخلو الحقول من الحضور البشري. أرى إفريقيا من جديد، وأتخيّل محصول المزارع في الزمن الغابر. كم من العبيد كنتُ سأرى قبل قرنين من الزمن؟ عبيد كان يلفهم الحزن فوق العشرة آلاف هكتار هذه.

الحدود التي تتقدم

بالنسبة لنا، نحن الأوروبيين الذين تناحرنا إلى حد كبير من أجل تحديد أوطاننا، والذين تعاركنا طويلاً أمام المحاكم من أجل وضع مخططات لحقول أو لحدائق، الحدود يجب أن تكون ثابتة.

إذن، ما هو هذا الخط الموجود على خريطة البرازيل الذي يتحرك كل سنة نحو الجهات الأربع؟ إنها المزرعة الأكبر في العالم التي لا تزال تتوسع.

باعث آخر للدهشة بالنسبة للأوروبي: نحن لا نتوقف عن تحويل الأرض الى بور، بينما لا يتوقف البرازيليون عن زراعتها. لماذا هذا الازدراء للمكان هنا؟ وهذا النهم له هناك، في حين أن الجميع يوجد فوق الكوكب نفسه.

إنَّ لهذا التقدم ضلعاً في أمور عسكرية. يبدو الأمر كما لو أنَّ هناك جيشاً يسير مدفوعاً من أمة جميعها.

تتحول هذه الحدود المتجددة دوماً إلى جبهة، عندما يصل الرواد المستصلحون للأرض إلى طرف السهل كثير العشب، ويبدؤون في مهاجمة الأشجار الكبيرة.

لا أحد يعترض على انتماء هذا السهل للبرازيل، وحقها في أن تستخدمه كما يحلو لها. لا يندلع النزاع إلا في المكان الأعلى نحو الشمال.

هنا يبرز سؤال متحذلق في القانون الدولي: لِمَنْ تعود هذه الثروة الأساسية لبقاء البشرية عامة؟

إن الغابة الأمازونية، هي المحمية الأولى للتنوع الحيوي على الكرة الأرضية (خُمْس أنواع النباتات، خُمْس أنواع الطيور وعُشْر أنواع الثدييات). وكونها أوسع غابة في العالم، فإنها تعرقل الانحباس الحراري.

في ظل هذه الظروف، لِمَنْ تعود ملكية الغابة الأمازونية؟

ذهب المرشح الفرنسي باسكال لامي إلى البرازيل في سياق سعيه للفوز بمنصب المدير العام لمنظمة التجارة العالمية؛ للقيام بحملته الانتخابية. سأله أحدهم عن منطقة الأمازون: هل يجب التفكير بوضع قانون خاص بها؟

- سيكون ممكناً طرح المسألة، أجاب المرشح.

كان يظن أنه يبدو حذراً، لكنه في الواقع أشعل حريقاً احتاج لأسابيع من أجل إطفائه. هتفت صحافة ساو باولو وصرخ السياسيون: لِنَقُلْها: لن تقبل البرازيل أبداً، أي تحديد للسيادة على أية بقعة من أراضيها مهما كانت!

إنها معركة جبابرة: أكبر مزرعة في العالم في مواجهة أكبر غابة في العالم. لكي تتغذى الكرة الأرضية، هل يجب خنقها؟

إنها معركة قانونيين: منطقة الأمازون، منطقة القطب الجنوبي: الأكثر سخونة والأكثر برودة، الرطبة جداً والمتجمدة جداً. كيف يمكن الحفاظ على هذين الحيزين الأساسيين لبقائنا؟

إغراءات التقدم

ما هو مصدر أية قوة دافعة كبيرة؟ ما هو نصيب اللامعقول الضروري لحيوية أمة؟ بعد تفحص البلادة التي تعاني منها بلداننا الطاعنة في السن، يبدو جيداً أن إفراطاً في العقل يؤدي إلى نخر طاقات هذه البلدان.

جان بوسكو كاهن ساليزي[1] يسكن مدينة تورينو في إيطاليا. ذات يوم من عام 1883 زاره حلم أو بالأحرى رؤيا: سوف تولد حضارة جديدة في وسط البرازيل، بين خطيّ العرض الخامس عشر والعشرين.

حاول هذا البلد عبثاً أن يمنح نفسه مرشداً، ومعلِّماً هو الفيلسوف الوضعي «أوغست كانت» وشعاراً هو «النظام والتقدم»، إلا أنه رغم ذلك ظل يحترم رؤيا جان بوسكو. توقّع الدستور الأول (1891) إذنْ، تأسيس العاصمة في المكان الذي أشار إليه صاحب الرؤيا الإيطالي.

بعد مئة وستين سنة من المناقشات، ولدت المدينة وسط البلاد.

برازيليا.

إنها مدينة جرى التفكير فيها مثلما لم يجرِ مع أية مدينة قبلها.

ولأجل ذلك تحديداً، جرى التفكير فيها إلى هذا الحد، وتأملها،

(1) أي ينتمي إلى جماعة القديس فرانسول دو سال: (المترجم).

وجرى تنظيمها وترتيبها وتقطيعها، فأصابها الجنون من جراء ذلك كله.

المشي فيها غير ممكن، لا يوجد ظل يمكن الاحتماء به؛ لا يوجد مصطبات (تراسات) يمكن التكلم فيها، لا يوجد مركز يتيح المجال للمرء أن يولِّي وجهه شطر ما... كل شيء وظيفي: هذا مربع للبنوك، وهذا مربع مزدوج للفنادق، وذاك مستطيل للوزارات، وذلك شكل بيضاوي خاص بالمستشفيات، وبحيرة كبيرة (اصطناعية) على شكل نصف دائرة، من أجل إشاعة الرطوبة في الجو واستحمام المصطافين الأنيقين...هذه المدينة ليست جسداً حياً، إنها بالأحرى طاولة تشريح، كان يمكن أن يرتب عليها جميع أعضاء الحياة الواحد جانب الآخر. وننتظر الحياة، ونأمل أنها ستأتي، لكنها لا تأتي. تظل الحياة في مكان آخر. في «ريو» خلال عطلة نهاية الأسبوع للأغنياء، وقريباً منها، فوق التلال المحيطة، وفي الأكواخ القذرة للفقراء.

المستقبل ليس منسياً في هذه المربعات التي تثير الدّوار. احتفظ لنفسه بأماكن قيّمة. المستقبل هو أكثر بكثير من جنة يُحْلَمُ بها فقط، إنه شمس البرازيل مصدر كل طاقة، وعصب كل حركة.

لنحافظ على الطريق

لنستبق المستقبل

كانت هذه الكلمات مكتوبة بأحرف كبيرة زرقاء على لوحة، مقابل مدخل مركز أبحاث وزارة الزراعة. إن شعار المركز هذا عادي بالنسبة للبرازيل لدرجة أنني أرتاب بوجود استراتيجية يقصد منها التهدئة والتمويه. لا شك أن حماقات وأشياء مقلقة تجري في الداخل، فيراد طمأنة الشخص المار بهذا الطريق.

كانت زراعة النباتات، حتى وقت قريب، من بين نشاطات الإنسان جميعها، هي الملاذ للتقاليد. أولئك الذين كانوا يشتغلون في الأرض، كانوا يخلّدون التحالف التاريخي بين الإنسان والطبيعة، وكانوا يجسدون القيم الجميلة الخالدة في التواضع، والزهد، وحياة الأسرة، والاستقرار، واليقين، وهي كلها كانت تورّث من جيل إلى جيل...

سيقودني الرجل الذي يمد يده لي، وعلى محياه ابتسامة عريضة إلى عالم آخر، عالم المستقبل حيث ستنمحي جميع الحدود القديمة. أصبحت الحياة قِدْرٌ كبير، فلن يكون بمستطاع أحد، عمّا قريب، أن يجد صغاره بين العمالقة.

يُدعى هذا العالِم الظريف «البيبو ريش»، وهو ينسّق جميع الأبحاث حول التحوّلات الجينية. دعاني الآن للدخول إلى دفيئة، وهو يرتدي قميصاً أبيض، ويسير بين النديفات البيضاء. كان يتنزه بين صفوف أشجار القطن التي كان يداعبها بحنان، الواحدة تلو الأخرى. هل هناك رؤية حانية أكثر؟ لماذا سيُداخلني الشك؟

– كل واحدة من أشجار القطن هذه مختلفة عن الأخرى. برمجنا القطن جينياً؛ كي يستكشف لنا إمكانية جديدة.

أَهزُّ رأسي.

إذاً، لا تزال الروح الريادية قوية جداً في هواء البرازيل الذي لوّث النباتات. هذه النباتات، هي الأخرى قررت أن تدفع حدودها إلى أبعد مدى ممكن.

يقوم صديقنا العالِم بحركة كبيرة يُشْتَمُّ منها شعور بالاعتزاز الأقرب إلى الأبوية، ويستعرض أمامي كتيبته المؤلفة من شجيرات:

– هذه ستقاوم الحشرات النهّابة أكثر من أي وقت مضى. تلك أصبحت فاقدة الحس تجاه مبيدات الأعشاب: الأعشاب الضارة تموت وهي تبقى.

حتى الآن كل شيء يسير جيداً. أمشي فوق أرض معروفة. أوروبا خبيرة أيضاً في هذه الاختبارات المتنوعة. أعطاني مطرب «نوكسفيل» المشدوه سابقاً الدروس الضرورية. لكن صديقي الجديد العالِم لن يتوقف عند هذا الحد. هذا اللهو الذي لم يغادر عينيه منذ بداية محاضرته القصيرة، أخذ يتزايد. مما لا شك فيه أنه يحضِّر مفاجأة لي.

إنني رجلٌ لا أزال أحمل في قلبي شكلاً من أشكال الإيمان القديم، ولا أزال متعلقاً بالتصنيفات القديمة البسيطة لسفر التكوين، لذلك كنت أعتقد أن الحيوانات، والنباتات تنتمي إلى مملكتين مختلفتين.

هذا خطأ.

– هل تعرف العنكبوت؟

سبق للزائر الأقل معرفة بمجموعة الحيوانات البرازيلية، أن سمع بالرُتَيْلاء[1] الكبيرة كثيفة الشعر.

– توجد في البرازيل أشكال من العناكب هي الأكثر تنوعاً في العالم.

أهنئ مضيفي بحرارة على هذا الخبر السار.

– قرّرنا أن تساهم العناكب في العمل.

– عفواً؟

– لا بدّ أن يساهم كل واحد في التنمية الوطنية.

لا أستطيع سوى أن أُعبّرَ عن اتفاقي التام مع هذا الموقف. ولكن، ما هي المساعدة التي يمكن أن ننتظرها من هذه الحشرات الماهرة؟

– تُلفت الخيوط التي تصنعها العناكب الانتباه؛ لنعومتها وللدانتها ومتانتها، وهي جميعها الصفات التي نرغب في تنميتها في قطننا؛ لكي نجعل منه أفضل قطن في العالم. نختار العاملات الفُضلى من بين جميع عناكبنا، ثم نسحب الجينة وندخلها في أشجار القطن الموهوبة أكثر من

(1) أنواع من الهوام كالذباب والعنكبوت، وأيضاً يطلق على نبات له زهر، كزهر السوسن: (المترجم).

غيرها.

لم أجد شيئاً آخر أدافع فيه عن نفسي في مواجهة شعور حاد بالدوار سوى أن أضحك باستهزاء.

– هل سنشاهد قريباً إذن، قطعاناً من العناكب في الحقول البرازيلية؟

– إن نظرتك للزراعة هي من طراز عتيق تماماً. لم يعد هناك حاجة لإسطبلات؛ من أجل مضاعفة الجينات من الآن فصاعداً...

هل تم تحذير صديقنا «اليبيو»، مستخدِم العناكب، من أخطار الغرور؟

كان في سالف الزمان –في أزمان سحيقة– فتاة شابة من ليديا (تقع اليوم في غرب تركيا). هذه كانت ابنة صبّاغ أرجوان، كانت تسمى «أركنية». كانت تملك أيادي ماهرة جداً، وعلى ثقة عالية بنفسها. ذات يوم، تجرأت على تحدي «أثينا» في فن نسج النجود. تملك الغضب «أثينا» من هذه الصفاقة، وقررت أن تتحول إلى امرأة عجوز، وذهبت لزيارة تلك الفتاة «الليدية» لتوصيها بالحذر. لكن «أركنيه» أمعنت في جرأتها. وأخيراً جرت المسابقة بينهن، فنسجت لوحة تمثل أناساً مغرورين، في حين أن «أركنيه» –المتمادية في الوقاحة– حقاً اختارت أن تصور الحياة الفاضحة للآلهة. عندها بلغ غضب «أثينا» حد الجنون مرتين: الأول، بسبب موضوع اللوحة، والثاني، بسبب جودتها الفائقة. فما كان منها

إلا أن ضربت غريمتها بمكّوكها ومزقت اللوحة. أصاب «أركنيه» يأسٌ شديدٌ فشنقت نفسها. وفي هذه اللحظة تحديداً، تحولت إلى «أرينييه» (Araignée)[1] وتعني بالعربية «العنكبوت».

عبثاً يحاول المرء أن يتعلق بالمستقبل، لكن عليه أن يتقبلَ الحقيقة، وهي أن هذا البلد محفوف بالمخاطر. بعض الأماكن المسوّرة يُمنع الدخول فيها لأيٍّ شخص، فجميع أبواب المختبرات تحملُ تحذيرات.

*

* *

يحمل «اليبيو» أنبوباً صغيراً في يده ويلقنني –وهو على هذه الحالة– أول درس لي في عبور الحدود البيولوجية. تجيء، وتذهب فتيات المختبر الفاتنات المرحات من حولنا. بدأتْ واحدة منهن دراستها في باريس، تسألني عن أخبار «الطريق فوق الجرف» (لا يزال قيد الإنشاء)[2] ومعهد «باستور» (هل ما يزال صغيراً؟) احتفظَ صديقي العالمِ بأفضل مفاجأة؛ لكي تكون الأخيرة:

– بما أننا نتكلم عن اللون الأبيض، هل تعلم أننا نشتغل على الحليب؟

---

(1) راجع كتاب أوفيد «التحولات» الفصل السادس.

(2) المقصود هو مشروع لبلدية باريس من أجل رصف ممرات على الطريق المنخفض المحاذي لنهر «السين» بحيث يصبح مكاناً مفضلاً للمتنزهين في العاصمة الفرنسية. وبدئ العمل في المشروع في نهاية الثمانينات، وأخذ وقتاً طويلاً في التنفيذ: (المترجم).

اعترفت بجهلي فضلاً عن أنَّ شيئاً ما في داخلي احتجَّ على وصول التعذيب إلى رمز البراءة، الهدية الأولى من أُمِّنا.

– نُدخِل جينة العناكب في الحليب؛ لإنتاج ألياف أكثر مرونة، ومقاومة من «الكفلار»[1]. قريباً سنبني تدريعات (تصفيحات)، وأجسام طائرات من الحليب.

– قريباً؟

من جديد، كانت ردة فعلي هي تلك التي تصدر عن أوروبي عجوز: عاش العلم! طبعاً وأنا أصفق بيدي الاثنتين. لكن ألا يمكن أن نخفف سرعة السير قليلاً؛ كي يمضي بعض الوقت من أجل التعود؟ أعيدُ طرح سؤالي:

– لن يتحقق هذا الأمر حالاً... قل لي كم من السنوات؟

– ليس أكثر من أربع أو خمس سنوات. لا يوجد بلدٌ مثل البرازيل، أكثر قرباً من المستقبل.

(1) الكفلار: علامة تجارية مسجلة لخيوط صناعية ظهرت عام 1965، بدأت تستخدم تجارياً في بداية عام 1970. وتدخل هذه الخيوط متعددة الأنواع، التي تمتاز بمتانتها الفائقة في مجالات صناعية عديدة، مثل: الحبال والكابلات والتجهيزات الرياضية، ومولدات الكهرباء...: (المترجم).

المنسّق الكبير

فكّر المهندس المدني الكبير لـ «برازيليا» بكل شيء، ولاسيما بسكن كبار موظفي الادارة. أين يجب أن تقطن نخب الوظيفة العامة حتى تتمكن من أن تعطي أفضل ما لديها، مرشدة بذلك الأمة إلى طريق المستقبل بيد حانية حازمة وقادرة في الوقت نفسه على مقاومة غوايتيّ الفساد، ورواتب القطاع الخاص؟

يتم اختيار القرب من الماء الذي يزرع الوهم بالترف، مقابل قليل من النفقات، ويخفف من الحسرة على العاصمة القديمة (ريو) في آن واحد. بدلاً من شقق متناثرة، سيتم تفصيل سكن مخصص لهذا الغرض: يترعرع الموظف بصورة أفضل عندما يعيش بين كبار الموظفين الآخرين. من جهة، يوفّر ذلك حظاً أفضل لأبنائه من أجل إدامة النوع، من خلال الالتقاء، ثم الاقتران بأبناء زملائه؛ ومن جهة أخرى، يكون مراقَباً من خلال آلات التصوير والشرطة، وهو البرهان على الأهمية الكبرى التي تولى لحماية وجوده. وأخيراً هناك الصعوبة المتزايدة لإقامة علاقات خارج الحياة الزوجية يمكن اخفاؤها عن الأنظار لفترة طويلة.

يعدُّ نادي «التنس» هو المكان الأكثر فخامة في هذه الأراضي المحصورة. ومثلما يشير اسمه، تضيف بضعة ملاعب بقعاً حمراء إلى الإخضرار الباذخ للحديقة.

في ذلك اليوم، كانت «كتيبة» من النساء الشابات يتنزهن في الممرات، وهن شبه عاريات. كيف يمكن للسكينة الضرورية للوظيفة العامة العليا أن تقاوم مثل هذا الغزو؟ لحسن الحظ، رن جرسٌ، وتبعه اصطفاق صنادل المسابح الذي كان يصم الآذان. إنهن الجميلات، وهن يَعُدْنَ إلى مركز المؤتمرات. يا للعار، لم أكلّف نفسي عناء قراءة عنوان اللقاء:

المؤتمر الثاني لجمعية

تنمية حليب الأمهات

عاد الهدوء، وأصبح بإمكاني أن أقرع باب بيت خشبي باذخ. يفتح لي «دومينيك دو فيلبان»، أقصد شقيقه أو شبيهه. هؤلاء الناس يشبهون بعضهم بعضاً. هل يتعلق الأمر بالغذاء أم بالتربية على يد حاضنات، أم كثرة الرحيل من منزل إلى آخر؟ إنّهم جميلو الوجوه، وطوال القامة نحيفون مهذبون جداً، ومتعددو اللغات. أمضوا طفولتهم في واشنطن، ثم في طوكيو، وبعدها في لندن، ثم في دلهي عبر مكسيكو، أو بالعكس. إنهم أبناء سفراء أو مدراء هائمين على وجوههم. كل عولمة ولها نخبتها. كان لعولمة القرن السادس عشر الإسبانية رجالها من اليسوعيين. وبالرغم من وضعهم الديني الذي كان يحد من الوراثة

الجينية، إلا أنني متأكد من أنّ هؤلاء الآباء القديسين، كانوا في النهاية يتشابهون جميعاً؛ لأنهم كانوا يحملون الفكر نفسه، مهما كان المكان والمناخ.

دومينيك دو فيلبان[1]، أقصد أن أقول «روبيرتو أزيفيدو»، هو «المنسّق العام للمنازعات القضائية» في وزارة الخارجية البرازيلية. غالباً ما يتلقى الدبلوماسيون ألقاباً توحي بالعظمة؛ من أجل تعويض غياب سلطتهم الحقيقية، والغوص في رمال المفاوضات التي يجرونها. لكن هذا المنسّق هو من طينة صلبة أخرى. قاد على مدى سنتين فريقاً من القانونيين الذي انتصر في النهاية على الولايات المتحدة. إنه هو الذي دفع منظمة التجارة العالمية إلى منع الإعانات المالية، التي تدفعها إدارة واشنطن إلى منتجي القطن الأمريكي.

نسّق السيد المنسّق العام ما لم يكن قابلاً للتنسيق، بدءاً بالبرازيليين والأفارقة. كيف يمكن تخيّل مزارعين مختلفين أكثر من ذلك؟ من جهة، هناك العملقة والمكننة، ومن جهة أخرى، هناك قِطع أرض قروية تتم زراعتها، وقطف محصولها من جانب أفراد العائلة بالأيدي العارية. عالَمان لا شيء يقربهما إلى بعضهما بعضاً باستثناء التنافسية. وصل إليها البرازيليون، والأفارقة من خلال طرق متعارضة: الجانب الأول، من خلال الإنتاج القياسي، والجانب الثاني من خلال التكاليف الأدنى. وإذاً، اتّحد الجانبان لرفع المطلب الليبرالي ذاته، وهو وجوب

---

(1) رئيس وزراء فرنسي سابق: (المترجم).

تطبيق قواعد السوق. أصبح البرازيليون، والأفارقة حلفاء ضد أولئك الذين يمارسون الغش، أي الذين يقدمون الإعانات لمنتجيهم: أوروبا، والولايات المتحدة.

لكنّ البرازيليين، والأفارقة كانوا يرتجفون: هل كان من الصواب مواجهة واشنطن وبروكسل؟ ألم يكن من المفروض توقع أعمال ثأرية من جانب القوتين العظيمتين على الأرض؟

عندئذٍ، دُعيت المنظمات غير الحكومية –وهي جماعة غير متجانسة وصاخبة– إلى النقاش.

منذ بضعة عقود، يُفرد مكان لهذه المنظمات كلما انعقد لقاء دولي. إنه أقرب ما يكون إلى طاولة مخصصة للأطفال. لكن مع مرور الزمن، أصبحت هذه الطاولة ذات ضجيج متزايد، لدرجة جعلت من الصعوبة بمكان، سماع مناقشات الوالدين، بل واحتكرت اهتمام وسائل الإعلام، وتعاطف الرأي العام.

لا يزال المنسق العام يتذكّر ذلك الأسبوع الذي قدحت فيه صحيفة «نيويورك تايمز»، وهي تقدمية غالباً، وصحيفة «وول ستريت جورنال» المحافظة في آن واحد الإدارة الأمريكية، ونظامها المتعلق بالإعانات المالية الممنوحة للمزارعين.

يبتسم روبيرتو أزيفيدو، ويجيز لنفسه القيام بحركة تعبّر عن الرضى، وهو الشخص المتحفظ المتميز جداً: يرفع ذراعيه فوق رأسه ويتمطى.

عندما ينجح المرء في تجنيد «وول ستريت» والمناضلين، الأكثر ثورية من أجل عولمة بديلة في الجيش نفسه، وعندما يتوصل -خصوصاً- إلى جعلهم يترنمون بالنشيد نفسه: «المجد لليبرالية!» (الحرية للسوق)، عندها، من حق المرء أن يظهر علناً بعضاً من الغرور.

في الخارج، علت الضجة فجأة في نادي التنس، وحل ضجيج البشر محل غناء العصافير. بدأت الثرثرة والضحكات الخافتة. لقد علّقت المجتمِعات في مؤتمر حليب الأمهات أعمالها.

مصير قاعدة خلفية

من هنا بدأ المستقبل.

كان الهنود الحُمر يعيشون هنا، لكن الوقت (الأيام والأشهر والسنوات) بالنسبة إليهم كان عبارة عن دائرة، وهذه ليس لها مستقبل.

بعد ذلك، كان هناك «ريو دي جانيرو». لكنها كانت تحب الإجازات كثيراً، ولا يمكن لإنسان أن يبني مستقبلاً مع زمن متوقف.

في عام 1554، حطت مجموعة صغيرة من اليسوعيين بقيادة مانويل دو نوبريغا، وخزريه دو أنكيتا في أمريكا الجنوبية. اختار هذان الرجلان هضبة عالية، محاطة بالغابات، وبنيا فيها بضعة منازل، أودعوها حماية القديس بولس؛ لذلك سُميت «ساو بولو». لا يمكن مشاهدة البحر من ذلك المكان. وكان هذا أمرٌ ممتاز؛ لأنه سيخفف من الحنين إلى الوطن البرتغالي من جهة، وسيساعد في التركيز على العمل من جهة أخرى، وهو القبض على الهنود الحمر، النشاط الأكثر إدراراً للربح آنذاك. حوّل الرواد هذه القرية المتنامية شيئاً فشيئاً إلى مقر عملهم. ومن هناك انطلقوا في حملتهم. كانوا يسمونهم «بانديرانتس»؛ لأن كل فوج كان

يحمل راية (بانديرا). كانوا يتقدمون، ويستكشفون البلد، ثم يستولون عليها لحساب مليكهم.

في عام 1494، قام البابا إسكندر السادس (بورجيا) بتقسيم «العالم الجديد»، انطلاقاً من دير «توردیسیلاس» الإسباني. رُسم خطّ أول يمتد من القطب الشمالي إلى الرأس الأخضر. ثم رُسم خطّ ثانٍ على مسافة ثلاثة مئة وسبعين فرسخاً غرباً. وتسلمت إسبانيا جميع الأراضي التي اكتشفتَها فيما وراء هذه الحدود. وبناءً عليه، كانت مدريد تملك القسم الأكبر من البرازيل، في حين كانت البرتغال تملك رسمياً قطاعاً شرقياً فقط (بين الخط الثاني والمحيط الأطلسي). ولكن، ماذا كان بإمكان البابا أن يفعل في مواجهة جشع حملة الرايات؟

لقد وُلد مفهوم برازيلي للحق العقاري متوحشاً جداً، وهو لم يتغير لاحقاً. عندما اكتُشف الذهب في القرن الثامن عشر، تحولت ساو باولو إلى ميناء أرضي تُقلع منه طوابير المغامرين. ومنذ بداية القرن التاسع عشر، لعبَ إنشاء الجامعة دوراً في تحويلها إلى مركز فكري كبير. إضافة على ذلك، ساعدت عوامل عدة في تحويل قاعدة الروّاد إلى محرك وطني: زراعة القهوة، والهجرة، والنعمة التي هبطت عليها خلال سنوات 1914–1918، بفضل انخفاض المستوردات، وتطوير الصناعة المحلية.

إذا أراد بلدٌ ترشيح نفسه ليكون بلد المستقبل، فإن عليه ان يحمل طموحات كبيرة في أن يصبح عملاقاً. لهذا تدخل ساو باولو المنافسة للحصول على اللقب اللامع المتنازع عليه كثيراً وهو «المدينة الأكبر في العالم». كان السيد «ماشادو» مصوراً فوتوغرافياً متخصصاً في حفلات الزواج، لكن المستقبل وجّه له ضربة في الصميم تجسدت في آلات التصوير الرقمية. لماذا يدفع أهل العروس إلى مصور محترف؟ من أجل تخليد حفلتهم، في حين يمكن لأي ابن عم مصورٍ هاوٍ أن يخلّدَها مئة مرة وأن يصحح «الكليشيه» بفضل «فوتوشوب» (برنامج في الانترنت لضبط الصور)، أي أن يكون مثل أفضل مصور محترف (على الأقل هذا ما يعتقده).

لكن السيد ماشادو يحب الحقيقة، لذلك فهو يكره آلات التصوير الرقمية، ليس لأنها أطاحت بوظيفته فحسب. بل لأن هذه الآلات تتيح المجال للغش، ولتغيير الحقيقة إلى درجة تصبح فيها متطابقة مع رغباتنا. لكن الواقع لا يتغير إلا ظاهرياً، أو بالأحرى يتظاهر بذلك. يستمر الواقع كما هو، ولا يكون بوسع الأجهزة الرقمية أن تفعل شيئاً. يرينا السيد ماشادو مكتبة تقع على مقربة منه، تبدو كأنها أقيمت الآن، تحتوي على ثلاثة كتب، ذات أطراف تالفة ممزقة مكتوب عليها العديد من الملاحظات فتبدو كأنها كتاب قُرِئ آلاف المرات. هل يمكن أن يكون هذا الكتاب –في هذا البلد المتدّين– شيئاً آخر غير «الكتاب

المقدس»، أو واحدة من ترجماته الكثيرة التي تمت مراجعتها، وإعادة توضيحها، وتحديثها على يد واحدة من الطوائف الكثيرة؟

-لا يا سيد، هذه خريطة المدينة فقط؛ هناك خمسة وسبعون ألف شارع، من المستحيل معرفتها كلها. أُفضِّلُ أن أحذرك منذ الآن: سوف نُضيّع بعضنا بعضاً.

برازيليا، ساو باولو: مستحيل أن يضيّع الناس بعضهم بعضاً في الأولى، لكن مستحيل أن يجد الناس بعضهم بعضاً في الثانية. الأولى هي: العاصمة الإدارية، والثانية هي: العاصمة الاقتصادية، النظام والتقدم. مَنْ يستطيع أن يجد في نفسه صدىً للتقدم؟ يوجد بها اليوم خمسة وسبعون ألف شارع، وغداً ستصبح ثمانين ألفاً.

لمَّا تلتهم الحداثة الرقمية كل شيء بعد.

– نعم يا سيد، بعض الوقائع تقاوم. على سبيل المثال، النقل. لم تتح الحداثة المجال بعد للبشر أن ينقلوا أجسامهم بنقرة فأرة فحسب. لهذا السبب التجأت إلى مهنة السائق. ما هو رأيك؟ هل ستبتلع الرقمية السائقين؟

يبدي السيد ماشادو امتعاضه رافعاً يده اليمنى قائلاً، وكأنه يؤمن بالقضاء والقدر:

– إذا استمرت الرقمية في التوسع، فإنني سأذهب إلى مكان آخر. على أية حال، ما عُدْتُ شاباً. لن يمضي وقت طويل قبل أن أهرب. إنني

أفكرُ في الشاب.

ما لبث السيد ماشادو حتى بدأ يبكي، وأغرورقت عيناه بالدموع التي لم يهتم بمسحها عن وجنتيه. عرفت لاحقاً أن الشوارع الخمسة والسبعين ألفاً لم تكن هي وحدها كوابيس المصور القديم.

كان هناك شبح يجلس على المقعد الذي يقع على يمين السائق، وهو مقعد الموتى[1]. كان للسيد ماشادو ابنٌ يبلغ السادسة عشرة من عمره، وذات مساء تبادل كلمات حادة مع شاب آخر كان معه في المقهى. وفي اليوم التالي، عاد هذا الشاب وذبح ابن المصور القديم. استغل السيد ماشادو فرصة التوقف أمام إشارة حمراء فنظر إليّ. كنت أرى عينه، وفمه، وقد انتفخت من خلال المرآة العاكسة. لقد توقف عن البكاء وكان يبتسم. ضغطت على نفسي لكي لا أتوسل إليه من أجل التوقف عن الابتسام. كانت ابتسامتُه أكثر حزناً من دموعه.

- كيف لا تريد للناس أن لا يفقدوا عقولهم، في مدينة ينتشر فيها خمسة وسبعين ألف شارع؟

*

* *

لا تزال السيارة تسير بنا منذ ثلاث ساعات. هل سيأتي يوم نرحل فيه عن ساو باولو؟ على أية حال، هل بوسع المرء أن يفارق ساو باولو؟

(1) هذا مصطلح فرنسي صرف، حيث يعتقد الفرنسيون أن المقعد المجاور للسائق (أي على يمينه) هو الأخطر في حال وقوع حادث؛ لذلك يسمى «مقعد الموتى»: (المترجم).

لربما اجتاحتْ المدينةُ الأكبرُ في العالم.. العالمَ!

تمر ساعة أخرى، وبعدها بقليل نشاهد تلة تكسو الأشجار الحرجية نصفها. تعلو الأبنية على نصف منحدر فيها، ثم على نصف آخر وآخر. كان لا بدَّ للامتداد العمراني لساو باولو من التوقف.

لكن وجود المصانع يبدأ مباشرة حال مغادرة ساو باولو. المصانع والمكعّبات منتشرة في كل مكان. مكعّبات منعزلة، وأخرى مكتظة، إنها لا شك منازل الناس الذين يعملون في المصانع.

*

* *

بدأ المستقبل من هناك بفضل القهوة والسكر. ولم يكن القطن يشكل إلا ترساً صغيراً في آلة صناعة المستقبل البرازيلي. فالمناخ لم يكن مناسباً، إذ إن الحرارة لا تتوفر -بالقدر الكافي، بالرغم من الوقوع في مدار الجدي- كما أن أمطاراً كثيرة تهطل في أوقات غير مناسبة. فضّل القطن أن يُغير الجوّ، وأن يصعد نحو الشمال، أو الشمال - الغربي. لكن المصانع احتفظت بمكانها. إنها تتلاصق على مدى عشرات الكيلومترات. أسماؤها مُعلنةٌ باعتزاز فوق لوحات كبيرة متعددة الألون. يثير هذا الاعتزاز المشاعر حقاً، لكننا نرى بوضوح أنه يخفي الشيء الأساسي: هذه المصانع ليست إلا قطعاً يتركب منها مصنع أوحد اسمه البرازيل، مصنع المستقبل.

«سانتيستا» هي واحدة من مشاغل هذا المصنع الكبير، إنه أهم مصنع نسيج في البلاد. واحدة من مفخرتين تعتز بهما المدينة الصغيرة المسماة «أميريكانا»[1] (المفخرة الأخرى هي «غوديير»)[2]. تدين هذه المدينة باسمها لمؤسسيها الذين كانوا من اللاجئين الجنوبيين لحرب الانفصال.

يحرص المدير على التوضيح فوراً:

– نحن لا نخشى الصين.

وتابع الحديث في الحال عن مدينة «نيم» (Nîmes) موجهاً سيلاً من الأسئلة:

– هل هي حقاً موجودة في فرنسا؟ كم عدد سكانها؟ هل طقسها بارد أم حار؟ هل تُربى فيها الماشية؟ وهل يَركبُ هناك الناس الخيول؟

أجيب على أسئلته بالقَدْر الذي أستطيع فيه دون أن أنجح في إخفاء دهشتي: لماذا هذا الشغف البرازيلي بهذه المدينة من محافظة «غار» (Gard) في فرنسا.

هكذا سأتعرف على الرحلة الغريبة، والنجاح العالمي لكلمتين صغيرتين، الأولى مؤلفة من مقطعين، والثانية من مقطع واحد.

(1) أميريكانا: مدينة تقع في ولاية ساو باولو (غرب البرازيل) يبلغ عدد سكانها 203000 نسمة: (المترجم).

(2) غوديير: علامة مسجلة شهيرة لإطارات سيارات (المترجم)

في القرن السادس عشر، صنع بعض النسّاجين في جنوب فرنسا نوعاً من القماش الخاص الذي هو خليط من الحرير والصوف، وكان منسوجاً بشكل مائل. اشتهر هذا القماش بسرعة فائقة باسم «صرج نيم»[1]، استناداً إلى المكان الذي وُلد فيه.

كان النساجون الإنجليز يبحثون عن طريقة؛ لإكساب منتجاتهم قيمة أكبر، وقد أعجبهم أسلوب الحياكة الفرنسي؛ لذلك قرروا اعتماده وإطلاق اسم جديد عليه. من وجهة نظرهم، كان يمكن لاسم «سيرج» أن يُنسى؛ لأنّ الصوف، والحرير لم يعودا يستعملان. فيما يتعلق بالمنشأ، «دو نيم» (de Nîmes)، فإنه سيصار إلى دغمها من أجل مزيد من السهولة. وهكذا ولدت كلمة «دونيم» (Denim) التي سوف تعني قريباً أقمشة القطن الأكثر متانة.

في هذه الأثناء كان بحارة جَنَوَه (Gênes) يستعملون سراويل متينة مصنوعة من مزيج من القطن، والصوف، والكتّان. اعتمد زملاؤهم الفرنسيون هذه السراويل وأطلقوا عليها اسم «جين» (gênes) التي أصبحت (jean). بعد ذلك بدأت المصانع بنسج هذا المنتج العجيب في كلٍ من فرنسا، وإنجلترا.

تعايش الـ «دونيم» و»جين» لفترة طويلة، ولم يمتزجا مع بعضهما بعضاً إلا بعد أن عَبرا المحيط الأطلسي. وهناك، في المستعمرة التي كانت تريد التحرّر من إنجلترا، لم يكن المرء ليتضايق من هذه المماحكات. صُنع

(1) صرج: نسيج صوفي رقيق: (المترجم).

«الجين» من قماش «دونيم» وأصبح لباس الرواد.

*

* *

سانتيستا.

يبدو الاسم كما لو أنه يشير إلى دين، أو إلى عبادة باطنية ذات أصول إفريقية مثل: ال»سانتيرا» الكوبية، أو –والحالة هذه– لقبٌ لفنان كبير، أو راقصة، أو مغنية أوبرا.

لكن «سانتيستا» هي شركة النسيج الأولى في البلاد، ولها فروع في التشيلي والأرجنتين. توظف خمسة آلاف وخمسة مئة موظف، ولديها عدة مراكز للأبحاث واتفاقيات حول التدريب معقودة مع الجامعات...إنها أشبه ما تكون بامرأة عجوز (ولدت عام 1929)، لكنها لا تزال في الطليعة من ناحية القدرة التنافسية.

أبدأ بالعدّ؛ لا أرى سوى تسعة عمال منهمكين بين آلة، وأخرى في القاعة الفسيحة التي تبلغ مساحتها هكتارين من مصنع الـ «أميركانا». يعدُّ المدير ملاحظتي نقداً.

– معك حق. لا تزال الأيدي العاملة كثيرة جداً في هذا المصنع. رافقني لنزور الوحدة الثانية، الملاصقة الحديثة جداً.

من جديد، أبدأ العدّ. خمسة عمال فقط. يقطّب المدير وجهه.

– أعرف، يقول لي، إنه لا يزال كثيراً بعض الشيء لكي نتمكن من مقاومة الصينيين. ما هو إذن سرّ هؤلاء الصينيّين الذي يجعلهم أقوياء لهذه الدرجة؟

لقد أمعنت التفكير بهذا السؤال منذ وقت طويل. وها أنا أفضي لكم بجوابي: لقد اخترع الصينيّون العامل الأمثل، أي العامل الذي يكلّف أقلّ من غياب عامل.

*

* *

يظن المرء نفسه كأنه في أعماق منجم، أو في سرداب من سراديب الموتى، لكنها في الحقيقة عبارة عن حفرة كبيرة مغطاة برفوف جدارية ضخمة.

يصعد وينزل قَفَصَان في الحفرة بانتظام. هناك رجل جالس في كل قفص؛ لا نراه في البداية، لكن لا بدّ للعين من التعوّد على العتمة. لكل قفص – أو لنقل لكل رجل – أذرع مؤلفة من قضبان طويلة من الفولاذ المنبسط.

يتمثل عمل هذين القفصين في تناول لفائف القماش التي تحملها الشاحنة من المصنع، وترتبها على الرفوف من أعلى إلى أسفل، ثمّ الذهاب من أجل إحضارها ووضعها في الشاحنة الأخرى المخصصة

لتسليم البضاعة.

يُمضي سائقو الأقفاص ثماني ساعات في اليوم، وهم يعملون في الحفرة. أما الفائدة الوحيدة لهذه الوظيفة فهي: أن هؤلاء السائقين يتعودون على مسكن الموتى والإقامة فيه.

*

* *

يحلُّ الليل في الساعة السادسة مساءً، وعندها يخرج العمال من المصنع واحداً بعد الآخر. عمّا قليل سيبلغ عددهم الثلاثين، ثم الخمسين، يصطفّون جميعاً في مواجهة سارية كبيرة فوق مصطبة صغيرة من الإسمنت. تصلُ شابتان بينما يحمل شاب طاولة حديدية، يبسط أرجلها بعناية في حين تضع إحدى الشابتين صندوقاً رمادياً عليها هو عبارة عن «مسجِّل».

في هذه الأثناء، انضم الشاب إلى الشابة الأخرى ومكثا عند أسفل السارية، بينما تمسك يدها بحبْلِ الرفع. اتخذ المدير مكانه في مقدمة الصفوف من خلال إشارة من رأسه، بدأ الاحتفال. يستحق الكاسيت الذي يدور في المسجّل أن يتقاعد بعد هذه الحياة الطويلة المتعبة. لا يتقدم إلا إذا أطلق تنهدات، وكان من الصعب التعرف على الموسيقى وسط أصوات الأزيز التي يُطلقها. ولحسن الحظ، بدأ العمال ينشدون:

(من شعبٍ بطل

سمعت الزوارق الهادئة في أبرانغا[1].

الصخب المدويّ

ومن أشعته الساطعة

لمعت شمس الحرية في هذه اللحظة

في سماء الوطن)

إنه النشيد المعروف عند «الرياضيين». وعندما كانت هذه اللازمة الموسيقية تصعد إلى السماء، كان هواة كرة القدم يبتهجون. إنهم يعرفون أنهم سيحضرون أجمل عرض؛ لأن الفريق البرازيلي هو الذي سيلعب. ينزل العلم الأصفر والأخضر الذي يرمز إلى «النظام والتقدم»، ببطء مطوياً حول السارية. يبدو كما لو أنَّ طيراً لا يصيبه الإرهاق اختلط بالجوقة، وأخذ يطلق صفيراً أجشّ. وما هي إلا لحظات حتى تبين أن بكرة حبل الرفع، هي التي كانت تطلق صوت الصرير!

ماذا يساوي فريق «سانتيستا» في هذه المباراة الرياضية الضارية المتمثلة في كأس العالم في النسيج؟ كيف ستكون فرصه في النهائي في مواجهة الصين؟

إذا أردنا التحدث بصراحة –فيما عدا الشابتين– تلك التي كانت

(1) اسم مدينة تاريخية في ولاية «ساو باولو» في البرازيل. والاسم ذاته يحمله أيضاً نهر يقع في المنطقة ذاتها، وهو من أشهر أنهار البرازيل: (المترجم).

جانب المسجّل، والأخرى عند السارية، فإن بقية أعضاء الجوقة كانوا يُغنّون من أطراف شفاههم؛ لأن التعب كان بادياً على وجوههم أكثر من النشوة والحماس. لكنهم جميعاً كانوا واقفين في وضعية الاستعداد، ولا أحد منهم كان يستهزئ أو يضحك. كل واحد منهم يعرف أن الرجل الفخور بعمله، يمنحه عمله قيمة أكثر. الإعتزاز هو حاضنة الطاقة.

عمّا قليل ستُمحّص أداتهم للقياس، وسيتعرف مراقبو الإدارة على منسوب الإعتزاز الموجود في دم كل عامل، والويل لذلك الذي سيظهر لديه عجز.

إن لدى الأمم التي كان يعتقد أنها عاجزة، أياماً مشرقة أمامها حيث المجال لا يزال متسعاً لتنمية الإعتزاز. ولا شك أن الملعب يمثلُ نموذجاً أولياً مصغراً للأمة.

في اليوم التالي، 23 آيار (مايو) قررت البرازيل، وهي فارسة السوق المدافعة عن الليبرالية، رفع الحواجز الجمركية بطريقة جعلت الكثيرين يصابون بالدوار. كانت صناعة النسيج البرازيلية –التي لم تكن تخشى أحداً وخاصة الصين– عرّضة للموت على المدى القصير إذ لم تتم حمايتها. وخلال أربعة أشهر، ارتفعت الواردات من المنتجات النسيجية الصينية بنسبة مئة وسبعين بالمئة.

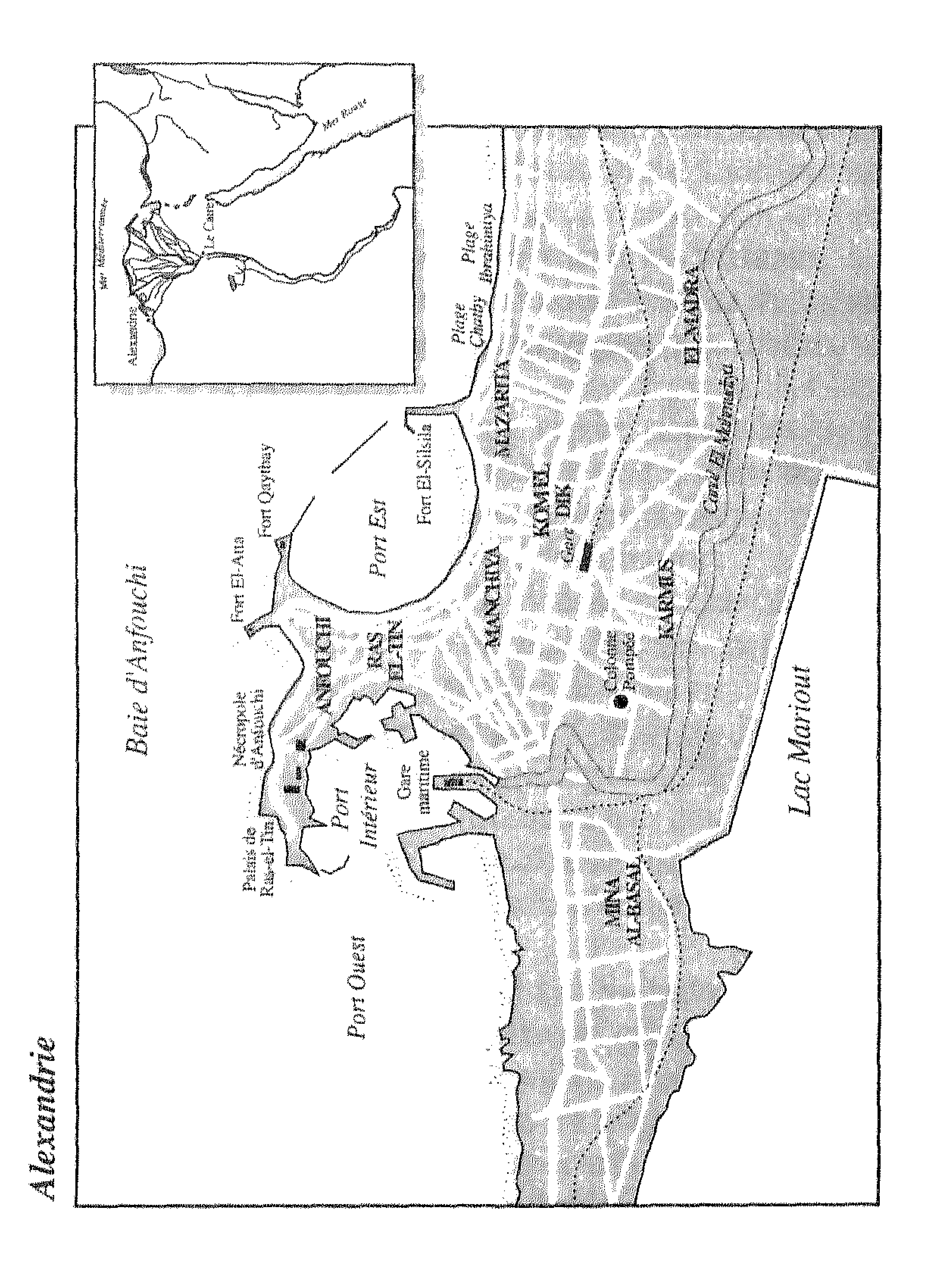
هل ستكون هذه الإجراءات كافية؟ إن أغلبية الواردات الصينية إلى البرازيل، أنها إما مستوردة بصورة غير شرعية وسرية، أو أنها «مُفوْتَرَة»

بأقل من قيمتها. إن الفرق بين الاقتصاد، وكرة القدم هو الحكَم. تخيلوا مباراة دون حكم تجري في العتمة ويرافقها رهان على الحياة، أو الموت....

مَنْ سيحترم القواعد؟

4

مصر
بصدد الوداعة



خارطة الإسكندرية

السيد محمد الحسيني العقاد

كيف يمكن قياس الحب؟

كلُ واحد يعرف أن الأداة القادرة على تقدير قوة عواطفنا، دون مجازفة أو أوهام، لم تولد بعد. إن أنواع الحب، وطرق تبادل مشاعره هي على درجة كبيرة من التنوع... ورغم ذلك، هناك اسمٌ برز في فئة «الحب النباتي»، من الفئة الفرعية «جوسيبيوم»[1]، لن يعترض أحدٌ على رفعة شأنه.

بلغ حب القطن عند السيد محمد الحسيني العقاد درجة من القوة، والكمال، والمعرفة، والشغف، والرقة، فلم ألتقِ بمثلها عند أي إنسان آخر، من الصين إلى تكساس، ومن البرازيل إلى أوزبكستان. القول إنَّ السيد العقاد رجل قصير لا يعدُّ شتيمة. هكذا أراده الخالق، تمجد اسمه. صحيحٌ أن طوله متواضع، لكن مكتبه ضخم. أُقدّر مساحته بمئتي متر مربع للسطح، وبسبعة أمتار للعلو، تحت سقف تقشَّر دهانه.

إن رحابة الأماكن في قلب القاهرة المزدحمة بالسكان، هو مؤشر أول على أهمية السيد محمد الحسيني العقاد. تؤكد بطاقته والألقاب التي يحملها هذه الأهمية:

---

(1) «جوسيبيوم» هو نوع من النبات الذي ينتمي إلى عائلة Malvaceae، وهو نوع من أشجار القطن «الحقيقية»، وينتمي إلى هذا النوع نحو خمسين صنفاً (المترجم).

باحث رئيس

المراقب العام للمتاحف والمعارض الزراعية

– إنني مسرور بزيارتك.

لم تتوقف ابتسامة السيد محمد الحسيني العقاد منذ دخولي إلى هذا الملاذ، بالرغم من الوقت الذي مرّ منذ أن طلب لي بلطف كبير فنجان قهوة تركية.

– إنني مسرور. أهلاً وسهلاً بك في مصر! هل يحب الناس القطن في فرنسا أيضاً؟ كم أنا سعيد به!

كنت على وشك أن أنسى سبب زيارتي. ما همَّ المتحف. عيناي لم تغادرا وجه السيد محمد الحسيني العقاد. إنه يذكّرني بأستاذي العجوز «ريمون آرون»: دقة الملامح نفسها، وشفافية وهشاشة الجلد نفسها، ووضوح النظرة نفسها التي يتعاقب عليها اللهو، واليأس بوداعة.

وسط الأشياء القديمة التي يعج بها مكتبه، أُشير إلى لوحة ضخمة مسنودة بأربع كراسٍ. تمثل اللوحة حقل قمح يبرز من وسطه رئيس الدولة، حسني مبارك، عندما كان عمره ثلاثين سنة. لم يتمكن الزمن من القيام بأي شيء ضد حسني مبارك منذ احتلاله للسلطة العليا، أي

منذ عام 1981: يبلغ عمره الثلاثين في الصور المعروضة جميعها. يفتح ذراعيه ويمد راحتيه نحو السماء، كما لو أنه المسيح، مسيح مسلم بالطبع. وَافق أخيراً أن يقص شعره وأن يرتدي بذلة تغلق أزرارها على الجنب.

– ألاحظ أنك تعرف جيداً كيف توفّر لنفسك الدعم الجيد. تتردد النظرة الزرقاء للسيد محمد الحسيني العقاد. من المفروض أن لا تُعجبُ الشرطة المصرية بالسخرية. لكن لدى هذه الشرطة بالتأكيد، مهمات أكثر إلحاحاً من مراقبة صديقي الجديد فحسب، الذي يطلق ضحكة من صميم الفؤاد.

– القطن ينتظرنا.

المتنزه واسع، ومزروع بأشجار النخيل وبقصور متشابهة: إنها عبارة عن كتل كلاسيكية حديثة، كل واحدة منها تمثل متحفاً. هناك متحف الزراعة الفرعونية، ومتحف المجموعات العلمية، ومتحف الزراعة البطليموسية، ومتحف الغذاء، ومتحف الزراعة النباتية... يشعر المرء بتواضع هذه المباني، وانكفائها على نفسها، بالرغم من البهاء الذي تتمتع به. ربما تعرف أنها لا يمكن أن تجذب اهتمام السائح في بلد يضم الأهرامات. أما متحف القطن فهو الأكثر بؤساً من بين جميع المتاحف اليائسة، إذ لا يزوره أحدٌ إطلاقاً.

– ورغم ذلك سأعترف لك أنه ابني المفضّل، هامساً بأذني السيد

محمد الحسيني العقاد، وهو يصعد الدرجات.

كانت تنتظرنا امرأتان عند المدخل. كانتا ترتديان حجاب المصريات الخفيف الذي يغطي الشعر فقط. إنهن مساعدات المراقب العام، ولا تزالان أكثر قصراً، وهزالاً من رئيسهن، لضرورات احترام المراتبية الوظيفية بلا شك. لكن عيونهن كانت تلمع بالطريقة نفسها. أصابهن الحب، هنّ أيضاً. انزويتا حين دخلت الهيكل.

توجد عشر قاعات شاسعة مخصصة للقطن وحده: أشجار النسب الخاصة بالقطن؛ طرق القطن، وقد رسمت بخطوط حمراء كبيرة على الجدران. نشاهد الأوامر المكتوبة بخط الخديوي محمد علي باشا التي من خلالها فَرَضَ على المصريين الشروع في زراعة القطن، وهي محفوظة بوقار في خزائن دوّارة، كما لو أنها حوائج فقيد عزيز. ونشاهد أيضاً، عشرات العيّنات في خزائن مثيرة للإعجاب مصنوعة من «بليساندر»[1]: أنواعٌ من القطن جاءت من أمريكا، وروسيا، والهند، واليونان، ومالطة، وتنجانيقا، وسيلان، واليابان، وسورية، والعراق، وموزمبيق، وتوغو، وبورتوريكو... نشاهد أنسجة قبطية مصنوعة من القطن تعود الى القرن الثاني عشر. مناظر ريفية مصنوعة من الجبس، ومن ورق ممزق قليلاً فيها تماثيل لفلاحين من الرصاص، ونرى من خلالها كيف ينمو القطن؟ وكيف يجمع المحصول شهراً بعد شهر؟ ونشاهد مجسمات

(1) خشب زكي الرائحة، لونه ضارب إلى البنفسجي مدرّج بالأسود والأصفر، يستعمل في صناعة الأثاث الفاخر: (المترجم).

لمصانع غزل، أو نسج القطن.

ويُخصّص المتحف قاعة كاملة لتقديم أعداء القطن واحداً بعد الآخر، كما لو أنهم مجرمون تلقوا عقابهم الجماعي. وتذّكر نبذة أن هناك ألفاً وثلاثة مئة وستة وعشرين نوعاً من الحشرات التي تقتات على حساب شجرة القطن، وذلك وفقاً لآخر بيان بالموجودات! كيف يُمكن أن لا يكره المرء السوسة الرهيبة منذ إلقاء أول نظرة عليها، وحتى آخر يوم في الحياة، فضلاً عن كونها خسيسة، إذ تم تكبيرها خمس عشرة مرة؟ وكيف لا يرتعد المرء أمام أبناء عمومتها في الإضرار، العنكبوت المسمى Hemitarsonemus latus واليسروع المسمى inéide pectinophora؟ كيف يمكن مقاومة الغثيان أمام «البثرة»[1] ذات النصف متر المربع، التي يسببها الفطر القذر Rhizoctonia solani؟

يقدم المتحف حياة القطن كاملة، بحظوظها السعيدة، ومصائبها من وجوهها جميعاً، بل ويقدم الأساطير التي أنجبها القطن، مثل تلك «الشجرة–الخروف» المزعومة، التي التقى بها المسافر، والكذاب الكبير جان دو ماندوفيل[2] في القرن الرابع عشر.

في نهاية المعرض، اِحْتُفِظَ بمكان للمنافسة، وذلك من قبيل التذكير.

---

(1) تجمّع قيحي تحت البشرة: (المترجم).

(2) مستكشف وكاتب بلجيكي توفي عام 1372 في مدينة «لييج» البلجيكية. زار مصر عام 1322، وألّفَ كتباً لاقت رواجاً في العصور الوسطى، إلا أنها عُدّت نوعاً من الدجل؛ بسبب اللهجة التي كان يستعملها، والاقتباسات الكثيرة التي كان يأخذها عن مستكشفين آخرين سابقين: (المترجم).

الواجهة صغيرة، وطريقة العرض تثير انقباض القلب: بضعة ألياف قذرة ملصقة على ورقة مقوية (كرتون). يا لتعاسة الصوف! يا لتعاسة الكتّان! ويا لتعاسة القنّب! كيف تجرّؤوا ذات يوم على الإدعاء بصلفٍ أنهم يقاتلون «الإله القطن»؟ يبتعد المرء عن المتحف، وقلبه مترع بالشفقة على هؤلاء الخصوم التافهين المثيرين للعواطف.

نحّى المراقب العام نفسه جانباً، خلال مراحل الزيارة كلها، تاركاً المجال للسيدتين معاونتيه لتقديم التعليقات. لكن ابتسامته تغيرت أيضاً، وارتفع لديه منسوب الغرور المُزَيّن بظلال من التسامح المتعجرف، وكأنه يقول: «ثق أيها الزائر الفرنسي العزيز أنني أقدّرُ حماسك، وهمهمات الإعجاب التي تطلقها أمام كنوزي، وهي تنفذ إلى قلبي مباشرة. ولكن سامحني إذا قلت لك إنها لا تفاجئني. إن متحفي هو الأجمل، والأكثر كمالاً في العالم. لقد كنت أعرف هذا من قبل».

أدخلُ القاعة السادسة، وأنظر إلى الجدار ثم أتساءل فجأة: ما الذي جاء بهذه اللوحات السوداء الكبيرة التي كانت تبدو كأنها مرقّشة بالأبيض؟

كنت أقترب، وقد ظننت في البداية أنني أرى فراشات، أو مجموعة من الفراشات التي تشبه الثلج. لم أكن أعرفُ أن الطبيعة تحتوي على مخلوقات مشابهة. أتقدمُ ثلاث خطوات أخرى، وأكتشف الحقيقة: إن الأمر يتعلّق ب «هالات».. هذه الهالات التي كنت أتعلم كيف أشكّلها

برعونة شديدة عند القيام بتحقيقي، حينما كنت أدرس كيفية التمييز بين نوعيّاتها المختلفة. كان المرء يمسك بقطعة قطن، ثم يقرص أحد طرفيها بين الإبهام وبين السبابة اليسرى، ثم يسحب ويسحب بالإبهام والسبابة اليمنى.

كانت كل هالة تنتمي إلى نوع ما، وكانت مرتّبة وفق حجمها. في أسفل كل لوحة، كانت توجد مسطرة صغيرة مُدَرّجَة تسمح بتقدير طول الألياف. في هذه اللوحات، كان الإنسان، والطبيعة يتحاوران مثلما لم يجرِ ذلك في أي مكان آخر، من خلال هذه الكثرة من الفراشات النباتية، والأناقة التامة لهذه الهالات. وهذا النظام الدقيق جداً، الذي هو النتاج الصافي لشغف الإنسان بالتصنيف. طلبت من المراقب العام بحياء، فيما إذا كان بإمكان موظفي المتحف إعداد لوحة مماثلة لي ذات يوم مقابل تحملّ نفقاتها.

- جيدٌ جداً، جيد جداً...

كان السيد محمد الحسيني العقاد يهزّ رأسه ببطء. كان طلبي قد أوقعه ظاهرياً في حيرة. سمحت لنفسي أن أضع إصبعين على ساعده:

- إذا لم يكن هذا ممكناً...

- كل شيء ممكن، على شرط...

مرّ الوقت. هل كان السيد محمد الحسيني العقاد يواجه صعوبة حقيقية، أم أنه كان يريد فقط أن يجعلني أبقى في متحفه أطول وقت

ممكن؟

– على شرط أن يتم الحصول على تصريح.

– لكني لا أريد أن أحملَ شيئاً معي! أريد شراء نسخة فقط.

– سيقوم موظفو المتحف بتحضيرها لك مع بالغ السعادة والسرور، إذا منحتنا الإدارة التصريح.

– أي تصريح؟

– تمنعنا الإدارة من تصدير البذار.

– لكن هذه البذار ميتة. إنها تتطابق مع أنواع مهجورة منذ أمد طويل!

رفع السيد محمد الحسيني العقاد عينيّه الصافيتين نحوي، وهما تحملان نظرة تقع في منتصف الطريق بين الخبث والتيه، شبيهة بنظرة ريمون آرون.

– يجب تَفهّم الإدارة. لقد سُرِقَ ماضي بلدي كثيراً.

بدوره يلمس ذراعي.

– ترد الإدارة بنعم دائماً. يكفي أن يُقدّمَ الطلبُ إليها، مبيناً عدد المرات الضرورية. تفاءل خيراً.

*

* *

غاب عن بالي أن أروي قصة الفراغ.

تضيق أنفاس متاحف القاهرة جميعها، تحت وطأة السياح. غير أنَّ أحداً لم يكن يهتم بالقطن سوى أربعة: السيد محمد الحسيني العقاد، والسيدتان معاونتاه، والفرنسي المهووس بالألياف.

غابت عن بالي أيضاً قصة الرمال.

إن هواء القاهرة القادم من الصحراء ليس سوى رملٍ. ولاحظت أن أسطح القاهرة جميعها، كانت مغطاة بالرمل دون توقف. ورغم ذلك، أتساءل: لماذا لم أكن ألاحظ –مثلي مثل أي زائر آخر– أيّة حبة رمل على أيّة خزانة، وعلى أيّ زجاج وعلى أيّة بلاطة؟ مَن ذاك الذي كان ينظف بعناية، ساعة بعد أخرى، هذا المتحف المقفر دائماً؟

*

* *

كانت التحيات المتبادلة كثيرة جداً وطويلة، وتذهب من القلب إلى القلب بسخاء وبهاء.

– بإمكان القطن أن يكون مسروراً، لقد كرست له أجمل بيت ممكن.

- إن هواةً مثلَك، هم في الحقيقة، زينة عِلم تنظيم المتاحف وتاريخها.

إلخ...

تاهت النظرة الصافية للسيد محمد الحسيني العقاد الذي أخذ يديّ الاثنتين، ولم يعد يفارقهما.

- عِدْني أن تعود.

- أعِدك.

والآن، ذهبت سيارة الأجرة التي أوقفتها.

عدت مرة أخيرة، وهناك لم يكن الأشخاص الثلاثة في أعلى الدرجات يتحركون: السيد محمد الحسيني العقاد محاطاً بمعاونتيه السيدتين. كانوا يلوّحون بأيديهم بتثاقلٍ متزايد.

لماذا كنت واثقاً من أن زائراً آخر لن يدخل متحف القطن، متحفهم، قبل أن أعودَ إليه؟

القطار الإسباني

بعض الدلائل لا تخدع: هناك محطات قطار لها أفضلياتها. إنها تحترم بعض القطارات، وتحتقر القطارات الأخرى جميعها. لا تشذّ محطة رمسيس في القاهرة عن هذه القاعدة. من الواضح أنها تولي الإسكندرية تقديراً عالياً؛ فالمسافر إليها، سواء أكان مصرياً أم أجنبياً، محاطٌ بالعناية ويُحتفى به تقريباً. تُفرَشُ له سجّادة حمراء ويُوضع سُلّم صغيرٌ أمام مدخل سيارة المسافر من أجل تسهيل صعوده. وطبعاً يرتجّ هذا السلّم بصورة خطيرة؛ ورغم ذلك لا يملك المرء إلا أن يُرحب بهذه الرعاية الرقيقة من جانب إدارة السكك الحديدية. أكثر من ذلك: ما أن تصعد إلى القطار —وأنتَ تترنح بسبب السلم— حتى تجدَ رجلاً يندفع لخدمتك؛ يَحمل عنك حقيبتك، ويُجْلسُك، ثم يَنظرُ إليك نظرة آمرة ناعمة: من الآن فصاعداً لا يمكن أن يحصل لك أيُّ شيء غير مستحبّ، بما أنك تحت حمايته. علمتُ لاحقاً أن هذا الرجل كان مسؤول العربة.

الوجه المستطيل نفسه، الذي لم يكن مقدوداً بصورة متقنة. الشَعْرُ الطويل، والشارب الكثيف الأبيض. يشبه ملاكي الحارس «فوكنر» بقسماته كاملة. يستقر جنون العظمة بسهولة في مصر. يَهتمُّ بك ويَتأملكَ من أعلى هذه الأهرامات ستون قرنٍ من التاريخ. كيف لا

تلمسُ رقة جديدة لدى محطة قطار القاهرة في هذا التشابه؟ لقد عَرَفَتْ هذه أنني كاتبٌ، ولذلك اختارتْ لي، من بين رؤساء العربات جميعها، شبيهَ كاتبٍ، ليس كبيراً فقط، بل متخصصاً في عالم أشجار القطن (في عمق جنوب الولايات المتحدة).

بعثت مظاهر الحفاوة الكثيرة، واللطف الهدوء، والسكينة في نفسي، فكنت سأغفو عن طيب خاطر، إلا أن الهزّة العنيفة لانطلاق رحلة القطار ذكّرتني بمهمتي التحقيقية.

لا أحد يجهل أن القاهرة شاسعة، لا يمكن إيواء السبعة عشر مليون نسمة في حارة صغيرة؛ ولذلك تمثل المواصلات بين الضواحي رحلة لا نهاية لها. في هذه الأثناء نشاهدُ أطفالاً يركضون، وعنزات ترعى الأكياس البلاستيكية وغسيلاً منشوراً على الواجهات، وأطباقاً تلتقط الكنوز التلفزيونية للعالم كله، في حين تذّكرنا المآذن بـ «الله أكبر».

حالما تتباعد البنايات تدريجياً تظهر الخُضْرة أخيراً. إنها خُضْرَةٌ طرية؛ لأننا كنا في شهر شباط (فبراير)، وسيحلُ الربيع قريباً. خضرةٌ تمتد في الأفق وتثيرُ الفرح والأمل، مبشرةً بغلات وفيرة في المستقبل القريب. لكننا نكتشف بعد قليل أن هذه الخضرة التي تملأ البصر مزروعة بأشباح. إنها تنحني ثم تقف، ربما أنها تعمل أو تصلي. كيف ملاحظة الفرق من مسافة بعيدة؟ توجد حمير تمر أو تنتظر، مشدودة إلى طنابير صغيرة. المياه في كل مكان، نشاهدها في القنوات ونلاحظها في خطوط مغروسة في

الحقول. المياه تسود فلا يستطيع أحد أن ينكر أنها هي التي أنجبت هذه الخضرة. أجل، عبر زجاج القطار الذي يحملني، أشعر باليقين الهادئ، وبسلطة هذه المياه: «إنني قادم من النيل، إنني النيل».

في مصر، مَنْ يستطيع أن يصدّق أن الأرض كروية؟ العالم منبسط فيها جداً... وكيف يمكن تخيّل أن الوقت يمضي هنا أيضاً؟ لم تتغير الحركات بلا شك منذ آلاف السنين، والأيام نفسها تمر، ثم تبدأ من جديد بلا توقف. بدا هذا المنظر الطبيعيّ الراسخ في أعماق الزمن، كأنه الصورة نفسها لوضعٍ ثابت لا يتبدل.

أمام هذا السكون وراحة البال، كيف يفسر الإنسان هذا الإحساس بالتهديد والوعيد؟

يجب طلب الجواب من أعداء الخضرة. يا للخضرة المسكينة! ما أن استقر عند الخروج من القاهرة حتى التهمته مدينة أخرى، التي ما أن نغادرها حتى نستقبل مدينة ثانية، فثالثة. وعندما تظهر الخضرة من جديد، يعلم الإنسان أنها لن تستمر طويلاً. لقد سبق وأن شُيِّدتْ بنايات في وسط حقلٍ هنا أو هناك. ستصرف قرية هنا في السنة القادمة أو تلك التي تليها، على هواها قبل أن تتحول بدورها إلى مدينة. كم من خضرة ستبقى قريباً، من فرط ما تتعرض هذه للقضم؛ لبناء مزيد من المنازل الضرورية لإيواء المزيد من المصريين؟

تعلو مداخن هنا وهناك في الريف. وبما أن «فوكنر» كان يمر بين

الحين والآخر للاطمئنان على راحتي، فقد استفسرت منه عن الأمر.

– إنها مصانع قرميد.

إن مصر هي حقاً في طريقها للدخول إلى قلبي. لديّ الانطباع أن مصيراً مرعباً هو قيد التشكّل، يتمثل في عملية تكبيل بالأصفاد سيئة التأثير يتم تجاوزها بخيانة ما. بالصلصال نفسه، الناتج من الدلتا، يتم تصنيع قطع القرميد التي ستبتلع الدلتا نفسها لاحقاً.

ينتابني الخجل فجأة بسبب اهتمامي بالقطن، لأنه هو الآخر يُهاجم الخضرة. إنها المعركة الأزلية بين الزراعات التي تغذّي، وتلك التي تُثري (زراعات الغذاء مقابل زراعات التصدير).

ليس لدى «فوكنر»، ظاهرياً، حلولاً للخروج من المأزق. كان يأتي ويذهب إلى عربتنا طوال الوقت، وهو يلعب بمحفظة صغيرة يُطنْطِنُ فيها ما لا يقل عن ثلاثين مفتاحاً. من أجل فتح ماذا؟ في هذا القطار لا شيء يُقفِل، حتى أبواب المراحيض.

لا يألُ الملاك الحارس جهداً من أجل تقديم النصائح الجيدة في الوقت المناسب. بما أن قافلتنا بدأت في تخفيف سرعتها بثبات –لسبب ما غامض يتعلق بحركة المرور الخاصة بالسكك الحديدية– فقد اقترح عليّ ذلك الملاك الحارس أن أزور الحانة.

– ستهواها، يقول لي، إنها تذّكر بالزمن الغابر. كل زائرينا يحبون ذلك الزمن.

كان العتاب مغلفاً بابتسامة عذبة لم يسبق لأحد أن وجّه لي مثلها. كيف يمكن لأحد أن يحقد على «فوكنر»؟ إن قول الحقيقة هي إحدى مسئوليات الملاك الحارس. نحن السياح، سنطلب من المصريين عن طيب خاطر أن يتوقفوا عن العيش، وأن يعودوا إلى الخلف؛ لكي نتمكن أكثر من الإعجاب بماضيهم على مهل.

أنهض متضايقاً وأصل إلى الزمن الغابر، فإذا به من بقايا (قطار) الشرق السريع. عربةٌ مكسوة بخشب ثمين من «البلسندر» والورد، بها آرائك واسعة وفوق كل طاولة يُوجد مصباح تغطيه كُمّه من المخمل. بعض الضيوف عديمي اللطف وضعوا لبانهم مكان «اللمبة». أية أهمية لذلك، بما أن القطار الذي أطلق عليه «الإسباني»، لأسباب غامضة، لا تُسيّرُ رحلاته إلا في النهار؟

ألقت الخضرة سلاحها بعد أن قاتلت ببسالة، وقاومت حتى وصلت إلى هذا المكان. منذ بضعة أرباع الساعة، ونحن نسير في مدينة. المنازل منخفضة تعلوها الأطباق المعتادة، لكن يوجد أيضاً أبنية صغيرة ذات أطراف مدوّرة تشبه قوالب السكر. أوضح لي النادل، وهو ملاك حارس آخر، أنها أبراج حَمَام. إنها تشكّل إشارات مشّجعة على أن الميل لتربية (الحيوانات الداجنة) يظل النصيب الزراعي المستقر في الروح المصرية.

عمّا قليل ستعلو هذه المنازل وتصبح بنايات. ربما لا يتحمل الحمام هذا الارتفاع، ولذلك اختفت أبراجه.

فازت المدينة.

وهكذا وصلت إلى الإسكندرية عندما حان وقت الصلاة، وأنا في حانتي التي هي قطعة من الزمن الغابر.

كانت (نُفُوسٌ عَطُوفة) تبسط سجّاداتها على أرصفة محطة القطار؛ لكي تتيح المجال أمام المؤمنين للركوع دون راحة مبالغ فيها. ونظراً لمكان وجودهم، كانت ابتهالاتهم تبدو كأنها إعلان عن موعد المغادرة الوشيكة لأحد القطارات، أو كأنها نداءات لطلب النجدة: أيها العلي القويّ القدير، إنني أسكن في مدينة معقدة جداً، ساعدني على الاهتداء إلى طريقي فيها!

تنحدر الإسكندرية من السلالة نفسها التي تنتمي إليها القدس. لا يغامر المرء بتذكّر الحضارات التي مرت بها، دون أن يُصاب بدوار.

منذ لحظة الوقوف في صف سيارات الأجرة، ولدى مشاهدة أولى الأعمدة وقطع التماثيل، يدرك الزائر أنه يرجع إلى عهود سحيقة من الزمن.

331 قبل يسوع المسيح.

«أما وقد أصبح الإسكندر سيّد مصر من الآن فصاعداً، فقد أراد تأسيس مدينة يونانية كبيرة آهلة بالسكان تحمل اسمه» (بلوتارك في كتاب «الحياة الموازية»).

«كان المهندسون المعماريون قد بدؤوا برسم خط السور عندما نفدت الطباشير. في تلك اللحظة، كان الملك يصل إلى المكان عينه. عندها وضع مدراء الأشغال جزءاً من الدقيق المخصص للعمال تحت تصرف المهندسين المعماريين. ورُسم جزءٌ هام من مخططات الشوارع بواسطة هذا الدقيق. وفسرت الواقعة، كما يبدو، كأنها فأل خير سار جداً» (سترابون، في كتاب «الجغرافيا»).

انطلاقاً من هذا التاريخ، كانت المدينة تتحول بلا توقف قرناً بعد آخر؛ لأنها كانت تستقبل حضارات، وأقوام، وديانات مختلفة باستمرار: مصر، وروما، والمسيحية، والإسلام، والأتراك، والحجاج المتوجهين إلى مكّة، وجميع أولئك الذين كانوا يفرّون؛ هرباً من أحد أشكال العنف في الشرق الأوسط.

«تبدو الإسكندرية كأنها عُبِّدَتْ بواسطة الآثار التي أبيدت العائدة لألف مدينة. كل فدّان من الأرض قُلِبَ وأُعيد قَلْبُهُ، وتبدو التربة المخلوطة بالسماد الطبيعي كثيفة، ولكن تاريخية...»؛ هذا ما كتبه «ميلفيل» في عام 1857 عندما كانت المدينة تستعد لخوض مغامرات أخرى.

كانت كل جماعة تستقر حديثا، تحافظ على الاتصال بمسقط رأسها، فأصبحت الإسكندرية تدريجياً مركز الشبكات الأكثر ثراءً وتنوعاً. كانت أشكال التبادل التجاري من أقصى المتوسط إلى أقصاه، عبارة

عن صفقات لعائلات على علاقة مع الإسكندرية بهذا القدر أو ذاك. لم تكن حتى مدينة «البندقية» منافسة للإسكندرية؛ فهي تقع على الجانب الآخر من البحر، وتمثلُ الشريك الأمثل؛ لأنها بوابة أوروبا.

كانت بعض الحقب أكثر ازدهاراً من أخرى، لكن الميناء لم يكن يخلو يوماً من سفنٍ قادمة تبحث عن حنطة وفواكه مصر، وعن قطنها أيضاً، منذ ذلك الوقت. وبالمقابل، كانت تصل ثروات أخرى متنوعة من أماكن بعيدة. فالإسكندرية كانت أيضاً ميناءً برياً تنتهي عنده رحلة القوافل الطويلة التي كانت تعبر إفريقيا وآسيا، لكي تجلب الملح أو الذهب، والحرير، والتوابل.

*

* *

على حواف القرن التاسع عشر، لم تعد مغامرة بونابرت سوى ذكرى. ذهب هو بنفسه إلى باريس لكي يستلم السلطة، في حين أُغتيل خلفه «كليبر»، وعاد الضباط الآخرون المهزومون الذين تركهم وراءه وحدهم. ومكث في مصر بضعة علماء، والرجل القويّ الجديد –الألباني محمد علي– ممثل السلطة العثمانية الذي كان يكن إعجاباً لفرنسا، وحدهم هم الذين مكثوا في مصر. وقع محمد علي في حب مصر، فأراد إيقاظها. ولهذه الغاية أحاط نفسه بمهندسين غربيين من بينهم «باسكال كوست»، القادم من «مارسيليه». قام هذا بأعمال تنظيم كبرى، وبنى

عشرين برجاً للتلغراف بين القاهرة، وبين الإسكندرية. ولذلك أصبح تداول الأخبار بين المدينتين يتم بأقل من ربع ساعة.

تكلّف الحداثة غالياً.

ولكن أين يمكن العثور على النقود؟

ذات يوم من عام 1821، زار عالم فرنسي آخر اسمه «جوميل» حديقة في القاهرة، وفجأة توقف مندهشاً أمام شجرة. ونظراً لأنه كان عالم نبات، فقد تعرف سريعاً على اسم الشجرة وهو Gossypium barbadens. أُعجب بشكل خاص بالألياف التي كانت تحيط بالبذور؛ لأنها كانت ذات طول ونعومة مجهولين. وفي الحال أُخطر محمد علي الذي أدرك سريعاً مدى أهمية الطاقة الكامنة في هذا الاكتشاف. أرسل موظفيه فوراً إلى أركان الدلتا الأربعة وأجبر الفلاحين على زراعة هذا القطن تحت طائلة الحكم بالإعدام.

كان تجار الإسكندرية متلهفين لوصول منتج جديد لتسويقه، ولذلك تحمسوا ونظموا أنفسهم. بعدها بثلاثين سنة، عندما اندلعت حرب الانفصال في الولايات المتحدة – مجففّة بذلك المصدر الأول الذي كان يزود مصانع النسيج في مانشستر – كان القطن المصري على أهبة الاستعداد للحلول محله.

يُمكن تلخيص المسألة كاملة على النحو التالي:

اجتمع مستبد الباني متنور مع بذرة قادمة من البربادوس، بطريقة لا أحد يعرفها، ودلتا موجودة في إفريقيا، وعالم نبات فرنسي، ونزاع داخلي في أمريكا وصناعة نسيج في لانكاشاير... مَنْ لا يزال يعتقد أن العولمة هي حقيقة جديدة؟

*

*   *

«ويْح، ليحرسنا الله! ما هذه الضجة المرعبة؟ لنركض، لتركض! هل قتل أحدٌ؟

– لا تقلق أيها السيد العزيز ذو القلب الكبير؛ إنهم تجار الإسكندرية الذين يشترون القطن.

– لكنهم بالتأكيد يغتالون بعضهم بعضاً الآن؟

– إطلاقاً. إن كل ما يفعلونه أنهم يؤشّرون لبعضهم بعضاً.

– هل يوجد مكان يمكن للمرء أن يرى هذه الحركات دون التعرض للخطر؟

– نعم، هذا المكان موجود.

– ولن أصاب بأي أذى جسدي، وأنا واقف فيه؟

– أبداً، البتة.

– إذن أرشدني إلى الطريق من فضلك».

وبعد أن وصلنا إلى غرفة تقع في مكان عال، ألقينا نظراتنا على قاعة مدهشة.

من المعتاد مقارنة مثل هذه الرؤى بـ «جحيم» دانتي، لكن الشبه كان حقيقياً جداً هنا؛ لأن المرء كان يرى الدوائر المتمركزة التي تحدث عنها «فلورنتان» بارزة بوضوح. في هذه الدوائر المفصولة عن بعضها بعضاً بواسطة «دربزينات» مزخرفة، كانت الزوابع تشتد بمقدار ما كانت الأحجام تتقلص إلى الوضع الذي تكون فيه الدائرة الداخلية مغمورة دون أي أمل بالإنقاذ، من خلال جمع من النفوس الغارقة بالعرق. فوق الحوض المركزي حيث لم يمكث إلا موظف تحول إلى حجر. كان هؤلاء الناس يتبادلون صرخات قوية، وحركات أذرع ورذاذ لُعاب. كان الموظف يحرك جرساً بين الحين والآخر، في حين كان واحد من زملائه يقف بعيداً بعض الشيء فوق سُلّم، يتسلق بين وقت وآخر؛ كي يكتب على لوح بالطبشور. كان التجار يضربون رؤوسهم ويطلقون صيحات. ثم حلّت فترة هدوء رهيب. كان يحضر شيء ما أسوأ. انتهزنا الفرصة لكي نتحدث.

«ويحك، قل لي ما اسم هذا المكان!

– هذا المكان ليس شيء آخر سوى السوق المالي (البورصة)، يتم بيع القطن من هذه الجهة، والأسهم العقارية من تلك الجهة»[1].

---

(1) اي. م. فورستر، كتاب «Pharos et pharillon» 1953، ترجمة كلود بلان، كيه فولتير، 1991.

أعطى هذا التدفق المفاجئ للذهب –هدية القطن– (تضاعفت الأسعار أربع مرات في ثلاثة أعوام).. الإمكانات لتحقيق الحلم القديم: تحويل الإسكندرية إلى مدينة حرّة، وإقامة بلدية تدير أمورها بنفسها، حلم أوروبا المثالية فوق هضبة لإفريقيا.

هناك تعبير لاتينيّ لا يتوقف الإسكندرانيون عن ترديده، وهو أن «الإسكندرية قريبة من مصر»، أي أنها ليست مصرية تماماً.

هذا الشعور بالوجود خارج الأراضي الإقليمية موجود دائماً، وهو ليس حكراً على الإسكندرية. تُحوِّل جميع المدن التجارية الكبيرة نظرها، نحو الخارج أكثر مما تحوّله إلى الأراضي المقامة فوقها. تملك جميع المرافئ والمدن، خاصةً الشهيرة منها المسماة «موانئ ومدن الشرق»[1] عقليات جوّالة مستوحاة من ممارساتها الاقتصادية.

*

* *

استمرت الطفرة تقريباً خمسة أعوام. وما أن سكت آخر مدفع في الحرب الأهلية الأمريكية، حتى استأنفت الأسعار مستوياتها التي كانت عليها عام 1860. كانت هذه النعمة كافية لترسيخ الغرور، وزيادة الثقة،

(1) وتسمى بالفرنسية Echelles du Levant هي تلك الواقعة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وكانت تابعة للإمبراطورية العثمانية. تخلّى السلطان عن بعض صلاحياته، خاصة في المجال القانوني إلى تجار فرنسيين. وبموجب القانون الفرنسي تحولت هذه إلى «امتيازات» لهم: (المترجم).

وتقوية، وتوسيع الشبكات، وتطوير البنى التحتية. وهكذا ولدت البورصة والميناء الحديث: ميناء البصل.

لم تفاجئ عودة الأمور إلى وضعها الطبيعي رجال المال الحذرين؛ لقد توقعوا الانهيار، وأعادوا الإستثمار في قطاعات أخرى. المزارعون الصغار وحدهم أفلسوا، فقد استدانوا من أجل زيادة إنتاجهم. واسترد رجال المال أراضيهم عن طريق شرائها بأسعار رخيصة، فهبوط الأسعار هذا هو الذي أتاح المجال أمام الإسكندرية للاستحواذ على جزء جميل من الدلتا.

«ذهب مع الريح».

يعلم كل واحد منّا أن المنازل البيضاء الكبيرة في جنوب الولايات المتحدة قامت بفضل الاستغلال البشع لقوة عمل العبيد السود؛ ورغم ذلك، مَنْ منّا لا يشعر بمحبة خجولة تجاه تلك المنازل؟

على النحو ذاته، يعود الفضل في الثروة المصرية من القطن بالمقدار نفسه، إلى الفلاحين، وإلى كدّهم المنْهِك. لكن المجتمع الذي ولد منها كان، بخلاف ذلك أكثر إثارة للاهتمام. ماذا كانت تساوي أنواع الشاي، والثياب المزركشة التي عَرَفتْها «الأباما» و«المسيسيبي»، مقارنة بالطبيعة العالمية (cosmopolitisme) للإسكندرية، التي كانت تضم مواطنين من أجناس مختلفة في تلك

السنوات المباركة حوالي عام 1840؟

كان لكل جماعة مدينتها، ومبانيها، ومدارسها، وأماكن العبادة وأماكن التسلية أو اللّهو الخاصة بها. كانت هناك المدينة اليونانية، والمدينة الفرنسية، والمدينة الإيطالية، والمدينة اليهودية، والمدينة السورية -اللبنانية، والمدينة الأرمنية، والمدينة التركية... تتعايش أقصى درجات التنوع مع أقصى درجات التسامح. مدن أشخاص أحياء مفعمين بالحيوية، والتي تتماثل معها، وبالمقدار نفسه مدن للأموات حيث تحتل المقابر مساحة ثمانية عشر هكتاراً، مليئة بالشواهد التي تروي كل واحدة منها جميع المصائر الممكنة من خلال بضعة سطور.

«هنا يرقد هوسيب أ. تشيركسيان، ولد في آمانيا (تركيا) عام 1839. أقام في الإسكندرية عام 1874، حيث أسس أول مؤسسة للخيوط. توفي وهو أعزب في الإسكندرية بتاريخ 26 كانون الأول (ديسمبر) 1898»[1].

الإسكندرية هي مدينة المدن. ولكن أين هي المدينة المصرية؟

تبدو مصر منسية، انفصلت الإسكندرية عنها مرة أخرى. إنها سفينة كبيرة مربوطة تقريباً بحبلها الضخم، حيث صعدت جميع الشعوب على متنها.

لماذا يريد الإنسان أن يعيش في مكان آخر بما أن الإسكندرية تقدم

(1) لوسيان باش، «حدائق الموتى»، مجلة الشؤون المتوسطية، خريف 1996.

له كل شيء؟

أتذكّرُ العبارة التي استعارها بول موران عن جيمس بوزويل: «عندما يكون إنسان تعبٌ من لندن، فإنه يكون تعبٌ من الحياة؛ لأن لندن تقدم كل ما يمكن للحياة أن تقدمه».

إنها أعجوبة يُستَلذ بها أكثر؛ لأن كل واحد يعلم أنها لن تدوم، إذ إن هذه الفسيفساء المدهشة، لا يمكن إلا أن تتشظّى. لقد سجل الشاعر الجوّال «قسطنطين كافافي» هذا الحاضر الذي كان يثير الحنين فيما مضى، من خلال النص التالي:

« أنت تقول: «سأذهب إلى بلدان أخرى، نحو ضفاف أخرى. سينتهي بي الأمر أن أجد مدينة أخرى أفضل من هذه، حيث كل واحدة من محاولاتي مذمومة سلفاً، وحيث قلبي مدفون مثل ميت. حتى متى ستبقى روحي في هذا الضنى؟ أينما أدور وأينما أنظر، أرى هنا أطلال حياتي، هذه الحياة التي ضيعتها خلال سنوات كثيرة وبددتها».

لن تجد بلدان جديدة، ولن تكتشف ضفافاً جديدة.سوف تلحق المدينة بك. سوف تتسكع في الشوارع نفسها، وسوف تهرم في الأحياء ذاتها، وشعرك سيشيب في البيوت نفسها. حيثما تذهب ستحطُّ في المدينة ذاتها. لا يوجد لك لا سفينة، ولا طريق يمكن أن تقودك إلى مكان آخر. لا تأمل في شيء. لقد ضيّعت حياتك في العالم كله مثلما ضيّعتها في هذه الزاوية الصغيرة من الأرض.

عندما ستسمعُ فرقة غير مرئية تمرّ عند منتصف الليل وهي تعزف موسيقى عذبة وأصوات، لا تبكِ بلا طائل، ثروتك التي هربت أخيراً، وأعمالكَ الفاشلة، ومشاريعكَ التي تبين أنها خادعة. مثل رجل شجاع مستعدّ منذ وقت طويل، حيِّ الإسكندرية التي ترحل عنها. لا ترتكب هذه الغلطة تحديداً: لا تقل أن حاسة السمع خدعتك، أو أن هذه ما كانت إلا حلماً. استخف بهذا الأمل الكاذب... اقتربْ من النافذة بخطوة ثابتة، مثل رجلٍ شجاع على أهبة الاستعداد منذ وقت طويل؛ لقد كنتَ جديراً بمدينة كهذه... حافظْ على تأثّرك، وانفعالك، ولكن لا تستسلمْ لطلبات وتوسلات الجبناء. استمتعْ للمرة الأخيرة بسماع أصوات الآلات الممتعة للفرقة المقدسة، وحيِّ الإسكندرية التي تَضيعُ منك».

مثلما كان يتوقع كل واحد، ماتت الإسكندرية خلال بضعة أيام في منتصف سنوات الخمسينات.

هل كان يجب أن نشكر القطن على هذه الأعجوبة الراحلة؟

استمعت إلى كثير من الإسكندرانيين، علماء، ومؤرخون ورجال أعمال. جميعهم عبّروا عن امتنانهم لهذه النبتة التي اكتشفها «جوميل». لكنهم جميعاً أضافوا: إن مدينتنا مطبوعة على التجارة. وبالنسبة للتاجر الحقيقي، المهم هو التجارة، وليس الموضوع، أو المادة التي يُتاجرُ بها. يتمثلُ النسيج الحقيقي في العلاقة التي تتطور بين البشر.

كيف يمكن تخطئتهم؟

قضاء بعد الظهر مع السيد أمبيرور(1)

– السيد أمبيرور؟ إنه يقطن في شارع فرعون...

يتكلم معي بواب فندق «سيسيل» بصوت خافت، كما لو أنه يتكلم مع شخص ضعيف البنية. يَعلمُ أنني وصلت الآن. يمكن تشبيه الإسكندرية بمشروبٍ مُسْكِرٍ. إذا قُدّم منه إلى الزائر فجأة من باب الاحتفاء به، فمن المحتمل أن يفقدَ صوابه. ويبدو أن هذه الحالة وقعت في أغلب الأحيان. عندئذٍ يروي هذا البواب الطيب أخباره التي لا تصدق بالتفصيل الممل.

– ألا ترى؟ في زاوية شارع بطليموس.

ثم يبتسم ويباعد بين يديه كأنه يعتذر، ولسان حاله يقول: ماذا بإمكاني أن أفعل إذا كانت عناويننا فخمة وعظيمة؟ مدينتنا هي هكذا. غضّن عينيه، وجمع كل قواه خفية. «لا تقلق، سوف تتعود»، يقول لي كأنه يشجعني. البوابون الحقيقيون يعرفون كيف يعتنون بالإنسان. والبواب الذي يزوّدني بالمعلومات عن السيد «أمبيرور» بكل هذه الرقّة، يذكّرني بواحد من زملائه الذين التقيتُ بهم سابقاً في «مارينسكي

(1) السيد جان إيف أمبيرور، عالم آثار فرنسي، مدير أبحاث في المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي، وهو مؤسس مركز الدراسات الإسكندري الذي يهدف إلى دراسة تاريخ مدينة الإسكندرية: (المترجم).

لازني»[1] أيام الستار الحديدي، وكان ذلك البواب مثالاً للطف والرقة.

في الحقيقة، يمكن للمرء أن يقصد الإسكندرية كما لو أنها مدينة تتوفر فيها المعالجة الطبية بواسطة المياه. وعندما يأتي المريض إليها للمعالجة، ربما يكون المرض الذي يعاني منه هو هذا الاهتمام المفرط بالحاضر من حياتنا، دون الالتفات إلى ماضيها أو مستقبلها؛ وهو ما يعني طغيان اللحظة الراهنة مع نتيجته الطبيعية، أي غياب العمق ومرادفه السطحية.

*

*　*

لم يكن السيد أمبيرور في حالة نفسية، تتيح له البقاء في منزله الواقع في شارع فرعون. اصطحبني إلى وسط «الأنفوشي» وهو الحي التركي. وفي الطريق، كيف يمكن ألا نحيّ «كفافي»؟ اختار الشاعر لنفسه موقعاً استراتيجياً فوق ماخور. إضافة إلى الزبائن الذين كانوا يقصدون النساء، كان الشاعر يشاهد أيضاً مستشفى ومقبرة من نافذته. في الواقع، أين كان بالإمكان العثور على مرْصَدٍ أفضل من هذا، لشخصٍ يهتم بالجنس البشري؟

يملك صاحب المطعم، صديق السيّد أمبيرور إدراكاً فطرياً بأهمية المكان أيضاً. قام بضم قطعة من الشارع وغطّاها بشادر ووضع فيها

---

(1) مدينة في جمهورية التشيك، مشهورة بمياهها المعدنية: (المترجم).

طاولات وكراس. لم يكن سكان جانب الطريق يضايقون الزبائن في شيء، بالرغم من استمرار مرورهم بأعداد كبيرة. كانوا يعلّقون على الأطباق، ويتداولون آخر أخبار المدينة أو يتابعون طريقهم، مقطبين الجبين دون أن ينبسوا ببنت شفة. كم من المناسبات المباركة توفرت من أجل إعادة إطلاق الأحاديث التي تداعت: هل رأيتَ هذا الوجه الحزين؟ هل بسبب المرض، أم الشجاعة أم الإستنماء أم الاستدانة؟ وفي الوقت نفسه، يتغذى الناس سمكاً، ويشاهدون عروضاً مقتبسة من رواية لمحفوظ أو قُصري.

منذ ضُمّ الشارع، أضاف المطعم صفةً إلى اسم مالكه: أصبح يطلق عليه من الآن فصاعداً «أبو أشرف الدولي». ومع ذلك، هل أصبحت الأسماك المعروضة التي يختارها الزبائن أكثر اعتزازاً؟ تعيش المحارات حياة أكثر قسوة. إنهن ينفَتحْن، ويُخْرجن قرونهن في حوضهن الحديدي المُقَصْدَر. إن لديهن بالتأكيد قصصاً ممتعة جداً، يردن روايتها لنا عن البيئة الأصلية التي عشن فيها، أي أعماق البحار. لكن علماء الآثار لا يزالون – بالرغم من علمهم الوفير – لا يفهمون لغة القرقرة التي تتحدث بها هذه الرخويات المقدامة.

السيد أمبيرور، الرجل الذي يسكن في زاوية شارعيّ فرعون وبطليموس، هو واحد من هؤلاء العلماء الذين يتعاقبون هنا جيلاً بعد جيل، دون أن يفقدوا شيئاً من نهمه المثير للإعجاب. بالنسبة لهم، الإسكندرية هي حلم طفل، ومخزن غلال لا ينضب. توجد فيها الكنوز

من العصور جميعها؛ أيّهم يختار؟

إن تخصص السيد أمبيرور هو العصور القديمة، مع تفضيل –كما يبدو– للبيئات المائية. من بين اكتشافات عديدة تنسب إليه، فإن الفضل يعود إليه في اقتلاع واحدة من التماثيل الضخمة، التي كانت تزيّن قاعدة المنارة الكبيرة في أعماق البحر. وهو أيضاً الذي عثر على شبكة الصهاريج التي كانت فيضانات النيل تملؤها مرة في السنة عبر قناة. كانت المدينة ترتوي منها خلال الأشهر المتبقية.

لا يمنعه هذا التبحر الخاص جداً في العلم من الشغف بالحقب الأخرى. ما أن غادرنا مطعم أبي أشرف حتى ذهبنا إلى الميناء الغربي. كانت السماء رمادية تخترقها سحب كثيفة. كانت تهبُّ ريح ثلجية. أين اختفت مصر؟ كأنها ليفربول. كانت مستودعات قرميد ضخمة تنتشر على مدى عشرات الكيلومترات. إنها اليوم شبه فارغة. لكن بالأمس البعيد، أثناء عصر الذهب (الأبيض) كان الناس يكوّمون حزمات (بالات) القطن فيها بانتظار الشحن. إنها لا تزال تحمل أسماء العائلات الكبيرة، التي كانت مهيمنة على تلك التجارة.

– لم تنته هذه المغامرة؛ سوف تَرى خلال سنتين، أو ثلاث. إن لديّ ثقة تامة في قطننا.

يهزّ السيد أمبيرور رأسه.

– هل سبق وأن لمسته؟ إنه الأكثر نعومة في العالم. يجب أن أساعدك

على الالتقاء بأحد الأشخاص.

ينتمي السيد أمبيرور إلى سلالة خاصة من علماء الآثار، أقصد أن أقول إنه إسكندري. لقد رأى مدينته غالباً، وهي تَفِلُ وتغفو قبل أن تستيقظ فجأة، وذلك خلال تاريخ يمتد إلى ثلاثة وعشرين قرناً. هو خير من يعلم أن هذا الجزء من الشاطئ المتوسطي يمتلك عبقرية الوثبات. حينئذ يقوم بالبحث عن مؤشرات النهضة، أكثر من الاهتمام ببقايا الماضي. هل يمكن للقطن -الأفضل لأنه الأكثر نعومة في العالم- أن يحيي الماكينة القديمة من جديد؟

سيجيبكم أمين أباظة على ذلك:

– عائلة أباظة أناس مقاتلون، سوف ترى. إن لدي ثقة تامة بذلك!

فندق سيسيل

كان المسافرون الكبار يتحدثون فيما بينهم عن فندق سيسيل في الإسكندرية، كما لو أنهم يتحدثون عن Raffles في سنغافورة، أو عن Norfolk في نيروبي.

إذا أردتَ أن تشاهد الاسم الأسطوري «فندق سيسيل» مرة أخرى، عليكَ بالاسراع؛ لأنه لم يتبق إلا القليل من الوقت. لقد حلّتْ سلسلة الفنادق «سوفيتل»، المالك الجديد، محله منذ فترة، وأخذت تتصرف

على هواها.

أتخيّلُ بسهولة اجتماعاً لبضعة رجال صغار القامة باهتون، وقد أقنعوا المالك الجديد بضرورة تعليق اسمه «سوفيتل» فوق الباب بأحرف كبيرة، وعلى طول عرض الواجهة. يا لتعاسة المقْطَعين اللفظيين للاسم المذكر «سيسيل». أزيل هذان المقطعان الهزيلان، وألقي بهما على الأسطح فوق غرف الخدم. بلا أدنى شك، ينتظر الرجال الباهتون من العاصفة القادمة أن تخلّصهم من بقايا ذكريات الفندق المزعجة.

تغار العلامات التجارية -التي تختصر زماننا الحالي- من الأساطير، ويوجد جانب من الصواب في ذلك. فهذه الأخيرة تتميز عندما تصبح الأولى عادية. مَنْ سيراوده حلمٌ ذات يوم، وهو يقف أمام لافتة «سوفيتل»؟ والأمر الأكثر خطورة هو أن يلمس لدى هذه العلامات التجارية كرهاً تجاه التنوّع. إنها تحاول أن تجعل من الرحلات جميعها نسخاً عن رحلة واحدة، كما لو أن تشابه الأشياء نفسها هو ذروة العذوبة، في حين أنه يمثل شعوراً مسبقاً بالموت الذي يعادل كثيراً من التفاهة. هل تظن أنك قطعتَ نصف الكرة الأرضية؟ هذا وهم، بما أنكَ ستنامُ هذا المساء في غرفة مشابهة للغرفة السابقة بالتفصيل. لقد نشر الناس عبثاً الشراع، وقفزوا من طائرة إلى قطار، ولكنهم لا يغادرون أبداً هذه البلدان الجديدة الكئيبة، التي اقتطعت ليالينا وتسمى «هيلتون»، و«حياة»، و«شيراتون» أو «سوفيتل».

فائدة وجود العائلات

لا يحب السيد أمين أباظة فندق سيسيل. من الصعب التكهن بالأسباب؛ هل مردّ ذلك إلى ذكرى شخصية سيئة في واحدة من غرفه الأسطورية؟ أم بسبب عطر خانق، أم هذه الحسرة التي ترفرف في الهواء، وتثير الحنين إلى إسكندرية الأيام الغابرة؟ ومع ذلك، فقد جذبني من يدي وتبعته.

– لنذهب إلى فندق «المتروبول» الواقع في الناحية الأخرى تماماً من الساحة. صحيح أن الأكل فيه رديء أيضاً، لكننا سنجلس في مكان أكثر هدوءاً.

يملك السيد أمين أباظة جسماً ضخماً؛ ربما لهذا السبب يحظى بالثقة الكاملة للسيد أمبيرور. ربما كان واحدٌ من أجداده يحرس منارة الإسكندرية؟ وهو أيضاً كتلة ضخمة من التهذيب المثير للإعجاب. أمضى أكثر من ربع ساعة، وهو يقدم لي اعتذاره عن لغته الفرنسية (مع أنه يتقنها)، وعن النبيذ الذي اختاره (وهو من النوع الرديء) وعن المطر الذي كان يسقط في الخارج (وقد طمأنته أنني من مقاطعة بريتانيا الفرنسية حيث يهطل المطر بغزارة).

غَادرتْ عائلة أباظة الجزيرة العربية السعيدة حوالي القرن الثالث عشر؛ لسبب مجهول، واستقرت في الدلتا حيث اقتحمت سريعاً مهنة

تدر دخلاً، وهي حماية الحجاج الذين هم في طريقهم إلى مكّة. عملت أيضاً في التجارة؛ من أجل تنمية مواردها التي سرعان ما ازدهرت. كانت عائلة أباظة تنظر بعيداً، وتعتني جيداً بنفسها وتهتم بجيناتها بدقة ومثابرة. وهكذا كانت تُزَوّجُ ذكورها الأقوياء —على فترات منتظمة— الإماء الأكثر جمالاً المتوفرات، مع تفضيل واضح للفتيات القوقازيات. وبهذه الطريقة، جاءت إلى العالم أجسام ضخمة جيلاً بعد آخر، من بينها جسم الشخص الذي يفسح لي مكاناً، وشفتاه تفتّر عن ابتسامة عريضة.

في البداية، هرب أمين أباظة من القطن كما لو كان الطاعون: احترقت أجنحة والده به، فقد كان ضحية التقلبات الحادة للسوق. واضطر لتسديد ديونه على مدى عشرين سنة. وما أن توصل إلى إعادة بناء شركته حتى جاء جمال عبد الناصر ومعه سلسلة اجراءات اشتراكية: تفتيت الأرض، وتوزيعها، وإجبار المزارعين على الاحتفاظ بالموظفين وتأميم التجارة التي أصبحت حكراً لست شركات عمومية.

وجدت العائلة ملاذاً في الوظائف العمومية العليا بانتظار انتهاء الأوقات العصيبة.

بعد ان أنهى أمين دراسته، اختار القطاع المالي أولاً، ثم القطاع العقاري ونجح فيهما. لكن كيف يمكن مقاومة نداء القطن؟ ما أن صدر قانون جديد في عام 1994، يسمح للقطاع الخاص بممارسة التجارة،

حتى اندفع صديقنا إلى الميدان. وبعد عشر سنوات، سيطرت شركته، شركة النيل الحديثة للقطن، على منافسيها جميعاً. وترأس أمين، مديرها العام نقابة مصدري القطن.

هل كانت غلطة الغداء الذي لم يكن طيب المذاق كما كان منتظراً، أم الوضع البائس للاقتصاد المصري الذي لا يزال قسماً واسعاً منه مؤمماً؟ فَقَدَ صديقنا مزاجه المرح. وبدأ يندد بنقص العناية من أولئك الذين يقطفون، وبشكل عام بكسل الفلاحين. يقول لي: «هل تتصور؟ إنهم يعتقدون أنه من غير الممكن قطف المحصول مرتين في السنة!». يعبر عن سخطه من عدم كفاءة المهندسين الزراعيين المكلفين بالمناوبات الزراعية. يستنكر ضعف اليقظة لدى أولئك الذين يتحققون من الجودة... تولدت جميع نقاط الضعف هذه –التي لا تغتفر– من خلال تطبيق الجماعية (سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج) التي ألحقت ضرراً كبيراً بمصر. زد على ذلك أن موظفنا الإداري أصبح يتفق مع هذه الآراء ويرددها.

يشبه فندق «المتربول» بدقة بعض الفنادق الفسيحة المقفرة الواقعة على الجانب الآخر من الستار الحديدي (تشيكوسلوفاكيا، ألمانيا الشرقية)، والتي كنت قد زرتها سابقاً، عندما كنت أقوم بتحقيقات حول المدن الأوروبية التي تقصد للاستشفاء من خلال المياه المعدنية.

يجب أن تكون هناك مصاعب أكثر مما سبق؛ من أجل التغلب على

فردٍ من عائلة أباظة. لا شك أن أفراد هذه العائلة قد واجهوا شدائد أخرى كثيرة منذ أن بدؤوا حياتهم في اليمن.

– ستون قرناً من الحياة في مصر، و أربعون سنة فقط في ظل الإشتراكية...

عادت البشاشة إلى وجهه كما عادت إليه شهيته. حقاً لم تكن جداته القوقازيات يبغضن الحياة على ما يبدو.

يستطيع القول أن المستقبل له من جديد.

ما رأيه في القطن المصري؟ لا يزال الأفضل في العالم. لكن مع المفارقة التالية: لا تشتري السوق المحلية إلا الأنسجة ذات النوعية الرخيصة، ولذلك يوجد طلب على استيراد الألياف الرديئة جداً.

هل هناك منافسة بين القطن، وبين الزراعات الغذائية؟ يجيب صديقنا أن هذه مشكلة مصطنعة، فقد عثر معهد للأبحاث على أنواع تنمو بسرعة، ولا تشغل الأرض إلا قليلاً من الوقت، ثلث السنة تقريباً. وبهذا يتوفرُ مكان كافٍ جداً؛ لزراعة الخضار والحبوب.

ما هي الأسواق المتاحة لهذا القطن المصري الفريد من نوعه؟ إن طول الألياف يعطيها رقّة ونعومة وصلابة أيضاً. تنتج مصر ثلثي الألياف من هذه النوعية، التي تستخدم في مجالات شتى من صناعة الأقمشة الفاخرة وحتى... صناعة المظلات. كما أن مثل هذا القطن يدخل أيضاً في تصنيع الدواليب.

كيف يمكن إحياء الإنتاج؟ يجب التخلّي عن الاصلاح الزراعي، كما لا يحق لوحدة الأرض المزروعة أن تتجاوز الخمسة والعشرين هكتاراً. كيف يمكن في مثل هذه الظروف تحديث، وتحسين المردود، والعثور على مكانة وَسَطَ تنافس عالمي أصبحَ ضارياً؟

– هل تعتقد من الممكن أن يقلب توزيع الأراضي رأساً على عقب؟ قد يساوي ذلك نشوب حرب أهلية.

– يشكّل تطورنا البطيء جداً الخميرة الأولى للتمرد والفتنة. تعتقد السلطات أن بامكانها تجميد الوضع من خلال الإستناد إلى جهاز حكوميّ وظيفيّ مكتظ، قوامه ثلاثة ملايين من الموظفين، الذين يدعمون الحكومة دعماً مطلقاً، لكن هذا السياج الواقي لن يدوم طويلاً.

– يقال إنه في عام 1952، عندما أسقط العقداء (ومن بينهم جمال عبد الناصر) نظام فاروق، كانت خمسة وستون عائلة تسيطر على مصر. إنك تقول عن نفسك أنك ليبرالي، وتريد إحياء نفوذ العائلات! هل لا يزال هناك مكان للعائلة في ظل الرأسمالية الحديثة؟

– في عام 1994، اشتريت صفقتي الأولى من القطن. لِمَنْ سأبيعها؟ استقليت الطائرة إلى سويسرا، حيث التقيت بتاجر جملة كان يعرف عائلة أباظة. لهذا السبب –ولهذا السبب فقط – يسّر لي النجاح.

اختتم العشاء بفنجان قهوة فاتر ورديء جداً. لا يهم بما أن حديثنا لم يكن يدور حول أمر آخر غير السعادة.

– في الحقيقة، قل لي يا سيد أباظة، ما هو سرّ قطنكم؟ لماذا لا توجد نوعية شبيهة به في أي مكان آخر؟

– يجب تقديم الشكر إلى الشمس التي اختارت مصر، من بين البلدان الأخرى جميعها؛ لكي تعطي أفضل ما عندها. أجريت دراسات أثبتت أن القطن يحتاج إلى الحرارة، وخصوصاً إلى استقرار كبير في درجة الحرارة خلال الأسابيع التي ينمو فيها. وفي كل سنة تقدم لنا الشمس هذه الهدية. ربما تستمر في الاعتناء بنا في الليل أيضاً.

– لماذا القطن؟ لماذا تخاض من أجله كل هذه المعارك وتحتمل مخاطر شتى لسواد عيونه؟ ألا تتحسر على المهن القديمة التي عملت بها؟

– تتجمع المهن كافة في القطن، من الزراعة إلى المالية. إن تاجر الجملة الماهر، يجب عليه أن يعرف كل شيء، وفي كل لحظة عمّا يجري في الصين، وأمريكا واستراليا وأوزبكستان. إن تاجر الجملة النشيط، يسترق السمع دائماً إلى ما يجري فوق الكرة الأرضية. ثم...

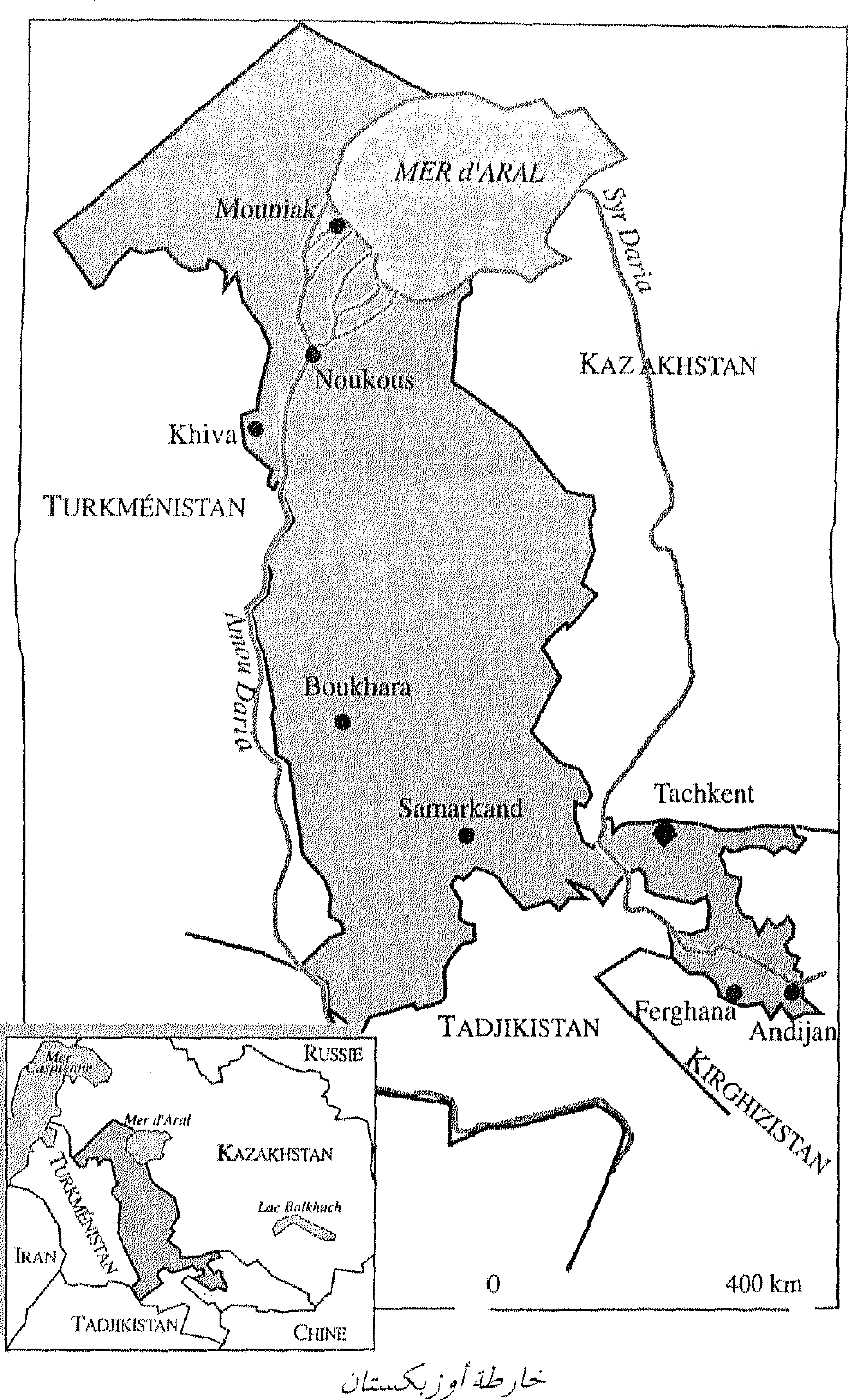
يبدو كما لو أن السيد أباظة أراد أن ينسى جسمه القوي. حاول أن ينكمش على نفسه، ويبتسم كأنه كهل حكيم.

– ثم فإن القطن يحب السلام. عندما يكون القطن بصحة جيدة، يكون العالم هادئاً ومأموناً.

5

أوزبكستان

هدية الثلج



خارطة أوزبكستان

لِنَنْسَ العشاء الكريه الذي قُدم على متن الرحلة رقم IY 252. حقاً إن مثل هذه الموهبة في تخريب الأطعمة يستحق نوعاً من الإعجاب المحيّر: كيف يمكن إغراق باذنجانة في الدّهن إلى هذا الحد، وهي خارجة الآن من ثلاجة التجميد، أي أنها نصفُ فاترة ونصف مُثلّجة؟ كيف يمكن حشو هذه القطعة الصغيرة من المادة البنية المسماة لحمة الحَمَل بهذا العدد الهائل من الأعصاب؟ كيف يمكن قبول تغيّر لون لَبَنِ (الياغورت) التعيس إلى درجة العَفن؟

لا تبالي شركة الخطوط الجوية لأوزبكستان بهذه الانتقادات المعبّرة عن الغيظ والمرارة! فهي تعلم أن المشهد الذي سيطلّ بعد قليل سيجْعَلُها تستميلُ قلوبَ المسافرين. في الواقع، تشرق الشمس فجأة على آسيا الوسطى، ومن الجهة اليمنى تظهر أولى قمم جبال الهملايا. يبدو المنظرُ أشبه ببطاقة بريدية جميلة جداً يستكملها بسرعة درس الصحراء.

ظلّت الطائرةُ تحلقُ لنحو ساعة فوقَ مرتفعاتٍ يميلُ لونها إلى الرمادي، تتبعها موجات من الرمال الصفراء. فجأة شيء ما كالمغارة يتلوى؛ إنه نهرٌ. يَظْهَرُ اللونُ الأخضر من بين قطع صغيرة مزروعة، وبدايات مدن. ومن جديد، لا شيء سوى الرمال، ومرتفعات رمادية تميل أحياناً إلى اللون الأحمر. لا حاجة لمزيد من الكلمات، فقد قيلت النقطة الرئيسة:

لقد وصلتُ إلى مملكة الواحات؛ بلدٌ لا يعيشُ إلا من خلال الريّ.

... وتستمر الدروس، إذ لو كانت شركة أخرى لجعلت طائرتها «البوينغ» تَهْبِطُ في أيِّ وقتٍ، وفقاً للمصادفة العابرة التي تحددها جاهزيةُ المدرّجات. ولكن هذا لا ينطبق على شركة خطوط أوزبكستان، هذه المعلمِّة العظيمة! إنها تتدبر أمرها؛ كي تهبطَ بكَ وَسْطَ جموعٍ من المعتمرين الكهول القادمين من جِدَّة. كانوا يرتدون الأبيض جميعهم، وبيدِ كلٍ واحدٍ منهم صفيحة ماء لأغراض الوضوء. هؤلاء الجدود والجدات المؤمنون والمؤمنات بالإسلام يتسلّون فيما بينهم، يتناهرون، ويتشاجرون كما لو أنهم طلابُ مدرسة ثانوية. مما لا شك فيه أنها رحلتهم الأولى. بعضُهم أضاع جواز سفره، وتركه يسقط من يديه المرتجفتين مرتين أو ثلاثة. بعد إذاعة نداء من خلال مكبرات الصوت، تبين اختفاء ثلاثة معتمرين. أين ذهبوا؟ ذهب الشيوخ الأقوياء البنية يفتشون عنهم في المراحيض. أما الجنود والشرطة فلم يعرفوا كيف يتصرفون مع هؤلاء الجدود المتصابين؟

كان أولئك الجنود يرتدون الزيّ العسكري الروسي الذي شاهدناه كثيراً في الأفلام خلال الحرب الباردة: قميص أخضر وقبعة واسعة بواقية أمامية تحمي من الشمس، لكنها منحنية إلى الوراء، على طريقة أولئك الذين تحيط بهم هالة المجد. بَدَتْ قسمات وجوههم لوهلة، كأنها صارمة وفظّة وأخذت نبرات أصواتهم ترتفع. لكن هذا السخط الظاهري لم يدُم طويلاً إذ أخذوا يرددون: «فَلْيَمُرْ الجميع، اذهبوا

كلكم... عودة سعيدة إلى البلاد، ورمضان كريم!».

لم أكن أنتظر من شركة الخطوط الجوية العزيزة هذه شيئاً أكثر من ذلك. لقد نفَّذت مهمتها التربوية أكثر مما هو متوقع. بالإضافة إلى اكتشافي للصحراء الممتدة في هذه البلاد، تعلمت الآن أن الشعب الأوزبكي لطيف بطبيعته، وأن إسلامه حلو السجيّة، وأن سبعين سنة من الاحتلال السوفييتي تركت آثاراً فيه، ولو على مستوى الملابس.

أصبح بامكاني أن أبدأ زيارتي لوطن ابن سينا وتامرلان، مزوداً بهذه المعالم الأساسية القليلة. زِدْ على ذلك أن هذا الوطن، هو ثاني مصدر عالمي للقطن.

نُظِّم لي لقاءٌ مع نائب رئيس الجامعة؛ كمدخل للتعرف على الواقع الأوزبكي. كانت صورة الرئيس كاريموف موجودة في كل زاوية من زوايا الغرفة الفسيحة. وعليه فقد كان الديكتاتوران ينظران إلى بعضهما بعضاً. جلسنا حول طاولة طويلة ملمعة جيداً. الأوزبكيون من جهة، ومن الأخرى نحن الفرنسيون، وكنا نتبادل عبارات المجاملة المعتادة والكلام الدبلوماسي. وفجأة احمرَّ وجه نائب الرئيس عندما أعلمته الآن بموضوع التحقيق الذي أقوم به.

– آه، القطن!

أجل، إن هذا التكنوقراطي الصلب عاطفي وسريع التأثر أيضاً. عندما كان يروي خريف مراهقته غشت الدموع عيونه:

– آه، حفلات الضحك المجنون هذه في سيارات الركوب الكبيرة! آه، تلك الأخوّة التي كانت تسود في الحقول! آه، هذه الأغاني التي كنا نطلقها عندما يّحُلّ الليل!..

كان يجلس إلى جانبه شاب صغير، مكبوت، هادئ الأعصاب، شديد النظافة، يدوّن ملاحظات على دفتر كبير، ويراقب في الوقت نفسه رئيسه مثلما كانت الحال في الحقبة السوفيتية. حافظت أوزبكستان

على هذا المبدأ: الجميع يراقبُ الجميع...

- كانت تلك الفترة رومانسية جداً!

واأسفاه! تبين بعد التحقيق أن هذه الرومانسية قد فَقَدَتْ سحرها مبكراً.

لجأت أوزبكستان إلى أسلوب التعبئة العامة الموروث من الحقبة الاشتراكية، إذ إن حاصدات القطن باهظة الثمن. لن تجد شخصاً في المدارس، والثانويات، والكليات خلال الفترة: من منتصف أيلول (سبتمبر)، وحتى نهاية تشرين الأول (أكتوبر)، وقد تمتد أطول من ذلك في بعض الأحيان. يذهب الشبان جميعهم الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة، وحتى الخامسة والعشرين إلى الحقول، حيث يشتغلون في القطاف اثنتي عشرة ساعة في اليوم. ومن الجدير ذكره أن الأوراق الجافة تكون قاطعة كحد السكين، أي أن قَطْفَ القطنِ يمكن أن يؤدي إلى بَتْرِ الأصابع. أما الرواتب فهي رمزية (أربعة سنتيمات من اليورو لكل كيلوغرام)، يرافقها طعام هزيل، ومنامات متواضعة في مستودعات الغلال. وفي عطلة نهاية الأسبوع يُسْتَدْعَى موظفو الحكومة، وينضمون إلى الشبان لمساعدتهم. وطالما أن القطن لم يقطف كله، يستمر العمل أحياناً حتى شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، عندما يبدأ الثلج في السقوط غالباً.

الرومانسية 2

في نهاية محادثتنا الودية، استفسر نائب رئيس الجامعة عن برنامجي. سمرقند، بخارى؟ جيد جداً، لا تنس كيفا، جوهرتنا من وجهة نظري. وبحر آرال؟ معك حق، يجب مشاهدة كارثة بحر آرال. أصبحت البيئة واحدة من أولويات حكومتنا.

لم يستطع الشاب الصغير ذو الأعصاب الهادئة من أن يمنع نفسه من هّزِّ رأسه: كان نائب الرئيس يحترم الخط السياسي الرسمي تماماً. وساد صمت ثقيل في الغرفة.

كان يُراد معرفة بقية رحلتي؛ لأنه إذا كان الأجنبي مراقباً، ومرحباً به عن طيب خاطر في غرب البلاد، إلا أنه غير مرغوب فيه بتاتاً في الجزء الشرقي، وذلك منذ 13 أيار (مايو) 2005.

يَسْكُنُ وادي فرغانا أكثر من ثماني ملايين نسمة، ويبلغُ طوله ثلاث مئة كيلومتراً، وعرضه مئة وخمسين، ومُحاصرٌ بجبال عالية. كان هذا الوادي يشكل دائماً جزيرة صغيرة من الازدهار في قلب آسيا الصغرى، ويقال أن المناظر الطبيعية فيه ذات جمال أخّاذ.

يَرْوي الوادي نهر سير – داريا المنحدر من بامير، وعلى التجار جميعهم الذين يريدون المتاجرة مع الصين أن يجتازوه بالضرورة. أسّس

الإسكندر فيه مدينته التاسعة المسماة «الإسكندرية القصوى» وذلك عام 329 قبل الميلاد.

كان يجب عليّ – منطقياً– أن أذهب إلى الوادي لكي ألقي نظرة على حقول القطن الأجمل في البلاد (وتمثل ستين بالمئة من الإنتاج الوطني).

في مساء 12 أيار(مايو) 2005، تجمّع جمهور في الساحة الرئيسية لـ «انديجان»، أكبر مدينة في المنطقة (ثلاثة مئة وخمسين ألف فرد). كان السكان يطالبون باطلاق سراح المسؤولين المحليين الذين تم توقيفهم مؤخراً، وتقدمهم طشقند بوصفهم إسلاميين خطرين. ووفق مصادر أخرى متطابقة وأكثر مصداقية، فإن الأمر كان يتعلق فقط بمتعهدين، هم مسلمون طبعاً مثل بقية الناس، ولكنهم كانوا يطالبون بمزيد من الحرية. توتر الجو وأطلق الجيش النار، وكانت الحصيلة سقوط مئة وسبعة وثمانين قتيلاً، عدتهم السلطات جميعاً مناضلين مسلحين. واستناداً للمنظمات غير الحكومية الموجودة في الميدان، بلغت الحصيلة أكثر من خمسمئة ضحية من بينهم الكثير من النساء، والأطفال ولم يعثر على مقاتل واحد.

أصاب المجموعة الدولية الدهشة بعد بضعة شهور على وقوع تلك الأحداث. وفي الوقت الحالي يندّدُ الرئيس كريموف بمؤامرة غربية – إسلامية (قد تكون بريطانيا والولايات المتحدة قد موّلت هذه

المجموعات الأصولية من أجل زعزعة استقرار الأمة الأوزبكية...).
وعلى النقيض من ذلك، أعلنت روسيا والصين أنهما يؤيدان هذا التشدّد بلا تحفظ. إن بلاد الشيشان ليست بعيدة و«إكس يانغ» ليست دائماً هادئة.

باختصار: لم يعد متاحاً للمسافرين مشاهدة هذه المنطقة «الرومانسية» جداً.

كيف يمكن تحويل مؤمنين مسالمين إلى إسلاميين أفظاظ؟ يبدو أن آسيا الصغرى تمتلك موهبة خاصة في مضاعفة هذا النوع من «المصانع».

علم التتار

في أيّامنا هذه، يتم اجتياز طريق الحرير بالباصات. ها أنا ذا إذن، أنتظر ساعة المغادرة بين رائحة مزدوجة لزيت السيارة المُفَرَّغ، وأسياخ اللحمة المتفحّمة من حولي، آسيا كلها منهمكة منشغلة بنفسها. بحركة حذرة من ذقنه، يشير صديقي الجديد، الدليل المترجم مادامين، الدبلوماسي السابق والحالي، ومستشار الشؤون المعقدة لشركة القطن (د)، إلى هذا أو ذاك من زملائي المسافرين، ويهمس في أذني باسم عِرْقِه.

- هنا، هذا طاجيك، هناك، عائلة قرغيزية، هنالك، ذاك الجالس فوق كومة الصحف قازاك؛ آه هذا بقبعته السوداء، إنه كراكالبك: يظن أنه سيصعدُ إلى الباص ومعه عِجْله؛ إنهم هكذا، هؤلاء الناس يعشقون الماشية. وهؤلاء الكوريون... يا للغرابة! عادة هم يستقلون الطائرة، إنهم أغنياء! يستطيع المرء أن يقول إنَّ المنفى كان مفيداً لهم، إذ بإمكانهم أن يشكروا ستالين.

جَفَلْتُ واستفسرت: ستالين! أي إثم كبير تمكن من ارتكابه في هذه البقعة النائية؟ منذ الأزل، كان كوريون يقطنون في أقصى الجزء الشرقي من سيبريا. كان عددهم حوالي المئتي ألف. كان ستالين يراهم قريبين جداً من أعدائه اليابانيين، وفي نهاية سنوات الثلاثينات من القرن الماضي وَجَدَ الكوريون أنفسهم جميعاً هنا، في أقل من أسبوع. عندما

كان يريد ستالين إبعاد أشخاص، مثلاً ألمان أوكرانيا في عام 1941، أو الأتراك، كان يفكر دائماً بأوزبكستان. هذا لطيف، أليس كذلك؟

– ماذا تقول!

كادَ صديقي «مادامين» أن يصيح بعدما ظلّ حتى تلك اللحظة حذراً، في حين جفل جيراننا.

– أرجوك! أدِرْ ظَهْرك. أرجو أن تسامحني، لكن المدير أعطاني تعليمات أهمها أن أحميك.

– ماذا جرى؟

– لقد نظرتَ إلى امرأة تترية.

– هذه الامرأة التي ترتدي طقماً رمادياً؟ تبدو كأنها محامية، أو مصرفية.

– يا للمسكين! إنها تترية. ما من فرنسي بوسعه أن يقاوم إغراء امرأة تترية. إن هذا يسري في دمهن وفي دمكم. إنني أعرف خمسة منهم. ما أن يصلوا من باريس حتى يتزوجوا من تترية، على الرغم من كونهم غير عزّاب. أخَذَ المديرُ مني وَعْداً أن لا تتعرّف امرأة تترية على السيد أورسينا.

– على رِسلك.. أفي هذا العمر!

– النساء التتريات لا يخشين السنين، بل على العكس.

— كأنها تبتسم لنا.

— ماذا كنتُ أقولُ لك؟ لِنَذْهَبْ.

لم نصعد إلى الحافلة الذاهبة إلى سمرقند إلاّ في اللحظة الأخيرة، وبعد أن تأكد حارسي الشخصي أن أياً من تلك النساء المؤذيات سبقتنا.

تلقيت درسي في علم التتار، وهو فرع – وأسفاه – مجهول جداً من علم الشيطنة، عندما كنا نسير في الطريق، من بين معلومات أخرى عن الإسكندر الأكبر. لنلخّص: هناك فئتان من النساء التتريات: تتريات القرم اللواتي هدأت مشاعرهن الملتهبة مع مرور مئات السنين. لا يزال الاقتراب منهن محفوفاً بالمخاطر، لكن شخصاً يتمتع بأخلاق متوسطة قادر على محاربتهن. بالمقابل الحل الوحيد أمام تترية أصيلة –الفئة الثانية من التتريات– أي: قازانية هو الهروب الفوري.

— هل تعرف قازان؟

أعترف بجهلي.

— قازان هي بلا شك العاصمة السرية الحقيقة لروسيا. نور الله ونار الشيطان، يشعل هناك حريقاً يمحي السكان ولا يخمد أبداً. التترية الحقيقية، التترية القازانية لا تدع فريستها تفلت منها. أينما تهرب تعثرُ عليك. هل تعلم كيف يتم التعرف عليهن؟

أهز رأسي بشكل يُرثى له.

– عندما يَمُدُّ أحدهم إليهن شيئاً، مهما كان حقيبة يد أو صحيفة، فإنهن يختطفنه بيديهن الاثنتين ويضغطن عليه. ألا ترى أنني حسناً فعلت بحمايتك!

السيد أحمدوف

يُجْبِرُكَ السيد أحمدوف على صداقته، إذ يدركُ المسافر الموهوب بأردأ أنواع الذكاء، منذ اللحظة الأولى للمحادثة، ونحن نشرب قدح الترحيب (نوع من عصير البرتقال المحلّى)، أنه مُعَرّضٌ بشدة لأن يُصْبِحَ عَدُوَّه، أو حتى أن يخالفه الرأي. يمتلك السيد أحمدوف الجاذبية الفورية، والمُسلّم بها التي يتمتع بها الأقوياء. وهو يذكّرنا بممثْلنا العزيز المتوفى «لينو فينتورا». يملك السيد أحمدوف أكتافاً تشبهُ أكتاف مصارع حر، ورقبة تشبهُ رقبة رافع أثقال، التي تصبح فجأة رأساً كبيراً ومستديراً، مزروعاً بشعر قصير رمادي، وله أيْدٍ تشبهُ أيدي ملاكم، وعيون سوداء ضاحكة فالتهديد لم يكن يوماً بعيداً عنها.

يُدير السيد أحمدوف، انطلاقاً من الطابق الأول لقصره المُعَرّق بسخاء، لكن الباهت اللون، مزرعة «مدنيات» الجماعية التي تعمل فيها 470 عائلة ومساحتها 2085 هكتاراً، ثلثاها مخصصتان للقطن، والباقي للحبوب. يحاول السيد أحمدوف احتواء نفاد صبره بصعوبة، إذ إنه ينتظر الخصخصة.

يَضْربُ على طاولة الفورمايكا بأصابعه، وفي الوقت نفسه يلعب بآلة تصوير مصغرة من طراز سوني.

– الشيوعية ضارة بالزراعة. فيما سبق كان «الكلخوز» موجوداً

هنا. لقد تقدمنا كثيراً منذ ذلك الوقت. يجب مواصلة التخلّص بسرعة أكبر من بقايا زمن الروس.

لا شك أن عصير البرتقال قد ضاعف من جرعة الشجاعة لديّ، فتجرأت على الاستفسار عن هذا التقدم الممتاز:

ما هو الفرق بين الكولخوز و «المزرعة الجماعية»؟

كان المترجم يتكلم بصوت متهدج عند وصوله إلى نهاية السؤال.

يزأر السيد أحمدوف فَرِحاً كالأسد، وكاد أن يعانقني. يُحسّن جهلي من مزاجه اللطيف في الصباح، كلما كان ذلك ممكناً.

سابقاً، خلال الحقبة الروسية الملعونة، كان الفلاحون عبارة عن موظفين فظين: كانت كل مجموعة تشتغل ضمن فرقة، وتقوم بالمهمة بعد الأخرى، وتنتهي من العمل في حقل بعد الآخر. لم يكن هناك أية استمرارية، أو أي اعتزاز بالنفس. اليوم، العائلة تشكّل الوحدة القاعدية. تعْهِدُ الإدارة إليها أراضٍ لمدة عامين. وسوف يتجدد العقد إذا تحققت الأهداف.

– «التغيير الحقيقي» يستنتج السيد أحمدوف، «هو الانتخاب». من قَبْل، كان مدراء الكلخوزات يعيّنون بأمر من الحزب الشيوعي.

ينقلب من فوق مقعده.

– إنني مُنْتَخَبٌ من خلال العائلات. يَتْبَعُ ذلك قصة طويلة مفرحة،

هي عبارة عن سرد لوقائع حملته الانتخابية. كان منافسه مهندس زراعي. لم يكن السيد أحمدوف يملك، منطقياً، أية فرصة للنجاح بالرغم من كونه معروفاً، ومشهوداً بقدراته منذ زمن طويل؛ فهو عبارة عن مدرس جغرافيا عادي في المدرسة المحلية. لكن مصير القضية كلها تحدّدَ في اليوم الأخير من خلال مواجهة عامة. كانت العائلات الأربعمئة والسبعون مجتمعة واتهم المهندسُ الزراعي الجغرافيَّ أنه يشرب (الكحول).

نهض صديقنا واقفاً: «أجَلْ أنا أشرب! إنني أشرب في جميع الأيام ومع كل واحد فيكم. أشرب دون أن أخفى ذلك، على النقيض منكَ أنتَ أيها المهندس الزراعي الذي يشرب هو أيضاً وبالمقدار نفسه، لكن وحده. أنت شارِبٌ يكذب. سيتولّى مزرعتنا الجماعية دائماً مدير يشرب الكحول، بما أننا جميعنا نشرب، لكنها ليست بحاجة إلى شارب كذّاب!».

رفعنا كؤوس عصير البرتقال مثنى وثلاثاً لكي نُحييّ مأثرة البلاغة هذه، وهذا التقدم الهام للديمقراطية. لكن البهجة التي أيقظتها ذكرى هذا الانتصار لم تدم طويلاً لدى السيد أحمدوف. تملّكه نفاد الصبر من جديد:

– يوجد لدينا فلاحون يعملون بصفة شخصية. نؤجرهم نحو عشرين هكتاراً لمدة خمسين سنة. هذا جيد! يجب الاستمرار به ويجب

تسريع الحركة. إن طاقة مثل طاقتي لا تستطيع أن تعبّر عن نفسها من خلال الجماعية.

انظر؛ يريني مفكرته حيث كتب على عجل في كل صفحة منها مخططات تمهيدية عامة لمهندسين معماريين.

– إنني شغوف بالأبواب. قياس هذا الباب أحد عشر متراً. سيتم تركيبه العام القادم عند مدخل المقبرة. عندما يملك المرء طاقة كهذه، لا شيء يكفيه لا الفتيات ولا الكحول. تكرّر زوجتي القول أن هذا مرض. أقتربُ من النافذة. ما رأيك بهذه المنحوتة القائمة وسط البركة؟

لا أرى في البداية سوى الكتابة المنقوشة الضخمة التي تطلّ على موقف السيارات:

VATANNI

SEVMOQ IYMONDANDIR

(«حبُ الوطن فريضةٌ»)

لاحت لي التحفة الفنية بعد ذلك من بين القصب، إذ تمثل امرأة شابة تحمل جرّة، كأنها تبدأ حركة تمايل واحدة، يستر خمار أخضر صدراً مكتنزاً بصعوبة ويترك بطنها مكشوفاً.

– جميلة، أليس كذلك؟ أستطيع أن أصارحك فأنت فرنسي ذوّاقة: لقد أخذتُ عشيقتي الأخيرة «دانيا» نموذجاً (موديل). إنها مشكلتي المزمنة المتعلقة بالطاقة. لم ينته العمل بعد بالتمثال. أفكر بنبع ماء يسيل بين مكانين، لكني تخليت عنه. تعودُ ملكية البركة إلى المزرعة الجماعية. أفضّل التريث حتى إتمام عملية الخصخصة.

هكذا سينقضي النهار من خلال القيام بزيارات للعائلات العاملة التي تنهي قطف القطن وتنظف جداول الري. يترافق ذلك كله دائماً مع الاعتراف الذي يدمي القلب عن الطاقة الفائضة لديه.

– ومع ذلك إنني أناضل؛ أؤكد لك ذلك. إنني أبذل جهوداً كبيرة. ذات يوم سأطلعك على أشعاري. هل تعلمْ أنني سأقدمُ أطروحتي للدكتوراه في الشهر القادم؟

تنتفخ أوداجي زهواً لأنني أنا أيضاً أحملُ شهادة الدكتوراه. يمثل هذا فرصة جديدة لكي نتصافح باليد طويلاً. تعيش فرنسا! تعيش أوزبكستان! أستفسر عن موضوع أطروحته، فيجيبني بأنها عن «زراعة القطن في بيئة مالحة» فأصفق إعجاباً. يعيش القطن! تعيش الخصخصة!

أترك صديقي الجديد مبتهجاً، وأنا أترنّم أغنيتي المفضلة: المجدُ للجغرافيا والمجدُ للجغرافيين. الجغرافيون أفضل قادة يمكن تقديمهم لعالم المستقبل!

يسكتُ المترجم مادامين ويبتسم. بعض الابتسامات تغيظ عندما تستمر طويلاً. يتم استعجالها؛ لكي تعطي تفسيراً لها.

– السيد أحمدوف جغرافي؟ هذا مؤكد. لكنه كان شيوعياً أيضاً، ولم يكن شيوعياً عادياً: لقد كان مسؤول الحزب في المدينة. لا يكفي اعتراف المرشح بتناوله الكحول؛ لكي يفوز في الانتخابات.

هدية الثلج

– لِنَصْعَدْ إلى الطابق الثالث، يقول السيد أحمدوف. يجب أن نكون في مكان مرتفع من أجل فهم المزارع.

هل أُعجبت بأوزبكستان؟

بَدا المشهد كما لو أن هناك شجرة من ماء راقدة وسط الحقول، ومعها قناة بدلاً من الساق، توجد جداول بدلاً من الأغصان، تنقسم إلى أجزاء، ثم تتوزّع إلى أجزاء أصغر، فأصغر...

– تهطل المياه في بلادكم على هيئة أمطار، لكنها هنا تسيلُ وتجري: المياه هدية الجبال. لولا الثلج لما وُجدت أوزبكستان. لننزل ثانية الآن. سوف تشاهد العمل.

لا يوجد شيء أكثر انبساطاً من حقل أوزبكي. المياه مُغرمة بالخط الأفقي فقط، ما أن يَظهر أقل منحدر حتى تتجمع في زاوية وتترك الباقي مكشوفاً.

يجب أن يولد الفلاحون وفي رؤوسهم مقاييس للأرض المستوية. الحقول الأوزبكية هي الأكثر تهوية في العالم. هناك قول مأثور للبستاني الماهر: «عَزْقٌ واحد يساوي سقايتين»، وهو ما يطبقه المزارعون حرفياً. كلما كانت ذرّة التراب ناعمة، كلما تسرّبت مياه أقل إلى أعماق الأرض،

إذ إن القطن الأوزبكي هو أكثر أنواع القطن شراهة للماء.

– أرضنا مالحة، يجب أولاً غسلها مرتين. ثم تروى النبتة أربع مرات. لهذا السبب قطننا هو الأفضل في العالم: لا يعاني القطن أبداً من العطش منذ زرعه، وحتى تَفَتُّحُ زَهْرِهِ؛ ينمو دون أي توتر، مثل طفل في بلدٍ ينعم بالسلام في إطار عائلة واحدة.

يتفلسف السيد أحمدوف ويتسلّى. إنه يعرف جيداً أني سأطرح عليه – كرجل بيئة غربي بسيط – السؤال الذي يثير الغضب. لكن ما الذي يمكن أن يثير غضب السيد أحمدوف؟ يسترسل ويصف لي مفصلاً «التدرج الممتاز للازهرار» و«اللدانة الاستثنائية للألياف»، وغيرها الكثير من تجليات القطن الأوزبكي المعترف بها عالمياً، المحتفى بها عن جدارة.

فجأة يقهقه ضاحكاً، ويلقي علي الرقم: عشرة آلاف متر مكعب.

– لكل هكتار؟

– لكل هكتار. عشرة وأحياناً اثنا عشر! أحاول أن أتمثّل الكتلة: مكعبُ ماء ضلعه متر واحد مسكوب على كل متر مربع من الأرض، أو طبقة ماء منتظمة بعلو متر واحد.

يروي لي السيد أحمدوف عن زيارة خبراء من البنك الدولي.

– جاؤوا السنة الماضية، وأرادوا أن يفرضوا علينا جعل الفلاحين

يدفعون ثمن الماء.

أريه صنبوراً مفتوحاً أمام المزرعة.

– على الأقل لا نستطيع أن نقول هذه المرة أن البنك على خطأ. لا يوجد وسيلة أفضل للتوفير غير أن تجعل الناس يدفعون ثمن السلعة.

– ولا يوجد أيضاً وسيلة أفضل من أجل تفجير ثورة. أنتم الفرنسيون تحبون الثورات، أليس كذلك؟

نجحت هذه المرة في أن أثير غضب السيد أحمدوف، فبدأ يزمجر.

– نحن لسنا بحاجة لتلقي دروسٍ من أحد! مياهنا لنا. ذات يوم سنغيّر النظام إذا تطلّب الأمر. لقد كنت في إسرائيل، ورأيت تقنية الريّ بالتنقيط. إنني صديقٌ حميمٌ لإسرائيل.

بعد ذلك، تذرّع السيد أحمدوف بموعد طارئ مع (الحوكم)، أي محافظ المنطقة صاحب النفوذ القوي، وتركنا فجأة وسط الحقول.

أومأ إلينا فلاحون، وجلسوا يتناولون طعام الغداء على سطح خشبي مرمياً على عرض قناة. كانت أوراق شجرة توت هرمة جداً تحميهم من الشمس. قدّموا لنا الخبز المستدير وأسياخ اللحم. حسب معرفتي، ما من أحدٍ في العالم أكثر وداعة وكرماً من الفلاح الأوزبكي.

بعد قليل، غفا مادامين، وأصبحت لا أفهم ما يقال لي لأنني كنت مجرّداً من مترجمي. كنا نتبادل النظرات والابتسامات ونهز رؤوسنا.

لقد توقف الزمن في هذه الواحة الصغيرة جداً. قبل ألف سنةٍ جاء مسافرون من الصين ومعهم حرير وتوابل محمولة فوق سرج خيولهم، أو على جنبيّ إبلهم، وتبادل هؤلاء المسافرون الوجبة نفسها مع فلاحين مشابهين. أسمع المياه وهي تتمتم تحت الخشب. بدوري، أغلقُ عيني؛ يبدو لي أنني أحلّق فوق ثلوج الهملايا.

درس تمهيدي قصير حول
تداول النقود في آسيا الوسطى

إذا أخذنا بالحسبان أن المحصول يمكن أن يكون جيداً في سنة ما وسيئاً في أخرى، فإن أوزبكستان تنتج مليون طن من الألياف سنوياً. تولي الدولة عنايتها بكل شيء يتعلق بهذا القطاع. تشتري كميات القطن جميعها من الفلاحين بسعر منخفض، وتبيعه بسعر أغلى مرتين إلى ثلاث مرات في السوق العالمية.

من يستفيد مِنْ هذا الثمن؟

أولاً: الميزانية الوطنية. ففي بلد لا تُجبى فيه الضرائب (لا تتخذ السلطات أي إجراء من أجل جبايتها فعلياً)، يشكل بيع القطن أوُلى الموارد، إذ تبلغ نسبته أربعين بالمئة من الواردات العمومية. لهذا السبب لا تتساهل الإدارة، ولا تقبل أي عجز، أو تقصير في تنفيذ خطط الإنتاج، وإلا فإن بقاءها على قيد الحياة يكون في خطر. ولهذا السبب أيضاً، يكون الفساد أقل حضوراً ربما في هذا القطاع مقارنة بما هو عليه في قطاعات أخرى. إن الحاجة (لحد أدنى من السيولة) يساوي (التظاهر) بالتزام الأخلاق.

لكن الغباشة، أوغياب الشفافية، هي أُمُّ جميع الرذائل –كما يعرف

الجميع– وهي تنقلب إلى ليل أسود في دوائر طشقند العليا. ولذلك فإن مورد إثراء كهذا لا بد، أن يحوّل بعض الناس إلى محظوظين. حينئذ يطرح السؤال:

ما هي حصة الفلاح من هذا الذهب الأبيض الذي ينتجه، أي حصة الإنسان الأكثر بعداً عن أولئك الذين يعيشون «فوق»؟

قبل الإجابة، لا بدّ من خروج عن الموضوع يتمثل بجولة في النظام المصرفي الأوزبكي. إن الواجب الأول الدائم لهذا النظام، هو الاستجابة لأوامر الإدارة. إذا وجدت هذه المؤسسة العمومية، أو تلك (وزارة، رئاسة) نفسها فجأة بحاجة ملحة إلى الأموال، يتلقى مسؤول هذا المصرف، أو ذاك مكالمة هاتفية تحمل نبرة التهديد، ومفادها أن عليه تحويل مبلغ... إلى تلك المؤسسة خلال ساعتين. يقوم المسؤول بالتنفيذ تحت طائلة العزل من وظيفته، إذ إن عميلَ ذلك البنك يجدُ الشباك مغلقاً عندما يأتي لطلب سحب مبلغ من حسابه. يقولون له «إنه لأمر مؤسف، لكن خزائننا فارغة».

يمكن للمرء أن يفهم الآن، لماذا يفضل الأوزبكيون الاحتفاظ بمقتنياتهم في منازلهم؟ ولماذا تجد القضايا الضريبية صعوبة في التنفيذ؟ فأغلب المعاملات التجارية والعقود تتم من خلال النقود. إذا أراد أحدهم أن يشتري شقة فإنه يأتي بحقيبة مليئة بالأوراق النقدية. ومع مرور الأيام، أصبحت العمليات عسيرة ومتعبة إلى درجة لم يعد معها

للعملة المحلية «الصوم»، قيمة تذكر: دولار واحد صغير يساوي تقريباً ألف ومئتي «صوم».

لنعد إلى القطن.

إذا كانت الدولة تشتري القطن بسعر منخفض من الفلاحين، فإنها تجد نفسها ملتزمة بدفع المبلغ على حساب، في البنك الزراعي الوحيد المسمى «أساكا». يا لتعاسة مديره! لا يستطيع – مثل زملائه الآخرين – أن يرفض الطلبات الرسمية الوطنية أوالإقليمية. لقد أدّتْ هذه «الاستدانات» إلى إفراغ الحسابات سريعاً. وحينذاك ينتظر الفلاحون شهوراً، وأحياناً سنوات قبل أن تدفع أجورهم.

على المرء أن يكون أوزبكياً، أي متمتعاً بأكبر قدر من صفات التساهل والمهاودة، ومتعوداً على تحمل طغيان الأقوياء منذ عهود التاريخ السحيقة؛ لكي يقبل هذه الخيانة الوظيفية المرادفة للاختلاس –في الواقع– دون أن يتمرّد.

فليمتّنع الشخص الذي لا يطيق الانتظار عن القيام بأية رحلة. كل رحلة تستكشف البلاد من حيث الزمان والمكان. إن تصنيفاً استقصائياً لانتظار المسافر جديرٌ أن يُجَرَّب. ولكي أشارك في هذا العمل العظيم، أقترح تمييزاً أولياً بين:

1- الانتظار الصامت. في هذه الحالة، لا يكون القطار المتوقع، أو الحافلة، أو السيارة، أو الباخرة موجودة. ولا يكون أحد قادراً، أو راغباً في أن يَجلبَ لك أقل معلومة. يُنظر إليك من طرف العين، وتَصْدُرُ ابتسامة سخرية منك بلا شك. وبما أن الوقت لا يمر فإنه يدوم طويلاً. علينا أن نعترف أن هذا الصنف من الانتظار هو من النوعية الرديئة، ويمكن أن يقود إلى بعض الاضطرابات المتدرّجة في المزاج (الغيظ، إثارة الأعصاب، السخط، الغضب).

2- الانتظار المتَكَلِّم: يَشْرَحُ لك أحدهم على فترات منتظمة (أو غير منتظمة) سبب الانتظار الذي هو عذر في الوقت نفسه. ولهذا يتبين غالباً أن هذا الانتظار، المسمى «المتكلّم»، لذيذ. ففي حين أن بعض الأعذار محزنة بابتذالها (أب مريض أو ضجر عادي)، فإن أعذاراً أخرى تبهج بسبب قدرتها على الاختلاق، كمثل ما وقع -في هذا الصباح- 21 تشرين الأول (أكتوبر) في المدينة

الجميلة بخارى.

كان يتصل بي السائق – المفترض أن يقودني إلى كيفا – من ساعة لأخرى ويقول: «عفواً. السيد رسينا، لقد أخطأت في اختيار نوع الزيت»، أو «عفواً، السيد رسينا، محطة البنزين لا ضمير لها، لقد ملأت لي خزان السيارة ببنزين رديء. هذه ليست غلطتي»، أو «السيد رسينا، نحن في شهر رمضان الذي تحلو فيه الصلاة، والصلاة ثابتة ورمضان لا يحب الرحلات»...

مَنْ يجرؤ على الاحتجاج على رمضان بصوت عال؟ مَنْ يجرؤ على المطالبة بالسير على طريق الحرير هذا بأقل سرعة ممكنة، إذ كانت تَقطع قوافل التجار، حتى عهد قريب، المسافة بين سمرقند، وبين بخارى وحدها خلال أسبوع؟

«الحوكم» و«التوي»

أوزبكستان مقسمة إلى مناطق، وعلى رأس كل منطقة يوجد «حوكم» (hokim) يعيّنه الرئيس كاريموف، ويخضع له فقط، ويخدُمه بطريقة عمياء. لا يمكن الحصول على شيء دون إذن «الحوكم» الذي يستقوي بهذه التبعية، ويحكم بالتالي كدكتاتور في دائرته. كل إذن من الحوكم يقدّر بمبلغ من المال، باستثناء القطن الذي يفلت بصفة عامة من صفقاته. لا يمكن المزاح مع الذهب الأبيض الذي دونه تموت البلاد.

إذا كان «الحوكم» هو محور كل منطقة، فإن «التوي» هي مهنة نسج الروابط الاجتماعية. كلمة «توي» تعني «زواج». لكن تبادل الموافقة والرضى بالزواج الذي يجري عندنا ويُصفِق له بعض الأصدقاء الحميمين لا يمت إلاّ بصلة واهية بـ «التوي» السائد في آسيا الوسطى.

«بتنياك» بلدة صغيرة بنى فيها السوفييت مصنعاً ضخماً كانوا يخططون لصناعة طائرات عامودية فيه. لكن التاريخ قرر أمراً آخر، إذ تحولت المنشآت لإنتاج الجرارات.

نحن في قلب خوريزم، المنطقة الزراعية الغنية حيث كان يعيش الـ Scyths السكيث، هؤلاء الفرسان رماة السهام الخطرين. واليوم هي عبارة عن فسيفساء رائعة من الحقول الصغيرة. يؤمّن الري بواسطة سد «ثويامويون» الكبير (كلمة ثويامويون تعني «الجمل»؛ وللجمل

سنامات وقعور، أليس كذلك؟ أي: مناطق عالية، وأخرى منخفضة مثل مياه نهر آمو – داريا وفقاً للمواسم).

كنت أتناول طعام العشاء عند فلاح من القطاع الخاص ثري، لديه ثلاثون هكتاراً. وصل ابن عمه الفلاح أيضاً من القطاع الخاص ولكنه فقير (يزرع حديقة من هكتارين ويقول: مَنْ سيشتري التفاح منّي؟ كل واحد هنا لديه شجرة تفاح في حديقته). يدعوني الفلاح الفقير إلى حفلة زواج ابنه يوم الجمعة القادم. إنه يحضِّرُ لهذا الحدث منذ سنة، ويوفّر النقود منذ عشرين سنة. «لحسن الحظ أن أفراد عائلتي كافة سيشاركون في حفلة الزواج. خسارة أن تُفوِّتها! هل شاهدت الساحة التي يجففون فيها الآن الأرز؟ سيتناول ستة مئة شخص طعام الغداء فيها. وسيكون هناك خمسة فرق أوركسترا. يحبُّ الأزبكيون الموسيقى كثيراً، وعندما نحب الموسيقى فإننا لا نحب أن يتوقف عزفها...»

يظل الزواج قضية تهمُّ الأهل، إذ يحقّق هؤلاء عن العائلات، و يحلمون بعقد تحالفات اقتصادية، وبمضاعفة حجم الملكيات. وعندما يحددون خيارهم يتعارف الشبان الذين يمكنهم رفضه. لكن الطاعة والانقياد ينتصران بصورة عامة. وهنا يُبدأ في تنظيم «التوي». سوف يَدعو رَجُلٌ متنفّذ عشرة آلاف شخص، فبما أنك دُعَيْتَ، فإنك ستصبح مدعواً. وهكذا ستمضي حياتك من «توي» إلى «توي» وسيكون لديك خلالها متسع من الوقت لإقامة الاتصالات الأكثر فائدة. وهكذا، بفضل هذه «العائلة» المتسعة المتضامنة باستمرار، والمعاد تنشيطها دائماً،

سيكون بمقدورك أن تتحمّل بصعوبة أقل الحِداد، والمرض، والكوارث المناخية... والعادات السيئة لِـ «الحوكم».

أن تتسلط فكرة على إنسان، ويصبح مهووساً بها إلى حد الجنون لهو أ مر عظيمٌ يستحق التمجيد! وسواء أكان الهوس الذي يصيبك يتعلق بأمور الجنس أم جمع الطوابع ودراستها أم أي مجال آخر، فإنه يقودك إلى أماكن بعيدة الاحتمال، وإلى الالتقاء بشخصيات غالباً ما تكون مثيرة، لا يخرج هَوَسي بالقطن عن القاعدة فأنني مدين له بأمور تثير العجب والانبهار.

ما عدا شغفي بـ «جوسيبيوم» (Gossypium)، أتساءل: ما هي القوة التي كان بامكانها أن تنتزعني من «كيفا»، «لؤلؤة الواحات» لكي تقودني إلى هذه المدينة المرعبة التي يطلق عليها اسم «نوكوص»؟ تقع هذه وسط الصحراء، وهي عبارة عن مزيج مركّز من تنظيم المدن السوفييتي، أو بتعبير آخر تشكيلة (كوكتيل) لا يمكن تقليدها من الشوارع المسرفة في عرضها، والمباني الخَرِبَة، وحظائر السيارات، والساحات الفسيحة المغروسة بمنحوتات تمثل البطولة...

أما المناطق المحيطة فهي أسوأ من ذلك، إذ كانت مهمة «نوكوص» تزويدها بالمياه الضرورية من أجل نمو القطن.

تقنعك زيارة شبكات الري التي تقع نوكوص في مقدمتها، أن وجود نهر في آسيا الوسطى ليس أمراً جيداً. مسكين نهر «آمو– داريا»!

هل كان سيتحمس للانحدار من مسقط رأسه «بامير» بهذا القدر، لو أنه كان يعرف المصير الذي ينتظره في السهل؟ تُساء معاملته في بخارى، ويقوم الناس هناك بحرفه عن مجراه ويشفطونه. أما هنا فهو مسدود محول ومُرَحَّل، ومقطع، وممزق، ومكمّم ثم محرر؛ ومن جديد مجزأ، ومهان، ومستعبد.. على امتداد منشآت ذات ضخامة ومهارة يؤديان إلى الإحساس بالدوار. سوف يتسلق المرء واحدة من الصخور التي تشرف على الموقع؛ من أجل مشاهدة منظر أجمل. بنى المتحمسون لزرداشت أبراجاً عريضة فوق بعض هذه الصخور؛ للاحتفاء بالصاعقة. أما عيوننا، فكانت تهتم بالوادي فقط. كانت ترى فيه طموحاً عملاقاً محفوراً في الأرض على مدى النظر، ألاَ وهو الانتصار على الصحراء. ولدى نزولنا من هذه المرتفعات بدأنا بالتساؤل فيما إذا كان القطن يقود إلى الجنون في بعض الأحيان.

تخيّلْ العودة إلى «نوكوص» عند حلول المساء، وذلك البحث المضني الطويل عن مطعم. أحد المارة المسرعين يشير إليك إلى «نادي شيراتون». وعندما تذهب إلى العنوان المذكور تلاحظ أن الباب مغلق. لكنني لاحظت في النهاية زراً أبيض مشدوداً كبرغي مائل فوق إطار أشبه بجرسٍ صغيرٍ. يتقدم شخص ويظن المرء أن الخيال المتحرك له علاقة بالحب، والمضيفات يحضّرن أنفسهن خلف الكواليس. يدب الحماس ونهتف: تعيش فرنسا! لكن شيئاً من ذلك لم يكن موجوداً. كان الناس يأكلون فقط، وهناك طبقان متاحان دون تمييز بينهما: السباغيتي، أو

لحم بقر مطبوخ على الطريقة الروسية (Strogonoff).

وفجأة تدنو قصة من الطاولة المجاورة. يروي رجل أوزبكي بلغة إنجليزية ركيكة حياة إيغور فيتاليفتش سافيتسكي إلى سائحة ناجية من سنوات السبعينات، (تلبس قميصاً وردياً وشعرها مجدول بضفائر).

ذات يوم من سنوات العشرينات، والثلاثينات من القرن الماضي كان هناك عالم آثار شاب من موسكو، لكنه كان رساماً أيضاً. اندلعت الحرب عام 1941، لكن وضعه الصحي السيء أتاح له المجال لتجنّب الذهاب إلى جبهة القتال. وَصَل إلى سمرقند، وهناك استحوذت عليه أضواء أوزبكستان (لا تنسى أنه رسام). عثر على سكنٍ له، وبعدها بوقت قصير بدأ مهمته. كان يهيمن على الثقافة في موسكو شخص يدعى «أندريه الكسندروفتش جدانوف» الذي ابتدع «الواقعية الإشتراكية» وبموجبها كان يجب على الفنان أن يتخلى عن فرديته البرجوازية الصغيرة؛ من أجل أن يشارك في الثورة، أي أن «الإبداع يجب أن يكون من أجل الشعب». أما أولئك الذين كانوا يرفضون هذا المبدأ فقد كان محكوماً عليهم أن يعيشوا في الخفاء (أي في الشقاء)، وغالباً ما كانوا يتعرضون للاضطهاد. الفكرة التي كان يحملها ايغور فيتاليفتش تتخلص في استقبال أعمال هؤلاء المحظورة، في آسيا الوسطى حيث يمكن حمايتها وهي على مسافة بعيدة من موسكو.

على مدى ثلاثين عاماً، كان إيغور فيتاليفتش سافيتسكي يبحث عن

الفنانين والأعمال الفنية. كان يذهب إلى شقق قذرة، وضواح موحشة، و قرى منسية، ويلتقي بالفنانين أو بأراملهم، و يشرح مشروعه. كانت تفتح له الغرف الصغيرة والخزائن، وتعهد الأعمال الفنية إليه. وفي عام 1966 تم تعيينه مديراً لمتحف هذه المدينة، «نوكوص» إذ أصبح للمتمردين دارتهم.

توفي إيغور فيتاليفتش سافيتسكي عام 1984 وبالإضافة إلى التحف الأثرية، أو الفولكلوريه جمع طوال حياته 7452 لوحة فنية، و25223 من الرسومات، و1322 منحوتة. صفقت المرأة الشابة ذات القميص الوردي.

أما أنا، فقد كنت في قرارة نفسي أقدم اعتذاري إلى «نوكوص»، إذ كانت هذه المدينة القبيحة جداً، هي الملاذ الوحيد الممكن للفن.

*

* *

تحمل المديرة الحالية اسماً جميلاً هو «مارينيكا بابورازاروفا»، و تجد صعوبة في تعليق اللوحات. كيف يمكن الاختيار بين هذا الكم الكبير من الأعمال الرائعة؟ بعض هذه الكنوز يصعد إلى الدور الثالث، حيث يقيم هناك لبعض الوقت مستنداً إلى حائط، ويلتقي بالجمهور ثم ينزل إلى الأقبية. ثم تستبدل بأخرى؛ لأن لكل لوحة دورها.

في يوم زيارتي كانت تعرض لوحات تكعيبية مدهشة للفنان

«بوبوفا» (مؤرخة في 1916 و 1917...)، وأيضاً لوحات متجانسة ملونة جداً لـ «أوفيمستيف» (قريب جداً من ماتيس)، وشفشيتنكو، وتاراسوف، وسردان، وتشيغوليف. تروي لي «مارينيكا» أن مسؤولي جميع المتاحف الكبرى، يسافرون إلى نوكوص، وهم يحملون معهم عروضاً مالية مغرية، غير أنها لن تتنازل عن شيء. ومع ذلك تنقصها الإمكانيات إذ إن لوحات بوبوفا معلقة على قضبان معدنية بخيوط بيضاء.

في عمق القاعة ينظر ثور إليك، عيناه سوداوان مدورتان، وقرونه رشيقة كما لو أنه ظبي. إنه يَرفُس ويحضّر نفسه للهجوم. خلفية اللوحة زرقاء، واسم الرسام «ليسينكو». توجد معلومات عن حياته مطبوعة على بطاقة ملصقة في أسفل اللوحة على الجهة اليمنى، وهذه المعلومات تجعل قلبك ينقبض. الأولى تتعلق بإقامته الطويلة في مستشفى الأمراض النفسية؛ بسبب «إنحرافات في العلاقات مع الواقع». والثانية هي علامة استفهام. ولد «ليسينكو» عام 1903. وطبعاً لا علاقة له بـ «ليسينكو»، الآخر عالم النبات، والمنظّر الستاليني حول وراثة الصفات المكتسبة. رَسَم ليسينكو رائعته الفنية «الثور» عندما كان يبلغ العشرين من عمره؛ أما تاريخ وفاته فهو غير معروف.

المرحوم بحر آرال

تصعدُ الطريقُ بخط مستقيم نحو الشمال، ومنذ البداية لا شيء يتغيّر، فالقطن يعقبه القطن في حين تقطف النساء والأطفال الثمار في الحقول. أما الرجال فهم مشغولون بمهمات أخرى، إذ يسوون قطع أرض أخرى، ويحفرون الجداول ويرممون السدود: إنّهم يهيّؤون الأرض قبل وصول المياه القريبة؛ لأن القنوات موجودة في كل مكان، وبكل الأحجام، من الجدول وحتى شبه النهر. في بعض الأحيان تتجاوز بعض القنوات قنوات أخرى، وبين الحين والآخر تلوح حقول قمح؛ لتؤكد أن الحبوب شقت طريقاً لنفسها، وبدأت تنمو في بلد القطن هذا.

فجأة تبدو للعيان عمارات سكن شعبي، ومصانع ضخمة مهجورة، وصروح عظيمة في وسط نقاط دائرية ينتشر من حولها قول مأثور بليغ للرئيس كاريموف: «يجب أن يحب الإنسان وطنه أكثر مما يحب نفسه»، «الحاضر يبني المستقبل». ها نحن في مدينة «كونغراد».

كان الـ «كاراكالباك» («رجال القبعات السوداء») بدواً مربين للحيوانات، ولم تكن تروق حركتهم الدائمة لستالين الذي قرر بناء هذه الحواضر الكئيبة: نوكوص و كونغراد؛ من أجل مساعدتهم على الانتقال إلى التحضّر.

كان «الكاراكالباك» يمقتون العمل الصناعي، ويكرهون زراعة

القطن، فامتثلوا للأوامر؛ لأنه لم يكن لديهم خيار آخر، لكنهم لم يتخلوا أبداً عن شغفهم بقطعان الماشية. آنذاك كانت الأبقار، والماعز، وحتى الإبل تسكنُ كل واحد من المنازل المنخفضة للمدينة، وتتنزّه حيثما يحلو لها في جو من التعاطف العام. منحت هذه الفوضى المرافقة لرائحة روث البقر القوية «كونغراد» سحراً غير كاف نهائياً؛ لإغراء المرء بالبقاء فيها، ولو لربع ساعة إضافية.

هذه المرة، انتهى الأمر بالقطن إلى الاستسلام؛ صحيح أن بعض المزارع الجماعية لا تزال تتعارك هنا أو هناك؛ من أجل توسيع الجبهة البيضاء، لكنها تفعل ذلك دون حماس كبير، ومن أجل المحافظة فقط على الروح الريادية.

دخلنا إلى مملكة اللون الأصفر: الأصفر الشاحب للقصب (البوص)، والذهب الفاقع للأشجار الصغيرة التي هي ولا شك من بنات عمومة أشجارنا المسماة «جينكو بيلوبا». تغرب الشمس وتصبح السماء قاتمة كما لو أنها تريد أن تعطي فرصتها المواتية إلى الألوان. كانت بهائم بنّية ترعى بعيداً فوق بضع تلال ترافقها أشباح صغيرة. أيها الأعزاء رجال القبعات السوداء: لقد تركتكم الإدارة أخيراً تنعمون بالهدوء هنا.

لقد شاهدت عنفاً كثيراً يُمارس منذ بضعة أيام ضد الناس والمناظر الطبيعية... تملأ هذه الطمأنينة القلب، ويتملكك شعورٌ عارم دافئ، نطلق عليه عادةً اسم الثقة.

كم كنت أحمق! لقد كنت أمشي فوق مقبرة.

*

* *

«مونياك» هو خط فاتح قليلاً يقع في نهاية المستنقع. يقول مادامين:

– «مونياك» تعني «الرقبة البيضاء» في اللغة الأوزبكية الروسية.

لم يأت إلا مرة واحدة قبل ثلاثين سنة، وكان مدعواً إلى زواج. كان طفلاً يحتفظ بذكريات، لكنه لا يريد أن يبوح بها إليّ. يؤكد لي أن الذكريات، خاصة الجميلة منها، مضرّة للنظر. عند مدخل المدينة جرى تقديم جوازات السفر كالمعتاد.

– جئتَ من أجل البحر، يقول الشرطي.

لم يكن هذا سؤالاً.

على بعدِ أمتار قليلة كان رجل ضخم الجثة يقف بانتظار شيء ما، أمام تمثال فضّي نصفي للشاعر «بيرداك»، الذي يمكن عدّه «فيكتور هوغو» رجال القبعات السوداء (كاراكالباك). كان يرتدي القبعة الجلدية السوداء التقليدية، ومعطفاً أخضر مُرْخّى. ربما يعرف فندقاً قريباً من هنا؟

– سآخذك إلى البحر.

يفتح باب السيارة ويجلس دون استشارة أحد.

– إلى الأمام.

كانت المحطة عالية (مكونة من ثلاثة طوابق)، مثل المصرف أو الكلية الجديدة ذات اللونين الأزرق والأبيض، وبقية المباني منخفضة وشبيهة بتجمع من البيوت البيضاء المتواضعة جداً. تبدو خائفة إذ إن نصفها مغمور في الرمال؛ بسبب الحرب دون شك. أية كارثة أخرى غير الحرب يمكن أن تفسّر وجود هذه الأراضي البور المرصعة بالأنقاض والآلات المقطعة، ومصنع المعلبات القديم المبتور هذا، وهذه المحطة المكشوفة كما لو أنها أصيبت بقذيفة؟ منذ وصولي إلى طشقند، كان لديّ متسع من الوقت لكي أكوّن لنفسي معرفة حقيقية عن المصانع المهجورة. لقد عانت هذه من شيء يفوق الإهمال والعنف: من داء الكَلَب.

عندما دُمِّرَتَ هذه المصانع، لم يكن يراد الاستفادة منها فقط من أجل بيع قِطَعها، بل كان المقصود الثأر، والإسراع في تداعيها، بل تسريع الزمن الذي لم يكن يمضي بالسرعة الكافية للقتل.

ها هي البنايات الأخيرة، وها هي القرية تصل إلى نهايتها، ونستمر في السير فيما الطريق ترتفع.

– قف!

خرج صديق الشاعر بيرداك بفظاظة عن صمته. أرانا صَرْحاً وسهماً أبيض منغرساً في الأرض.

– أخْرُج. الشمس آيلة للغروب، علينا أن نسرع إذا أردتَ أن تشاهد البحر.

الصرح مكرس لشهداء الحرب، وهناك عبارة محفورة على امتداد قاعدته:

OTALAR JASORATI FARZANDLAR MEROSI

1945 – 1941

«بطولة الآباء ميراث الأبناء»

لم يكن هذا الشعار النبيل يهم صديقنا، ولا حتى أسماء أطفال «مونياك» المحفورة على الرخام، الذين ذهبوا بعيداً للقتال ضد النازيين ولم يعودوا أبداً.

كان يريد أن يرينا البحر فقط. أَخَذَ ذراعي وهزّني بلا رقة، ثم قال: انظر! انظر!

*

*   *

يشعر المرء دائماً بالخجل، إذا لم يبك أمام القبور، أو إذا لم يضحك في حفلات الزواج، ويشعر أنه مذنب؛ لأن تلك المشاعر لم تكن على النحو المعتاد، ولا بالمقدار الكافي.

لم ترَ العين من أنف الجبل إلا الرمال، ولا شيء إلا الرمال على مدى النظر، ذلك أن بداية الظل الخفيف كانت تموّه التفاصيل.

إن أي بريتاني[1] من كنكال[2]، وإلى تريجييه[3] يعرف هذه المساحات الفارغة المسماة منطقة الجزر، وقلما يتأثر فيها أحد. نزول البحر يعني صعوده. استبدّ فيّ الغضب، على كره مني، لأنني قطعت كل هذه الطريق؛ من أجل شيء تافه وهو رؤية أقصى الجّزْر وحسب.

تركني زملائي؛ كي يذهبوا للبحث عن «الفندق»، وبقيت وحدي. حينئذ انتابني الجزع فنظرت إلى ساعتي مرة بل عشر مرات، وتفحّصت الأفق مئة وثمانين درجة، مرة بل عشر مرات. لم يكن هناك شيء يتحرّك أو يتقدّم.

لم يكن هناك أي من هذه القضبان الرمادية أو الزرقاء التي كنت معتاداً عليها. كان البحر يستعد للعودة من بعيد.

يبدو لي أنني ناديتُ واحتجيتُ. يعني البحر بالنسبة لي الشيء الكثير، حتى وإن لم أرد الاعتقاد بذلك. وأخيراً أدركت: من جديد،

(1) ينتمي إلى مقاطعة بريتاني / غرب فرنسا: (المترجم).
(2) بلدة في غرب فرنسا تقع على البحر: (المترجم).
(3) بلدة في غرب فرنسا تقع على البحر: (المترجم).

أجد نفسي في مواجهة الموت، في مواجهة امرأة كنت أحبها، وماتت قبل فترة وجيزة.

*

* *

في العادة، يكون الغسق حزيناً إذ تتحسر الأماكن، والأشياء على مغادرة الضوء لها. في «مونياك»، انتابني شعور معاكس، وهو الارتياح. سيخفي الليل الذي كان يهبط ما لم نعد نتحمل رؤيته. شيء ما كان يقول لي: إن الناس هنا ينشدون الظلام، وأن يصبح هذا الظلام أسود إلى أقصى حد ممكن، مثلما يحدث في بعض الليالي، عندما يرفع أحدهم الغطاء إلى ما فوق العيون، ينسى كل شيء بعد يومٍ سيءٍ جداً.

كان طفلاً ذلك الذي ساعدنا في زيارة الفندق. كان مصباحه الجيبي يرينا الغرف المشغولة، والأسرّة، والحقائب المفتوحة، والسراويل الصغيرة، والجوارب التي كانت تغطي الأرض، والقدور التي كانت فوق الموقد.

– ليس هناك مشكلة، هؤلاء عمال الغاز ولن يعودوا إلاّ غداً صباحاً.

كنت أشاهد منصة التنقيب عن الغاز، ومشعلها الذي كان يحترق كشمعة كبيرة تطلق دخاناً. كنت أشفق عليها. كان يجب على منصة جديرة بهذا الاسم أن تشرف على المحيط، وليس على حقل من

القصب.

– إن لدى أمي ملاءات أخرى إذا رغبت. شكرناه وهمنا على وجوهنا، وانتهى بنا الأمر بالتوقف أمام «السكن»، وهو عبارة عن كوخ شديد البرودة، مخصص لِـ «الخبراء». منذ أن اختفى البحر، وخبراء الكوارث يتناوبون على المجيء للمعاينة. حقاً أن موت بحر آرال يحتل مكاناً مرموقاً في قائمة الكوارث التي تنال الجوائز.

كارثة بيئية تتمثل في انقراض عشرات الأنواع، وتعقيم آلاف الهكتارات بسبب الأملاح السامة التي تنقلها الرياح. وكارثة اقتصادية تظهر من خلال اغلاق محلات لصيد السمك، ومعامل للمعلبات، وانتشار كثيف للبطالة؛ وكارثة طبية تتمثل في انتشار سرطانات الحلق والغدة الدرقية، التهابات الكبد، أمراض الجهاز التنفسي، وأمراض الأمعاء. وأخيراً كارثة مناخية، إذ يزداد المناخ الإقليمي سخونة ويتسع الجفاف يوماً بعد يوم... قَرَّرَتْ رِحْلَتي أن تقومَ بمغامرة تعليمية مثلما فعلت شركة خطوط أوزبكستان قبلها بأسبوع. وبما أنني أقوم بالتحقيق حول القطن، وبما أن المرء لا يقوم بالتحقيق دون أن يحب، فإنني –أنا صديق القطن– لا أملك إلاّ أن أشعر شخصياً بالذنب؛ بسبب هذه الكوارث جميعها.

لم يكن شيء يُدِلُّ على أن الليل سيكون مطمئناً.

حوالي الساعة الواحدة صباحاً، عندما بدأ كوخنا يدفأ بفضل العمل

المقدام الأخوي لكومة مزيفة من الفحم الحجري (الكهربائي)، دوَّت ضرباتٌ عنيفة على باب المدخل. كان هناك شابان وفتاة يحملون زجاجات في أيديهم وقد جاءا للتهتك. كيف يمكنُ للمرء أن يقضي وقته في «موناك» عندما لا يكون خبيراً؟

لم أصبح «خبيراً في الاختفاء البحري»، خلال بضع ساعات، ولكن نظراً لاضطراري البقاء يقظاً بسبب التمارين الرياضية الودودة لجيراني، فقد كان لدي متسع من الوقت للاطلاع على بعض الأرقام. تقلص بحر آرال إلى النصف خلال ثلاثين عاماً (من سبعة وستين ألفاً إلى ثلاثة وثلاثين ألف كيلومتر مربع)، وتضاعفت ملوحة المياه المتبقية ثلاث مرات، واختفى أربعة وعشرون نوعاً من الأسماك، ومئة وخمسون نوعاً من الطيور... أعترف أن النشاط المجنون الذي كان يبذل في الغرفة المجاورة، قد رفعَ من معنوياتي خلال قراءتي الكئيبة؟

في صباح اليوم التالي كان صقيع أبيض يغطي الأرض. كان معطف أخضر مرخيّ وقبعة جلدية سوداء تنتظران أمام باب «السكن»، وهما متسمران. بينما الكلاب تشمّهما؛ لأنها كانت ترى أن وجودهما مشبوه. كان صديق الشاعر يرداك يريد أن يرينا شيئاً آخر. لكن السيارة رفضت الانطلاق؛ لأسباب لا يعرفها أحد غيرها. كان يمر رجال في مجموعات صغيرة، وهم يرتدون جزمات كبيرة ويحملون شبكات، وعصي على أكتافهم. سألت صاحب المعطف الأخضر المرخي:

– هؤلاء الصيادون.... في حين أن البحر... هل لديكم كثيرٌ من المرضى العقليين في «مونياك»؟

– ما هو رأيك؟ لدينا بحيرة صغيرة تبعد كيلومترين من هنا، وسوف يساعدوننا على النمو.

*

* *

في الأزمنة السعيدة كان هناك أربع فيلات يحتللن أجمل موقع في أقصى لسان اليابسة، تحيط بها الشواطئ، والبحر من الجانبين، وهي مخصصة لقضاء إجازات العمال الأكثر جدارة، واستحقاق في الاتحاد السوفييتي.

– ذات يوم وصل عسكريون في شاحنتين، ومعهم مجرفة. أبعدونا؛ كي لا نرى. لكننا رأينا في اليوم التالي. اشتغل العسكريون والمجرفة جيداً. لم يبق إلا الباطون المسلح لأعمدة الزاوية، وقضبانها الحديدية الصدئة الملويّة. كل ما تبقى كان مسحوقاً ومدمراً. كان ذو المعطف الأخضر المرخي يوسع الخطى بين الخرائب.

– أتفهّم أن يغلقوا الفيلات، بما أن البحر لم يعد موجوداً، فبدونه لا يستمتع المرء براحة حقيقية. ولكن لماذا يحطّمون كل شيء هكذا؟

ترَكَنا صديقنا ذو المعطف الأخضر نغادر دونه.

كان يفضل البقاء بصحبة العمال المناضلين، وربما كان يحلم هو أيضا أثناء فترة شبابه في «موناك» أن يصبح «عاملاً من العمال الأكثر جدارة واستحقاقاً في الاتحاد السوفيتي»، لكي يُدْعى إلى واحدة من الفيلات الأربع؟

التقطت من بين الأنقاض قطعتين من السيراميك، واحدة صفراء، والأخرى خضراء، أعتقد أنهما كانا يشكلان جزءاً من نموذج (موتيف) يزخرف الواجهات. كان الحزب يفكر في كل شيء يتعلق بأبنائه الأعزاء. والآن ترافقانني هاتان القطعتان فوق مكتبي. إنها تذكّرني بالاتحاد السوفييتي، وبأيام بحر آرال الجميلة.

*

*   *

هل كنت أحلم أم أفكر؟

أتذكر أنني لّمحْتُ ساعات في لحظة ما من الليل. إن ما نراه في «مونياك» يتعدّى كونه انقلاباً على المكان؛ ليصبح عدم انتظام للزمان. ومثلما يحدث لكل شيء، فإن من طبيعة البحار أن تظهر وأن تختفي. وبما أن هذه الحركات تستغرق قروناً أو آلاف السنين، فإننا نحن المشاهدين العابرين، بسبب حياتنا القصيرة جداً، لا نرى إلا جزءاً بسيطاً منها.

هنا، بما أن الحركة تسارعت، نشهد الفيلم كاملاً. وها هو ذا في هذا

الصباح الأوزبكي جاءتني الفكرة في أن أجعل من المرحوم بحر آرال متنزهاً للتعليم، وهي لا شك طريقة كي أسترد انجذابي المذنب للقطن. فلنَتَعْلّم نتائج تسريع ساعات الأرض بواسطة الإنسان.

*

* *

عدت إلى وسط المدينة عبر قاع البحر، ماشياً بين الشجيرات كما لو أن الأمر يتعلق بطحالب. بضعة عشرات من السفن كانت قد وقعت في فخ الطريق المنحدر للمياه. كانت ترقد فوق الرمال كدُميات كبيرة حزينة. كان رجل يَقُصُّ، بمساعدة منشار معدني، الجزء العلوي لواحدة منها، ليجعل منه مركباً جميلاً صغيراً يبحر قرب الساحل، وفوقه مدخنة كبيرة مستديرة. وفوق مؤخرتها كان بامكاننا أن نقرأ، بالرغم من الصدأ، اسمها المجيد: «كاراكلباكي».

كانت «مونياك» تنتعش. ينسى المرء الأيام عندما يكون في رحلة، كان ذلك يوم الأحد، وكانت العائلات تخرج من كل بيت، سواء مشياً على الأقدام أو في السيارات أو في العربات الجانبية للدراجات الآلية القديمة جداً (Side – cars) وتتجه نحو الغرب. عشية ذلك اليوم لم ألاحظ اليافطات المعلقة على الأعمدة الكهربائية، والتي كانت تغدق على السكان عبارات، أو نصائح مفيدة مُوَضَّحة بطريقة جميلة:

«إذا كنت تعمل، فإن النتائج الطيبة سوف تأتي».

«إذا كنت تمارس الرياضة، فإن حياتك ستكون أفضل».

«إذا كان الطفل مسروراً، فإن الأم سعيدة»

أما القولان المأثوران الأخيران، فقد كانا يظهران – إذا كان هناك حاجة لذلك – الوقاحة اللامتناهية للسلطات:

« ستكون سنة 2005 هي سنة الصحة»

«الماء هو أساس الازدهار».

لقد كان الماء هدف النزهة بالضبط، أي البحيرة الصغيرة، أي كل ما تبقى من المرحوم بحر آرال.

يبدو أن «مونياك» كاملة، تلتقي هناك في كل يوم عطلة. تنظر الأمهات إلى الأطفال الذين ينظرون إلى آبائهم، وهم يصيدون. من أين تأتي –من أي حكمة، أو من أي يأس– هذه الطاقة لشعوب آسيا الوسطى على اغتراف السعادة من أي مكان؟

تشاء الإشاعة –التي لن تُكّذَّبَ أبداً– أن مبعوثاً هندياً قد تسلَّل ذات يوم من سنة 2001 إلى مكتب الوزير الأوُزبكي للشؤون التجارية. كان يتبعه مساعدان يحملان حقائب، وبعدما وضعت هذه على السجاد الثمين وخرج المساعدان بحذر، تروي القصة أن المبعوث الهندي اقترح على الوزير الأوزبكي شراء المحصول كاملاً:

– إن لدى صناعة النسيج في بلدي احتياجات كبيرة للقطن.

وبعدما عَرَضَ الحقائب قال:

– لقد فضّلنا أن نجلب اليوم المبلغ كاملاً؛ كي لا يكون هناك أي سوء فهم حول نوايانا المخلصة.

تجنبت طشقند الموافقة على الطلب؛ لماذا تكبيل الأيدي هكذا في حين أن جميع البلدان المجاورة تقريباً تمتلك، هي الأخرى صناعة نسيج شرهة جداً للألياف؟ تتصرف أوزبكستان مع ذهبها الأبيض بأفضل الطرق. لا تحتفظ لمصانعها الخاصة المدارة بواسطة الأتراك، إلا بجزء بسيط من إنتاجها (أقل من عشرين بالمئة)، أما الباقي، أي ثمانية مئة ألف طن، فيتم تقاسمها ما بين الهند، والباكستان، والصين.

لقد تم فتح سوق مالي (بورصة) مؤخراً، وذلك بلا شك لإرضاء

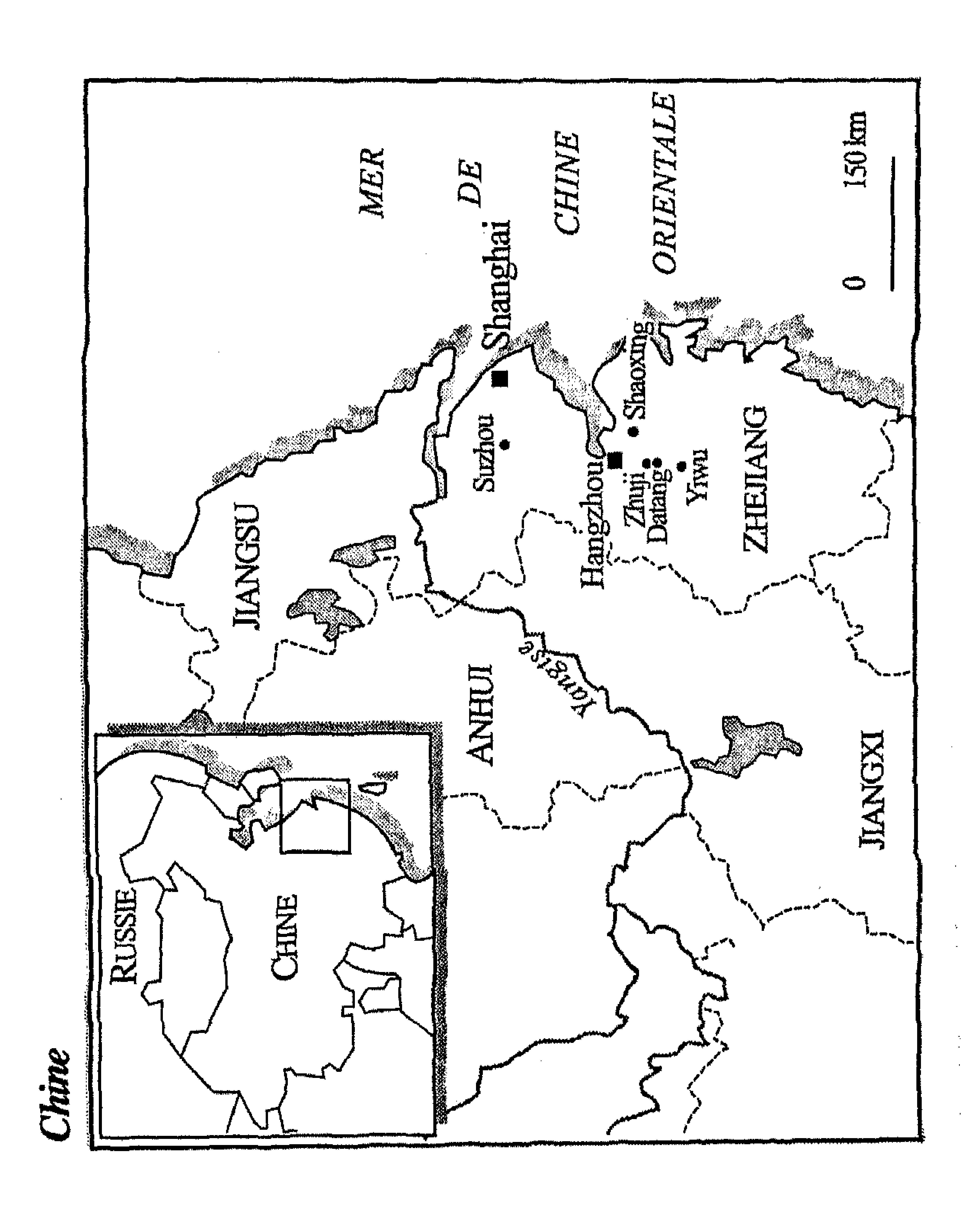
المؤسسات الدولية الصديقة لليبرالية. ومن المتوقع أن تتعامل لفترة طويلة مع جزء لا يكاد يذكر من نشاطات التبادل.

ليس القطن نفطاً، لكنه يتيح المجال أن يوجد تماماً في لعبة الأمم.

6

الصين

رأسمالية شيوعية



Chine
RUSSIE
CHINE
MER
DE
CHINE
ORIENTALE
Shanghai
Suzhou
Hangzhou
Shaoxing
Zhuji
Datang
Yiwu
JIANGSU
ANHUI
ZHEJIANG
JIANGXI
Yangtse
0
150 km

خارطة الصين

جراح الريف

يظن المسافر لدى خروجه من «شنغهاي» أنه سيجد حقول أرزّ تحلّقُ فوقها أسراب الطيور، وأيكٍ من الخيزران، وبضعة جواميس يجرّها أطفال على مسافة بعيدة، أي باختصار، سيشاهد تلك المناظر الطبيعية التي يطلق عليها الناس عادة «الريف»، الذي يبعث السكينة في النفس.

يا لتعاسة المسافر! لقد سَلَبَه أحدهم قارته الخالدة، آسيا الموصوفة في الصورة المذكورة أعلاه. سيُشاهد على مدى مئات الكيلومترات ورشات بناء، ورافعات، وأبراجاً وجسوراً، ومصانع، ومدينة كاملة جديدة تماماً، وخطوط مواصلات إضافية. وسيشاهد من جديد مصانع، ومزيدٍ من المصانع، بعضها على وشك الإنجاز، وبعضها الآخر لا يزال متخفياً وراء أغطية خضراء قاتمة تنذر بالشؤم.

وإذا لم يتمكن المسافر المسكين بعد، من معرفة حقيقة الحلم الصيني، فإن لوحات عملاقة متعددة الألوان تعرض عليه المستقبل القريب المشرق جداً للصين. هنا مجمع سياحي بحري مُقَامٌ على ضفاف بحيرة The Splendid City، وهناك متنزّه للراحة والاستجمام A Paradise for children. ربما تُغني الكلمات المرسومة وحدها عن أي شرح آخر. لماذا هذه الترجمات الإنجليزية، اللهم إلاّ إذا كان المُراد دقّ مسمار إضافي في

رأس الأجنبي الذي سبق وأن أربكه اختلاف التوقيت؟

أضف إلى ذلك التصرفات الانتحارية الشاردة التي تحدث على الطريق العام ذي المسارب الأربعة. يتجاوزك آخرون بسرعة فائقة، بما في ذلك الشاحنات، من الجهات جميعها، وحتى عن اليمين دون سابق تنبيه، إنها تقلّد بذلك حافلات غريبة فخمة مليئة بأجهزة تلفاز مضاءة تضم عمالاً يغفون فيها، وهم ممدودون فوق أسِرَّة ميدان، لحين الانتقال من مهمة لأخرى. إضافة إلى ذلك، ترافقك دوماً أسراب من الدراجات النارية العابثة، التي يتخللها فجأة ظهور جرّافة ذات أسنان مرفوعة من مكان ما.

إنه «ريفٌ» تعسٌ مفروضٌ عليه أن يلوذ بمنحدرات وعرة؛ كي يبقى على قيد الحياة. عندما تكون أرضه منبسطة تُمارس أشكال التعذيب كافة بحقه، إذ تُلتهم من خلال بناء ألف مدينة جديدة عليها، ويُحفر فيها مئات الآلاف من الأحواض؛ لتربية الأسماك، وتغرز فيها مئات الآلاف من الأعمدة دعامات للّوحات الإعلانية التي لا يمكن تجنبها. يختنق بحر رمادي قذر تلك الأرض المنبسطة، متمثلاً بسقوف البيوت البلاستيكية الشاسعة، إذ يجب تسريع نمو الخضار لإطعام الأعداد الهائلة من البشر. وكدتُ أنسى أسوأ جرح لحِق بالريف، وأسوأ إذلال له ألا وهو إقامة مئات آلاف الهكتارات من المشاتل.

يعلم الله كم أُحبُ مشاتلنا، هذه الذخائر من الكنوز الهشة، والأماكن

المدهشة، إذ يحتفي المرء بتنوع الكائنات الحية، وهو ما لا يحدث في أي مكان آخر. أما هنا فلا يحصل شيء من هذا. إنها الزراعة الكثيفة، والإنتاج الغزير المتماثل: مليارات من نباتات الزينة، والصنوبريات أو النخْليات الصغيرة والمتوسطة الحجم، أو الكبيرة، مرصوصة على جانبي الطريق العام محاطة بعناية. مجموعة صغيرة من الناس لا نرى منها إلا القبعات العريضة المدبّبة، وبجانبها رفّاشات تستعد لنقل الأشجار إلى مساكنها القادمة، وهي حُفَرٌ في رصيف في مكان ما، من مدينة ما.

تقود هذه المشاتل العملاقة المتكاثرة بالوتيرة ذاتها التي تتزايد بها المصانع، والمدن إلى التفكير بنمط التنمية الصينية. إنها تشير إلى حاجة للطبيعة، لم ينجح التقدم الاقتصادي في القضاء عليها، وهي حاجة تتأكد من خلال العناية المفرطة التي تحظى بها عملية إعادة زرع هذه الأشجار: غرز أعواد الخيزران؛ لمساعدتها على مقاومة شِدة الرياح، ووضع أغطية قاتمة؛ كي تساعدها على تجنب الأشعة الحارقة للشمس، ولفّ حبال حول الجذوع لحمايتها من جميع الاعتداءات الأخرى المتوقعة سواء أكانت مناخية أم حيوانية.

تعكس هذه المشاتل أيضاً الاستعجال، واللهفة لدخول المستقبل في أسرع وقت ممكن. ويُطرح السؤال: ما المستقبل؟ إنه بلدٌ تكبر الأشجار فيه قبل آوانها.

*

* *

كيف يمكن للمرء أن لا يفكر في مشاتل، هي الأخرى صينية مئة بالمئة؟

في الحقيقة، يكفي أن يجتاز المرء باباً مستديراً لإحدى الحدائق التاريخية الكبرى لـ «سوزهو»، حتى يتسلل إلى مكان مزعج جداً، وهو بيت حضانة بونسايس[1] bonsais. لكن قبل الوصول إلى هذا المكان سيشاهد المرء أسماكاً، تلعب بأغصان اللوتس، وسيسير إلى جانب أسوار عالية، وسيجتاز جسوراً تشبه أقواس قزح، وسيتسلق جبال الصين الأسطورية من خلال مستنسخات مصغرة لها، وسيحلم طويلاً بحوض البطّات المنتقاة، أو بكشك العطور البعيدة.

ترقد بضع مئات من الأشجار التي يُحظر عليها النمو فوق طاولة حجرية في حضانة «بونسايس»، وهي «تتسلى» بالزمن بالمعنى الذي نقصده عندما نقول: «تستحمّ بالشمس» (أي تتشمّس). إنها حضانة غريبة يُمنع الأطفال فيها من النمو، وتصيبهم الدهشة من تجاعيدهم أكثر مما يستغربون من زيادة وزنهم!

أُنشِئت المشاتل المنتشرة على جانبي الطرق العامة؛ كي تتيح المجال

(1) بونسايس (Bonsais) كلمة يابانية تعني الشجرة المصغرة أو القزم: (المترجم).

أمام البشر لتسريع الزمن. أن تزرع شجرةً عُمرها ثلاثون عاماً في مدينة جديدة جداً، يعني أن تُعطي بعض العمر – أو على الأقل الوهم بالعمر – لهذه المدينة، تماماً مثل طفل يسيء استخدام السيجارة، ويُكثر منها ليهرم.

تزرعُ هذه الحضانات الموجودة داخل الحدائق وهماً آخر، وهو إيقاع الزمن في الشرك، وحبسه في شجرة. الشجرة هي الوعاء الوحيد الذي يناسب الزمن، ويقبل أن يُشَاهَد من خلاله، إنها في الواقع، ساعة جدار بطيئة جداً مستدامة.

نحن كائنات حية تعيش لوقت قصير، في حين أن الشجرة التي تولد قبلنا تساعدنا في البقاء على قيد الحياة لقرون. أتكلم هنا عن الشجرة الجديرة بهذا الاسم، لا عن شجرة المشتل التي تعيش حياة أقل من تلك التي يعيشها الإنسان.

لا يملك مدراء هذه المشاتل إلا الإعلان عن حالة حرب ضد الزمن. وهكذا يعتقد المرء أنه انتصر عليه مرتين: من خلال الاقتصاد في الطفولة، واختزال عمر الشجرة.

يشكل المكان رفعة وجلالاً يمتازان بالبساطة، وللأسف تشنُّ الشعوب جميعها حرباً عليه بالطريقة نفسها، لكن بوتيرة مختلفة. أما الزمان فقضية أخرى؛ لأن الأمر يتعلق ببلد فيه الكثير من الدهاء الذي

يتجلّى من خلال الحضارات.

العاصمة العالمية للجوارب

سيتفهم الإنسان إذن، لماذا تكون الأحاسيس الأولى التي يشعر بها المسافر لدى وصوله إلى «داتانغ» مزيجاً من الارتياح، والامتنان؟

الشوارع عريضة، وهي قليلة الازدحام بالمركبات، ونصف مظلّلة بشجرات الدُلب الصغيرة[1]، يبتسم المارة الذين هم أقرب إلى المتسكعين، وتطلّ مطابخ المطاعم على الأرصفة. هناك جمهور قليل من المراهقين يقف في صفٍ أمام نادٍ للانترنت، بانتظار خلو مكانٍ أمام شاشة الحاسوب. وتتباهى شركة «لوريال» الفرنسية المتخصصة بمنتجات التجميل بمزايا محلول جديد ضروري. وعلى مقربة، تعرضُ واجهة متجر للحلويات كعكات كبيرة جداً، مخصصة لأعياد الميلاد أكثرها بساطةً بحجم دولاب دراجة نارية، وتمثل فأرين يلتهمان «عرنوس» ذرة: ترى ما علاقة ذلك بعيد الميلاد السعيد؟

باختصار نحن في بلدة وادعة، لا يبدو أنها تعاني من رغبة جامحة للبناء، ولا من جنون للعظمة. شكراً داتانغ!

يتوقف المسافر للاستراحة، ولاستعادة الأمل في الوقت نفسه. تظلُّ الصين محتفظة بطابعها الإنساني، وإذا احتفظت ببعض الخمول بهذه

(1) الدُلْب: شجر كبير من فصيلة الدلبيات يعيش على ضفاف الأنهار، ومجاري المياه. يزرع على جوانب الطرق وفي الساحات العامة، وقد يبلغ ارتفاعه 30 متراً: (المترجم).

الطريقة، فإن لأوروبا حظوظاً ربما كي تستمر على قيد الحياة. وبدلاً من الاستمتاع لفترة أطول بهذه السكينة التي كانت صعبة المنال، تَذَكَّرَ المسافرُ فجأة سبب وجوده هنا.

أين هي؟ من أجلها تجوّل في نحو عشرة آلاف كيلو متراً، ورغم ذلك فإنه لا يرى أثراً لها في أي مكان. يدير رأسه، ثم يستدير في كل الاتجاهات، ويصاب بمس من جنون.

يعتقدُ صاحب محلِ الحلويات المتخصص في كعكات أعياد الميلاد العملاقة أن صاحبنا قد أصابه توعك ما، فيقدم له مقعداً؛ ليجلس. يجامله الناس الذين من حوله بلطف لكن بلغة غريبة جداً. ونظراً لعدم قدرته على التعبير عن نفسه، يرفع المسافر رِجل سرواله، ويشير إلى موضوع التحقيق الذي يقوم به. ينفجر ضحك صاخب، ويضحك الناس من حوله طويلاً بحّدة زائدة. يُبدي الحضور رضاه، ويهزّ الجميع رؤوسهم متمتمين: «ممتاز، ممتاز. هذا مسافر جيد»!

يمسك أحدهم بذراعي ويقودني إلى الشارع، ثم يرافقني أمام لوحة مُؤطّرة بالزجاج تشبه تماماً تلك اللوحات التي جعل «جان – كلود ديكو»[1] مدننا تقشعّر بسببها. لفتَ الحضور إنتباهي إلى خطوط الكتابة الصينية وكرروا ذلك، إلاَّ أن الأجنبي لا يفهم، فقد يكون غبياً فقط،

(1) جان – كلود ديكو (Jean-claude Decaux): رجل صناعة فرنسي اشتهر في مجال الدعاية والإعلان خاصة، وكان صاحب فكرة إنشاء واقيات من المطر، والشمس عند مواقف الحافلات في المدن؛ لوضع لوحات إعلانية فيها: (المترجم).

أو شيئاً آخر! يتوتر الجو، لكن وصول «بو شن» ينقذني. يُخرِج المفكرة الصغيرة التي لا تتركه أبداً، وقلم الرصاص الصغير الذي لا يترك المفكرة أبداً. ويقدم اعتذاره سلفاً بسبب رداءة خطه.



لدى عودتي إلى باريس سيقوم فرانسوا شينغ بإهدائي الخطوط من خلال إعادة رسمها.

الحرف (a) يعني «ثوب»، وآخر (b) يعني «طرف» أو «نهاية».

في اللحظة الراهنة يرفع «بو شن» رأسه. ما معنى ثوب النهاية؟

أخيراً، يُشرِقُ وجهي. يُصفق الجميع.

ثوب النهاية (أو نهاية الثوب)، لا يمكن أن يكون إلاَّ «جورب»، ويردد صاحب محل حلويات أعياد الميلاد، وعائلته وأصدقائه «جورب» (Chaussette).

يمتد إصبعٌ مشيراً إلى اتجاه سيتبعه عما قليل عشرة آخرون، كلها تنصح بالذهاب إليه. يشكرهم المسافر، وينهض، ثم يخرج؛ لأنه لن ينتظر طويلاً. قدّرتْ «داتانغ» أن عملية «التزريك»[1] قد استمرت بما فيه الكفاية، وجعلته يستمع إلى النداء، وإلى نوع من التنهيدة. إنه يسيرُ نحو الضجة المسموعة بصعوبة التي تتردد بانتظام. يغادر الجادة ويدلف إلى شارع صغير. لم يلحق به أصدقاؤه الجدد الحلوانيون؛ لأنهم أدركوا أنه قد وصل إلى ضالّته.

هكذا ولجتُ إلى الجانب المخفي من الديكور، أي إلى داتانغ الحقيقية؛ إنها مدينة أكثر تواضعاً وقدماً من سابقتها، متاهة من الشوارع الصغيرة المحاطة بعنابر مهدمة، ومنازل صغيرة مطمورة تحت بقع أزهار القرع الصفراء.

تقوم كلابٌ بالحراسة أمام العتبات، بعضها كان يزمجر، وبعضها الآخر كان مرهقاً، أو حزيناً، وآذانها مُقرَّنة مثل آذان بنات آوى. كانت صبيتان تضربان ملابس بمدقّ للغسيل -على ضفاف بركة- ضربات قوية وفرِحة بينما تشعل امرأة النار، وهي مقرفصة أمام مقلاة مقعّرة قريبة، وعجوز تغفو مفتوحة الفم غير مُبالية بالقطة الصغيرة التي تلعب بخفها الأسود.

أما وقد اختفت ضوضاء الشارع، كان ضجيج يتفتت ويتقلص إذا

(1) التزريك أو bizutage بالفرنسية هي أعمال يقوم بها الطلاب القدامى؛ لإزعاج الطلاب الجدد المبتدئين في الجامعات: (المترجم).

أصغينا جيداً، إذ تتناوب التنهدات مع الصفير، وتبدو كأنها صادرة من كل مكان. يضاف لذلك نوع من اللهاث، وقعقعة سريعة لكن حذرة وناعمة جداً، وشبيهة إلى حد ما بساعة جدار، تقيس زمناً يسير بسرعةٍ غير ملائمة لهذا الكون المسكين، لكن الهادئ جداً، والأقرب إلى عالم الريف، من بين مجموعة من أنواع الضجيج، أيها يختار المرء؟

كانت حيرتي تبدو مسلّية للكلاب الشبيه ببنات آوى. وصلت دراجة ثلاثية ذات صندوق أمامي، وأفرغت حمولتها من الفحم الحجري قرب جدار في هذه اللحظة تحديداً تدفقت موجة من البخار من شقٍ في الأرض أشبه بدخان البراكين، فاقتربت ودفعت باباً.

ها قد وصلت إلى هدفي: الجورب الذي تعدّ «داتانغ» عاصمته. لون أحمر مُزيَّنٌ بزخرف ذهبي، ومثله مئات مسحوبة على أشكال معدنية معلقة بخيوط حول إسطوانة ضخمة أشبه بمرجل.

عشرات العيون تتفحصني. يحتاج الأمر إلى تخيّل ظل خفيف يُضيئه مصباح غازي (نيون) مكسواً بالغبار، وإلى تخيّل جدران السناج السوداء، وألواح الخشب التي تقوم مقام طاولات، وكراسي غير متجانسة، بلاستيكية أو حديدية، وسبورة مغطاة بأعواد مرسومة بالطباشير وكلمات مرسومة مطمورة، وصورة كبيرة ممزقة للاعب كرة سلة أمريكي. لاحظتُ عند دخولي توقف ثماني نساء يرتدين قمصاناً، ورجلان عاريا الظهر، فجأة عن العمل، أصابهم نوع من الانقباض.

ظلّت أياديهم دون حركة منذ تلك اللحظة، بعضها كان غارقاً في صندوق كرتوني، وبعضها الآخر موضوعاً على واحدة من الطاولات. ثم عادت حركتهم فجأة بوتيرة جنونية.

لم يكن هناك نافذة للمكتب الوحيد الموجود في الشركة، الذي كان مغطى بصور أزياء، لم يكن يبدو أن هذا الديكور يبهج المدير الذي كان يراقب شاشتين: كان عشاق يتشاجرون على شاشة التلفاز، وتمر كلمات مرسومة على شاشة الحاسوب. كان يرتدي سروالاً فقط مثل بقية موظفيه، بينما زوجته متأنقة في ملبسها وترتدي سروالاً أبيض، وطقماً من اللونين الأخضر والأحمر. طلبت من زوجها ارتداء ملابسه بإلحاح.

أذعنَ للطلب فوراً وأخرجَ قميصاً من الدرج من ماركة «هوغو بوص»، وأصبح بإمكانه الآن أن ينهض، ويستقبلني رسمياً من خلال انحنائة تبجيل وفيض من الكلام، وتقديم الطفلين اللذين لم ألاحظ وجودهما، وهما يشاهدان تلفازاً أيضاً موضوعاً على الأرض. وبما أنني رفضت سيجارة، فقد قدم لي خمسة أزواج من الجوارب ماركة «توم وجيري»، ونادى على جار يتكلم الإنجليزية.

كان هذا أيضاً يرتدي قميصاً من ماركة «هوغو بوص» (Hugo Boss)، وترجم إليّ المعلومات الرئيسة الثلاثة:

1– أنا موجود في شركة للكيّ؛ 2– أن الكيّ ليس عملاً سهلاً؛ 3–

لكن ما أهمية ذلك؟ هنا في «داتانغ» نحن جميعاً في خدمة الجوارب.

أعبر عن إعجابي وأستأذن، ثم أتابع استكشاف المكان، المشاغل متلاصقة كبيرة نظيفة إلى حد ما، وكل واحد منها له تخصصه. هنا تصنع الجوارب وتُطوى أو تُرْزم. هناك تطبع البطاقات بلغات العالم جميعها أو تلصق دون إغفال الكيّ.

يشكل التجوّل في هذه الدهاليز، والدخول في أعماق «داتانغ» في الوقت نفسه، زيارة لتاريخ التصنيع. يكفي أن نخطو خمس خطوات، وأن تمر دقيقتان كي ننتقل بعدها إلى قرن آخر. نشاهد على الجانب الأيمن من الشارع الصغير القرن التاسع عشر، فالأطفال -العمال- الذين وصفهم ديكنز قد شبّوا قليلاً دون أن تتغيّر البيئة. الضجيج نفسه، والروائح الكريهة نفسها، والأكواخ القذرة نفسها تستخدم مهاجع، والحساء البائس نفسه كوجبات، والإرهاق نفسه والإستكانة نفسها تظهر في النظرات. وعلى الجانب الآخر من الشارع نفسه. ها هو الزمن الحاضر: الوضوح والنظافة والأتمتة...

عندما تسلّمْ البضاعة في أوروبا، مَن بإمكانه أن يعرِف من أي جانب من الشارع (أي مِنْ أي قرن) جاء زوج الجوارب؟ لا يبدو أن هناك أية لوائح، خاصة صحية، توحّد هذه العوالم، وكأن لسان حالهم يقول: الحرية للمتعهدين! ومما لا شك فيه أن السُلطات تعتقد أن الظروف ستتحسن في الوقت نفسه الذي ستزداد فيه المبيعات.

يلفت مترجمنا «بو شن» انتباهي إلى أن الصين التي تبلغ مساحتها عشرين ضعف مساحة فرنسا يجب أن تعدّ قارة أكثر مما هي بلد.

أليس هناك تفاوت بين ستوكهولم -مثلاً- وبين ريجو كالابيريا (في إيطاليا)؟

يوجد بضعة آلاف من هذه المشاغل وراء واجهات داتانغ الهادئة، وشوارعها الواسعة. ويمكن أن نضيف إليها آلافاً أُخرى كثيرة في نحو عشرين من القرى المجاورة. وإجمالاً يوجد هنا ما بين اثنتي عشرة وثلاثة عشرة ألف شركة عائلية، تشتغل جميعها بإنتاج الجوارب. ويرتبط العمل بورود طلبات، وبما أن الطلبات لا تتوقف، فإن العمل بدوره لا يتوقف على مدار سبعة أيام في الأسبوع، واثنتي عشرة ساعة في اليوم، مقابل راتب مقداره ألف يوان في الشهر، أي ما يعادل مئة يورو، إضافة إلى المأكل والمأوى في مهاجع. وإذا كان رب العمل إنساناً طيباً يمنح أسبوع راحة في السنة، وهو وقت كافٍ؛ ليذهب العامل إلى الطرف الآخر من الصين؛ ليعانق أحباءه.

تقدير عال للجودة

إنّ خضوع العامل الصيني تقليدٌ قديم محفور حتى في الأحجار. تعدّ «سوزهو» اليوم واحدة من عواصم التكنولوجيا المتقدمة، وهي تقع على بعد مئة كيلو متراً إلى الغرب من «شانغهاي». خصصت منطقة جديدة لهذه التكنولوجيا استُثمرت فيها ستة مليارات دولار. ويُصنع فيها كل يوم ثمانية وعشرين ألف حاسوب محمول، أي ما يعادل ربع الإنتاج العالمي. لكن «سوزهو» موجودة منذ القرن السادس قبل الميلاد، وهي مدينة عريقة في القدم مشهورة بجمال نسائها، وهدوء قنواتها وفنون حدائقها.

كانت «سوزهو» مشهورة في العهد القديم (من القرن الثالث عشر وحتى القرن الثامن عشر) بصناعة الحرير الذي كانت القوافل تنقله إلى أوروبا عبر واحات آسيا الوسطى. وأصبح النشاط الصناعي من القوة، إذ حاولت الجمعيات الحرفية تنظيمه من خلال محطات كانت تنقش أسماءها على مسلات؛ كي لا يتجاهلها أحد. ويمكن مشاهدة مجموعة من هذه المسلات في وسط المدينة في معبد كونفوشيوس، الواقع أمام حديقة يطلق عليها «مقصورة الأمواج».

يمكن للمرء أن يقرأ بدايات الرأسمالية الصينية من خلال المجموعة المذكورة، وأن يلاحظ جذور الصرامة الحالية في إمبراطورية الوسط.

لننظر إلى هذه المسلة التي تحمل الرقم 1734 لدى توقف عمال نسج الحرير عن العمل؛ للمطالبة بتحسين أجورهم. نقرأ على المسلة نصاً يأمر بـ «المنع الدائم للإضراب». ونقرأ على حجر آخر يحمل الرقم 1701، وهو أقدم من السابق، أن محافظة «سوزهو» قد خاطبت عمال القطن مباشرة، مشيرة إلى أن عاملاً اسمه «تيو روزهن» قد ألَّب العمال ضد أرباب عمل النساجين، وتدين المحافظة جميع أولئك الذين عرقلوا العمل بطريقة أو بأخرى. حقاً إن العادات نادراً ما تتغير.

يأملُ منافسو الصين أن تضطر الشركات لزيادة الأجور قريباً، تحت ضغط العمال، مثلما حدث في تايوان وكوريا وتايلاند... ولكن يُخشى أن يطول انتظارهم إذ إن أحد مصادر قوة البلد هو «جيش الاحتياط» الذي لا ينضب، حسب تعبير ماركس، إذ يوجد مئات ملايين الفلاحين المستعدين للقبول بأي أجر في المدينة مقابل أن يتخلصوا من البؤس الذي يعيشون فيه في الأرياف.

تتغرب الفتيات هنا؛ لأن الفتية يأخذون على عاتقهم رعاية الوالدين الطاعنين في السن. تُرسل الفتيات نصف رواتبهن إلى القرية، وتسليتهن الوحيدة الثرثرة بين الزميلات، ومسلسلات التلفاز المضاء دوماً. أما الفتيات الأكثر تعلماً فإن تسليتهن في الذهاب إلى مقهى الإنترنت إذ تكلف الساعة يوانين. يلعب الصبيان بأوراق اللعب على الحرب، أو يغازلون مثلما تفعل الفتيات. يقوم كل واحد منهم بتصفيف شعره، وتجميل نفسه أمام كاميرا الانترنت الرقمية المتحركة (webcam). تولد

قصص حب وغزل عبر أنحاء العالم، وهكذا تمضي السهرة باستمتاع، فتريح الشبكة العنكبوتية أعصاب العمال من تعب النسيج.

التسلية الكبرى الأخرى هي التزلج على الجليد، وهو ما يثير للحظة دهشة المسافر. مَنْ الذي أتى بهذه التجهيزات إلى هذه المنطقة الجنوبية؟ هل تقدم الأحوال الناجمة عن الجوارب هذا الترف غير اللائق للعمال؟ لكن الوهم لم يدم طويلاً، فالجليد ما هو إلاّ إسمنت مكسّر والمزالج بكرات.

*

* *

هل لديك حلم؟

لا تعرف الآنسة زهانج —وهي عاملة في العشرين من عمرها— ماذا تعني كلمة «عاملة». تعيش حياة جيدة في داتانغ في الوقت الحاضر. ربما ستذهب لاحقاً إلى الشمال الشرقي من الصين، في منشوريا حيث العمل يسير بوتيرة مكثفة أكثر من هنا والأجور أعلى، في المتوسط ألف وخمسين أو ألف ومئة يوان.

تحلم السيدة «ما» —وهي عاملة أيضاً تبلغ الخامسة والثلاثين من عمرها— بالعيش مع زوجها وابنها ذي السنوات السبع. «ما فائدة الحلم إذا كان يعني بلداً آخر غير الواقع؟ والواقع أنه لا يوجد عمل في قرية سي – تشوان»، لذلك جاءت هي وزوجها: هي كي تعمل في إنتاج

الجوارب، وهو عامل بناء من أجل العمل في تشييد مصانع جوارب. ظل ابنهما هناك؛ لأن المدرسة مجانية بينما هي ليست كذلك هنا. «تسير أمور الحياة على هذا النحو. ماذا بإمكاننا أن نفعل؟».

أعود إلى الآنسة زهانج:

– هل تفكرين بنجاح السيدة هونج بين الحين والآخر؟ ألا تعتقدين أن العمل الشاق قد يخلق الكثيرين من أمثال السيدة هونج؟

تفتح عينيها على وسعهما؛ وتنظُرُ إليّ دون أن تفهم السؤال. طبعاً هي تعرف السيدة هونج، إلاَّ أنه لا يوجد أية علاقة بين عالمها، وبين عالم السيدة هونج.

تستأنف السيدة «ما» الكلام:

– تعيش عائلة السيدة هونج هنا. أما نحن فعائلتنا هناك. لا يستطيع أحد أن يحقق رغبته دون أن تكون عائلته جانبه.

يوافق جميع العاملين في المشغل على ذلك: العيش مع عائلة حقيقية هنا في شرق الصين، هو الطريقة الوحيدة للتخلص من الوضع الصعب.

تجري الرأسمالية في دم الشيوعية في «داتانغ»، وقبل أن يقرر «دنغ تساو بنغ» الانعطاف الكبير عام 1992، كان الحزب قد حدد لنفسه مهمة رئيسة هي استثارة الحِسّ التجاري لدى الجماهير.

يسعى بعض الفلاحين دائماً إلى تحسين دخلهم آخر الشهر من خلال بيع جوارب على قارعة الطريق، سبق وأن اشتروها من مدينة مجاورة. عندما كان هؤلاء الناس الشجعان يُستدعوْن إلى اللجنة البلدية، كانوا يعتقدون أن ساعة نهايتهم قد حانت، إذ إن عقاب أي خطأ إيديولوجي في نهاية السبعينات كان الإعدام.

في الواقع، كانوا يُوبَّخون من رفاقهم المسؤولين، كأن يقال لهم مثلاً: «لماذا تحتاجون إلى التزود من مكان آخر؟ هل نسيتم الدرس الأول من الكتاب الأحمر الذي يؤكد على ضرورة اعتماد الشخص على قواه الذاتية؟». وكان الحزب يقدّم للفلاحين المذهولين من هذا التوجه جداول (كتالوغات) لآلات كورية وإيطالية، ثم يضيف قائلاً: «لقد اعطينا تعليمات للبنك الريفي بمنحكم القروض الضرورية».

وهكذا بدأت مدينة «داتانغ» مغامرة النسيج التي كانت آنذاك صغيرة، لكنها حشدت هي وجميع القرى المحيطة طاقاتها كافة لصناعة الجوارب.

في تلك الفترة كانت السيدة دونجينغ هونج تعيش حياة بسيطة هادئة بوصفها معلمة، وهما مهنة وحياة ما كانتا تتوافقان لا مع طبعها النشيط، ولا مع طموحاتها. قدمت استقالتها من وزارة التربية الوطنية عام 1980، ثم اشترت ثلاث آلات قديمة بمساعدة أشقائها وشقيقاتها، وبذلت العائلة جهودها من أجل صناعة الجوارب. تذهب السيدة هونج كل شهر إلى سوق «هيننغ»؛ للحصول على المواد الأولية الضرورية، وتعرض على جيرانها الذين ينتجون الجوارب مثلها أن تشتري لهم المواد أيضاً. وطبعاً فإن السيدة هونغ تأخذ عمولة على ذلك، وهكذا أصبحت غنية مع مرور الأيام.

استمرت على هذه الحال إلى أن هجرت الصناعة الحرفية في عام 1991، وأنشأت شركة حقيقية بمساعدة حازمة من جانب الحزب. واليوم لا أحد ينكر على السيدة هونغ لقب «ملكة الجوارب»، إذ تستخدم شركتها ألفَ شخصٍ، وتصنع مئة وخمسين مليون زوج من الجوارب كل سنة، يذهب ثمانون بالمئة منها للتصدير.

عندما يعبّر البعض عن ملاحظاتهم لها، بالقول إن نصف هذا العنبر، أو ذاك فارغ وأن عشرات المكاتب لا تزال أيضاً فارغة، تبتسم السيدة هونغ وتجيب: «إن الذي لا يعدُ مشروعات كبيرة لا يملكُ ثقة بالمستقبل. عودوا إلى داتانغ بعد ثلاث سنوات فما ترونه هنا ليس إلا بداية البداية للتنمية».

*

* *

عند مغادرة «داتانغ» نحو الشمال، يجتاز المرء أولاً: ضاحية أنيقة قيد التشطيب، إذ تشاهد «فيلات» ذات أعمدة وأرصفة عريضة، زُرعت فيها أشجار منذ وقت قريب، وطرق إسفلتية ومصابيح... لن يتوانى أصحاب المليارات من تجار الجوارب عن الإقامة في هذه الضاحية. ثم ترتفع الطريق من جانب تل، ونشاهد البلدات تتوالى الواحدة بعد الأخرى، وكلها مخصصة لصناعة الجوارب. نشاهد حركة عمران واسعة هدفها إقامة مبان لإيواء آلات، من مصانع الطوب الجديدة، إلى منازل السكن، وحتى أصغر هنجر وسقيفة مائلة كانت كلها حتى الأمس القريب عبارة عن مخبأ صيد او قُنَّ دجاج. يتردد في الجو صدى اللهاث الميكانيكي نفسه، وهو يختفي خلف الضجيج البسيط للحياة اليومية، وصراخ الأطفال، وأحاديث العجائز، ورنة الهاتف الخلوي المتبوع بشتائم أكثر عنفاً، ونحيب عشيقين على شاشة التلفاز.

يحلُ التراب محلَّ الإسفلت، لكن الطريق تمتد، وتحاذي خزّان ماء يتفاوت لونه بين الأصفر وبين الأخضر، فيما المنحدرات يكسوها الخيزران.

– لن نجد شيئاً إذا سرنا أبعد من ذلك. هل تريد حقاً أن نستمر؟

يسأل السائق.

نشاهد مزارع لتربية البط، وبساتين بقوليات، ومزارع رز صغيرة ثم نصل إلى آخر قرية، وهناك تتوقف الطريق عند نهاية الوادي ويسود الصمت. وبعدها بلحظات نسمع خريرَ سيلٍ مزدحم بالفضلات. تتغذى فراشات سوداء، يبلغ حجم الواحدة منها نصف راحة اليد، من نباتات جافة. يصل بعض السكان، ويقدمون أكواب ماء «من العين»، وطبقاً كبيراً من الفستق.

تسمى القرية «شي كونغ لينغ» ومعناها «حفرة في الحجر» استناداً بلا شك إلى مغارة غير مرئية. يبدو مضيفنا الأكبر سناً قلقاً، إذ لا تغادر عيناه بناية جديدة على بعد خطوتين، لما تكن الواجهة مطلية بعد، وهنالك نافذة تنتظر التركيب وستارة حديدية مسدلة. وفجأة يعودُ ذلك اللهاث المعروف إلى الجو. يظهر شابٌ يرفع إبهامه الأيمن، كل شيء على ما يرام، نشاهد خلفه آلة كبيرة تبتلع، ثم تبصق خيوطاً لا حصر لها. تهبط رزم من البطاقات المثقوبة بطيئاً من السقف، وعند أسفل الآلة تدور لفافة كبيرة من القماش الأبيض حول نفسها. يبتسم رب العائلة بارتياح وتصيب عدوى مزاجه الرائق أفراد المجموعة الصغيرة.

كان هذا السيد مزارع حتى السنة الماضية فقط، لكنه تمكن من شراء هذه الآلة الصينية مقابل ثلاثين ألف يوان بفضل الإقراض الريفي. يأتي تاجر جملة من داتانغ بانتظام، ويُحضر المادة الأولية (الخيوط)،

والبطاقات المثقوبة (التي تنقل آخر رغبات الزبائن إلى الآلة) ثم يعود في الشهر التالي ويزوّد الآلة باحتياجاتها ويحاسب ويأخذ البضاعة؛ وبذلك تمكّن صاحبنا من تسديد ثمن الآلة.

كان الشبّان يفكرون بالرحيل إلى المدينة؛ للبحث عن عمل، وظلّ الوضع على هذا النحو حتى السنة الأخيرة؛ لكنهم قرروا أن يبقوا في القرية للاهتمام بالآلة التي تدور ليلاً نهاراً، إذ نادراً ما يقع عطل. يتوقف كل شيء طبعاً على خيوط القطن التي يجب أن لا تنقطع. سيشتري رب العمل آلة أخرى قريباً جداً، يهز جيرانه رؤوسهم فهم أيضاً سيشترون آلة. باختصار تغزو صناعة النسيج «شي كونغ لينغ».

يحلُ المساءُ وتتلاشى التفاصيل، وتختلط الأعمار. لم يعد هناك شيء يميز لا بين القرن التاسع عشر وبين القرن الحادي والعشرين ولا بين الصين، وبين مقاطعة اللورين في فرنسا... نجدُ المياه القائمة واستدارة التلال هنا وهناك.

عندما عدتُ إلى داتانغ كنت أحدّث نفسي قائلاً: إنّ شيئاً لم يتغير في الاقتصاد، عائلات شبيهة كانت تتمتع بحياتها اليومية الهزيلة من خلال العمل في النسيج... كان ذلك في فرنسا قبل مئتي سنة، في أعماق منطقة «الفوج»، وفي قعر أودية مشابهة.

على بعد ستين كيلو متراً إلى الجنوب من داتانغ، تبدو مدينة «يي وو» (Yiwu) متواضعة، إنها نقطة على الخريطة فحسب، وتجمّعٌ على حافة

الطريق العام الذي يربط «شانغهاي» بـ «هونغ كونغ». تنسى كتب الأدلة السياحية «يي وو»، إذ لا يوجد فيها أي تراث تاريخي، ولم تحصل على لقب بطلة العالم في إنتاج هذه السلعة أو تلك. «يي وو «ليست سوى سوق بالمعنى الأكثر ابتذالاً فقط. مكانٌ يعرِض فيه الناس البضائع على أمل أن يشتريها أناسٌ آخرون، ويهتم سكانها البالغ عددهم ستة ملايين نسمة، بشيء واحد فقط هو التجارة، أي بهذه المجابهة القديمة التي تكون أحياناً سارة، وأحياناً عنيفة بين العرض والطلب. وَضَعَ الفرع المحلي للحزب الشيوعي نفسه في خدمة هذا الولع. لا تتوقف «يي وو» عن بناء الأسواق التي تكون دائماً أكثر رحابة، وأحسن تنظيماً، وذات فائدة عملية أكبر.

لتجارة «المنتجات الصغيرة» صرحها مثلاً، إنها مدينة داخل المدينة، تبلغ مساحتها ثلاثة مئة وأربعين ألف متر مربع، مقامة على ثلاثة طوابق. تتجمع آلاف المحلات وفقاً لنشاطها، وهذه بدورها تتجزأ بعناية: وهكذا فإن الخمسين ألف متر مربع المخصصة للألعاب، موزعة على اللعب العادية الكهربائية، واللعب القابلة للنفخ، واللعب ذات الوبر. يوجد مكان مخصص للورود الاصطناعية تبلغ مساحته عشرين ألف متر مربع. أما قطع الزينة المخصصة للشعر فمخصص لها ثلاثون ألف متر، وقطع التزيين المخصصة لعيد الميلاد، خمسة عشر ألف متر. وطبعاً لا يمكن نسيان «الفن» الديني: بوذا، السيد المسيح، كونفوشيوس، لاو - تسو، يوحنا بولس الثاني (عشرون ألف متر مربع)، أو القبّعات الغريبة

الأطوار والمخصصة لمشجعي كرة القدم (خمسة آلاف متر مربع).

يأتي تجار الأدوات من أنحاء العالم كافة؛ لتأمين مشترياتهم. إذ قابلت تاجرين ماليَّين مسرورين جداً؛ لأنهما سيُغرقان باماكو بمظلات شمسية من المتوقع أن تحقق هامش ربح لا يقل عن ألف ومئتين بالمئة.

كانت داتانغ تغار من «يي وو» منذ أمد طويل. ومن هذه الغيرة ولدت «مدينة الجوارب».

*

* *

تتألف المدينة من قسمين، الأول: محطة شاحنات، وسيارات تستقبل التوريدات إذ تجلب الآلاف منها كل يوم القطن، والخيوط التركيبية، ويأتي أصحاب المصانع للتزود بحاجاتهم منها، سواء بالسيارات أم الدراجات الثلاثية ذات الصندوق أم بالدراجات العادية؛ وفي مكان مجاور مزروع بالشجر تعرِض عشرات المحلات الآلات الحديثة جداً. إنه لمثير أن نشاهد الفلاحين، وهم يرتدون زيّهم التقليديّ ويناقشون المهندسين الكوريين أو الإيطاليين أو الصينيين.

تتنافس البنوك في أركان المكان الأربعة، من خلال اللوحات واليافطات وعموماً يكون مضمون خطاباتهم متشابهاً، فهي تذكّر أولاً أن الصين بلدٌ لا يعرف المستحيل؛ لأن جميع الفرص متاحة وممكنة، وثانياً أن القرض هو أفضل صديق للإنسان الصناعي، وثالثاً أن الانتظار

يعني التراجع.

أما القسم الثاني من مدينة الجوارب، قلب داتانغ ومصدر فخارها فهو: عبارة عن قاعة شاسعة تشبه قاعة الجمباز حيث يَعرضُ أصحاب المصانع إنتاجهم. تتوالى مئات الأجنحة المتشابهة على أربعة هكتارات، وعند كل جناح قائم على ثلاثة مئة متر نشاهد مقعداً، وطاولة، ومروحة وإبريق شاي كهربائي وجوارب طبعاً! يوجد على هذه الهكتارات الأربعة تسعة مليارات جورب من القياسات جميعها، والمواد جميعها، والأطوال جميعها، والألوان جميعها... يكاد المرء يصاب بالدّوار من عدد الجوارب، لدرجة يساوره الشك فيما إذا كانت البشرية تملك عدداً كافياً من الأقدام؛ كي تلبس هذا العدد من الجوارب. تأتي النساء للبيع بشكل خاص؛ يثرثرن ويلعبن بأوراق اللعب، ويطهين أو يهتممن بالأطفال الذين يرافقونهن. وطبعاً لا يَنسيْن تَرَصُّد زبون محتمل، ثم المناداة عليه. ها هنا خطيب وخطيبته في حالة غرام، تحمرُّ خدودهما، ويترددان طويلاً في اختيار جوارب نصفية. وها هو تاجرُ جملة أرجنتيني، أو ليبي يسير وهو يحمل هاتفه الخلوي بيد، والآلة الحاسبة باليد الأخرى، محاطاً بمساعدة له على يمينه مكلّفة بحمل الهاتف الخلوي الثاني، وبحارسه المسؤول عن الحقيبة السوداء على يساره.

خلال النزهة التي قمت بها تطورت أنواع أخرى من التجارة عند مدخل السوق؛ أخرج رجلٌ كهلٌ صندوقاً كرتونياً فيه جوارب، وفَرَدَت امرأة مجموعة من الساعات المنبّهة على مفرش أخضر. وعلى بعد أمتار

كان شاب يحضّر أسياخ لحمة فوق موقد موضوعٍ بين دواليب دراجة، فوق مركبة غير مألوفة.

وفجأة، لم أعد أرى أحداً من أولئك؛ جمعَ ذلك الجمهور الصغير من الباعة كل ما يملك واختفى. وحده رجل أصهب استمر يركض بسرعة وهو يدفع عربته. كان حارس يلاحقه رافعاً بلطة وهو يطلق صرخات وحشية، وكان يتبعه ثلاثة أفراد من الشرطة محتفظين بهدوئهم، وتبدو عليهم نظرات ساخرة. اقترب الحارس وبدأت ضربات بلطته تلامس كتفيّ وظهر الطبّاخ، ولم يكن يبدو على جمهور هواة الجوارب المنجذب إلى زمجرات الحارس أي إمارات اضطراب أو قلق. كان يعلّق ويتسلّى ويستمتع بالمشهد. زَلَّت البلطة قليلاً عن الرأس الأصهب كي تسقط فوق عربة الطبخ وتبعجها. وتبع ذلك سقوط قطع فحم حجري كبيرة مُحمرّة على الأرض.

أعاد الحارس البلطة فوق كتفه، وهو راضٍ عن فعلته وذَهَب في طريقه للقيام بمداهمات أمنية أخرى. كان الجمهور يفسح له الطريق باحترام، ليس فقط بسبب البلطة بل؛ لأن الحضور كان راضياً عما قام به، ويرى أنه تصرف كما يجب. كان يمكن للمرء أن يعتقد أن أفراد الشرطة سيهتمون بملاحقة المخالف، لكن شيئاً من هذا لم يحدث. كانوا يضحكون عندما حاول في لحظة ما إعادة التوازن إلى عربته، وبعد ذلك استأنفوا دوريتهم دون اتخاذ أي إجراء.

نضيف أن الطباخ، بعدما وجد محله مغلقاً، وبعدما أصلح قليلاً عربته، تنحّى بضع عشرات من الأمتار عن حرم قصر الجوارب، وأستأنف نشاطه غير القانوني كأن شيئاً لم يكن.

*

*   *

لنقلها بوضوح: إن أمسيات داتانغ لا تعرف البطر، أو المجون، إذ يتناول الناس طعام العشاء باكراً، ويبدأ روّاد المطاعم مغادرتها في السابعة مساءً. ومن نافلة القول إن المرء يشعر بالاختناق عند التفكير بالعودة مبكراً فقط، إلى غرفة الفندق التي يطغى عليها البعوض ورائحة الملفوف. في مثل هذه الحالة يشكل التنزّه الحل الوحيد.

نلاحظ أضواء خافتة كثيرة جداً منتشرة في الليل. في البداية اعتقدت أن هذه الأضواء تنبعث من التلفاز العزيز على قلوب العائلات. تقدمت صوب بناية تبدو كأنها مزرعة، خصوصاً وأن أضواءها باهرة. كان هناك كلب ينبح. وفعلاً وجدت نفسي في ساحة مزرعة. دنوت برأسي من نافذة فرأيت رجلاً وامرأة يعملان تحت ضوء النيون، إنه التلفاز الآخر للصين.

– لماذا يدمن الإنسان على العمل بهذا الشكل؟ طرحت هذا السؤال مئة مرة، وكان الجواب الأول الذي يفرض نفسه هو: من أجل تأمين حياة أفضل، لكن سبباً آخر كان يضاف في غالب الأحيان، وهو الرغبة

في التخلص من الضجر.

يسأم الناس كثيراً في ليالي الصين، والدليل على ذلك مصابيح الغاز (النيون) المضاءة حتى في أكثر الأماكن انزواءً.

قصة قطيعة

لم تدم قصة عشقي لداتانغ طويلاً. حريٌّ القول -مع بداية أيلول (سبتمبر) 2005- أن مئة مليون طنٍ من المنتجات النسيجية الصينية، الأكثر تنوعاً كانت تنتظر في موانئ أوروبا المفتوحة أمامها. سارع المفوض الأوروبي للتجارة، بيتر ماندلسون إلى الذهاب لبكين في محاولة للتوصل مع نظيره «بو كسي لاي» إلى اتفاق. كان يجب التوصل سريعاً إلى الاتفاق، إذ عبّر الموزعون عن نفاد صبرهم، وزعموا أننا لن نجد قريباً شيئاً نرتديه... وخاصة في ظل أجواء القمة الثامنة الصينية-الأوروبية حيث كان من المفترض أن يوقع توني بلير، ووين جياباو اتفاقات مهمة حول صناعة الطيران المدني، والبنوك والهجرة السرية، والتغيّر المناخي للكرة الأرضية. كانت التعليمات الصارمة قد أعطيت إلى المستويات جميعها، بضرورة إزالة أية عقبات.

باختصار، عندما عدنا -ومعنا آلة تصوير- إلى صديقنا صاحب محل الكيّ الذي التقينا به في اليوم الأول، وأغدق علينا جوارب «توم وجيري»، وجدنا جواً متغيراً. ليس هناك من هدايا هذه المرة، ولا حتى كوب ماء فاتر. «أظهروا لي تصاريحكم. حسن. لا تأتوا بحركة، سوف أنادي عليكم». ظهر فجأة خمسة أو ستة أصدقاء، وأحاطوا بنا كأنهم يهددونا.

وصلت موظفة شابة توحي ملامحها بالشدة. كانت ترتدي قميصاً بلون الصوف الطبيعي مرسوم عليه «بوباي»، وهو يستعرض عضلاته. جعلتنا نصعد إلى سيارة سوداء سارت بنا اتجاه «زهوجي» المدينة الكبيرة التي تشرف على داتانغ إدارياً. وصلنا إلى مبنى البلدية وصعدنا إلى الطابق السابع، وانتظرنا طويلاً.

– أين هو المسؤول؟

– سوف يستقبلكم، يتناول الآن طعام الغداء؛ هل تريدون وجبات؟

بعد مفاوضات طويلة تقرر الذهاب إلى المطعم إذ كان المسؤول يتناول الغداء، وانتظار مروره هناك، وكان تبرير ذلك أن الفرنسيين مغرمون بالطعام، وخاصة الطعام الصيني، وبالتالي فإن الاكتفاء بوجبة عادية غير ممكن.

بدأت رحلة جديدة تجاه أفضل مطعم في المدينة، اسمه مدينة «أكزى فين» للطعام. انتقلنا إلى قاعة صغيرة، وحضر أول مدير للعلاقات العامة. تبادلنا معه الابتسامات العريضة، ورحب بنا في الصين!) واستجوبنا فيما إذا كانت هذه هي الزيارة الأولى، ثم أخبرنا أننا خرقنا القانون الصيني، ولا بد من تصريح خاص من أجل تصوير الواقع الصيني. إذن، ما العمل؟ يجب إرسال طلب إلى القنصلية الفرنسية في شانغهاي، التي ستحوّل الطلب إلى عاصمة المنطقة (شاوكسنغ)، التي ستطلب رأي

المدينة (زهوجي)، وستطلب بدورها رأي بلدة «داتانغ». إنها حقاً أعذار تافهة يؤكدون لنا بعدها أن ليس هناك مشكلة. نتبادل الأنخاب، والابتسامات من جديد، ويتمنون لنا رحلة ممتازة في ربوع الصين، وأخيراً يخرج المدير.

يأكل الفرنسيون المزيد من لحم الخنزير، ويبدو أن المسؤولين استدركوا القضية، إذ أعربت الموظفة الشابة عن رغبتها الشديدة في التعرف على بلدنا. وبالمناسبة لم يكن المدير الذي رأيناه الآن، هو المختص بهذا النوع من المشاكل، كان يجب التحوّل إلى آخر.

– وأين هو المدير الآخر المختص؟

– في المطعم.

انتظرنا مجدداً إلى أن حضر المدير الجديد المختص بالعلاقات الدولية، تبادَلَنا ابتسامات عادية، وتبادلنا النخب لمرة واحدة، ورحّب بنا بفتور. يقول لنا: «خرقتم القانون الصيني. سلمونا جوازات سفركم، وعودوا إلى فندقكم. انتظروا قرارنا»، وهو القرار الذي وصلنا في مساء اليوم نفسه، ومفاده أن علينا أن نغادر داتانغ غداً صباحاً.

التحدث عن المستقبل

يبلغ مترجمنا «بو شين» الثانية والثلاثين من العمر، وكان عضواً نشيطاً في الحزب الشيوعي خلال دراسته الجامعية. من وجهة نظره أصبح كل شيء اليوم ملكاً للدِين الرأسمالي الجديد، وهو متمسكٌ بالنظام الاجتماعي الذي يحقق وحده التنمية. يردّد على مسامعنا أنه لم يعد يكترث بالسياسة. «لهذا رحلت عن بكين التي تحب الأفكار كثيراً. هنا في شانغهاي يهتم الناس بالتجارة أكثر»، تعمل زوجته «كزوي شان» مديرة مالية لشركة «لوريال» ويقول إنها تحصل على «راتب ممتاز».

ميزة بو أنه يلخّص كل شيء بسرعة.

– كيف ترى مستقبل الصين؟

– لن يكون مختلفاً عن ماضيها. كان بلدي دائماً القوة الأولى في العالم، باستثناء آخر قرنين، خلال عشرين سنة ستستعيد مكانتها.

– ألا تخشون منافسة الهند لكم؟

– الهند ديمقراطية جداً، وهي تفقد بسببها كثيراً من طاقتها.

يحدثنا بو كثيراً عن باريس، حيث أمضى ست سنوات كمراسل لصحيفة شباب الصين اليومية (وهي ثاني يومية قومية توزع مليون

ونصف نسخة). يحتفظ عموماً بذكريات جميلة من إقامته في فرنسا، لكن يشغله سؤال:

– لماذا لا تحبون الأطفال في فرنسا؟

أبدي دهشتي، وأصرخ، وأطلب منه مزيداً من التوضيح.

– أنتم في فرنسا لا تعملون بما فيه الكفاية. وإذن فأنتم تحضّرون مستقبل أطفالكم بطريقة سيئة.

ويمعن في إقناعي:

– يزداد دَيْن فرنسا كل سنة. وحدهم الذين لا يعملون كفاية يستدينون. ومن الذي سيُسدد الدين؟ الأطفال.

بماذا أجيب؟

7

فرنسا

خط الجبهة

فرنسا، محافظة الـ «فوج».

كانت المياه التي تنحدر من الجبل تمنح طاقتها إلى الطواحين، والمصانع، وورش المناشير، منذ نهاية القرون الوسطى، وكانت تمنح نقاءها إلى المصابغ، وإلى مصانع الورق.

في كل وادٍ كان يوجد نهر.

وعلى امتداد كل نهر، كان يوجد قرى.

وفي قلب كل قرية، كان يوجد مصنع.

*

* *

نحن الآن في قرية «ليبانج سور فولون» (Lépange-sur-Vologne) التي لا يتجاوز عدد سكانها الألف ومئتين وخمسين نسمة. يدير باتريك دوكوفيلير الذي أنهى دراسته في المجال العلمي، مصنعاً للنسيج يحمل اسمه، وهو يقيم في المكان نفسه. يرأس نقابة النسيج في منطقة شرق فرنسا، وقُطب التنافسية المسماة «الخيط الطبيعي»، بالإضافة إلى شركته التي تعمل في النسيج، والصباغة، وتوظف خمسة وثمانين موظفاً. يبلغ باترك الستين من العمر، يمشي سريعاً، وأكتافه تشبه أكتاف لاعب «الرجبي». تُعدُّ الحرب بالنسبة له «حالة طبيعية»، كما هي عند الشخص الإسرائيلي. يجب مواجهة انخفاض الأجور في بلدان الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، ولا سيما في المغرب وتونس.

يختار بعض المتعهدين نقل مصانعهم إلى هذين البلدين، في حين يلجأ الآخرون إلى المكّننة، واستخدام الإنسان الآلي (الروبوت). ينخفض التوظيف، ولكن مستوى الانتاج يبقى كما هو. ننجح في النهاية في مواجهة الوضع بطريقة، أو بأخرى.

بدأت الحرب الثانية مع القرن الواحد والعشرين، ولا يمكن مقارنة اتساعها وعنفها بأي شيء عُرف من قبل. يأتي التنافس هذه المرة من آسيا وتحديداً من الصين. إن كلفة اليد العاملة ليست هي المسألة الأساسية. لقد أُدخلت تحديثات عديدة إلى صناعة النسيج في محافظة الـ «فوج»، على العكس مما يقال عن منشآتها التي تجاوزها الزمن. المشكلة هي في كيفية التغلّب على سعر «اليوان» المقدّر بأقل من قيمته، وفي مواجهة النظام المصرفي الصيني الذي «ينسى» المطالبة بتسديد القروض بأمر من السلطات. إن المشكلة أيضاً هي في مواجهة هذه السلطات نفسها التي لا تستوفي ثمن الطاقة التي تستهلكها المصانع، وأيضاً في المعايير المتساهلة جداً في مجالي الصحة، وحماية البيئة. وأخيراً، فهي في الانتهاكات الواضحة لحقوق الملكية الفكرية، وفي التفاوت الكبير في رسوم الجمارك.

ونتيجة لذلك يواصل التوظيف انخفاضه، والإنتاج انهياره إذ هبط بنسبة أربعين في المئة خلال أربع سنوات.

لا يرفض باتريك دوكوفيلير المنافسة، شريطة أن تكون قواعد اللعبة

واضحة ومتشابهة للجميع. لا يمكن للتذمر أن يكون بديلاً عن الفعل، فما العمل؟

أولاً يحاول باتريك تحسين مزايا السلعة، أي اسباغ جودة على الأنسجة غير المعروفة لدى المنافسين. على سبيل المثال جعلها ذات ملمس أكثر نعومة، ومنح كل نوع جديد اسماً خاصاً مثل «جلد الوراق» أو «ورقة الوردة»...

لكن الأمل الكبير لباتريك مرتبط ببراءة الاختراع التي تقدم بطلب لها؛ يتعلق الأمر بتقنية سرية تمنح الأنسجة صفات ثورية، يمكن اختزالها بالاسم التالي: «احتفظ بها ممطوطة»[1] وفقاً لهذه التقنية، سيحتفظ الكتان والقطن بـ «ذاكرة» شكليهما الأوليين بعد معالجتهما. يستطيع المرء أن يشدهما ويدعكهما بالطرق الممكنة كلها، ولكنهما يعودان إلى حالتهما الأولى بعد ذلك.

إن العديد من عشاق هذه المادة ينتظرون وصول الملابس الجديدة المسماة «احتفظ بها ممطوطة» إلى الأسواق بفارغ الصبر.

*

*　*

البلدة الأخرى هي «دوسيل» (Docelles)، وعدد سكانها ألف

---

(1) Keep It Stretch – اختصارها KIS.

واثنان وأربعون نسمة، وتقع على نهر فولون (Vologne) نفسه. أنشئ فيها مصنع للورق عام 1478، وهو اليوم ملك للمجموعة الفنلندية UPM، واختصاصه صناعة المغلفات.

يمتدح مدير المصنع، ميشيل شاكاي الفكرة الكبيرة الجديدة.

– النشاطات الرئيسة الثلاثة لمحافظتنا، هي: الخشب، والورق، والنسيج (أساساً القطن). واكتشفنا أخيراً أننا كنا نتعامل مع المادة نفسها، وهي السيلولوز. وهكذا ولد «قطب المنافسة» الذي يسمى «الخيوط الطبيعية الكبرى لمنطقة الشرق». وأعد أول مشروع له، وهو إنشاء مركز أبحاث مشترك بالتعاون مع جامعة نانسي. إن سكان محافظة الـ «فوج» معتادون على العيش في الأودية كما تعلم، ونحن نحب تقسيم كل شيء إلى خانات؛ لكي يكتفي كل واحد بذاته. نتعارف ونتكلم مع بعضنا، ونتبادل المصالح، ونضع المشاريع المشتركة سويةً بفضل هذا «القطب»، فبما أن الحرب دائرة فإن على القوات أن تتحد فيما بينها.

*

*   *

هناك مدينة صغيرة ثالثة على ضفاف نهر آخر «الموزيل»، وهي «ألوي «Éloye»، لا يتجاوز عدد سكانها الثلاثة آلاف وخمسة مئة. لقد جعلني إيف دوبيف، النساج، ورئيس غرفة التجارة أزور مصنعه

الجديد. هو الآخر مقاتل: استثمر توّاً خمسة عشر مليون يورو. هو مثال لأولئك الذين يراودهم الشك بجدوى استمرار العمل، أو ينتظرون التقاعد، أو اندلاع حريق في المباني يمكن للتأمين أن يعوضه...

بالرغم من شجاعته، وجودة منشآته، اضطر المحارب إلى التراجع؛ باع ثلث آلاته إلى رجال أعمال أتراك. يتفهم المرء جيداً لماذا يرغي إيف ويزبد، ضد هذه المنافسة اللامتكافئة مع الصين، ويتحسر لاضطراره مغادرة مقر الشركة.

– نجحنا في الاحتفاظ ببضعة مصانع، لكن مركز القرار لم يعد في الـ «فوج». وذهبت معه وظائف الأقسام، والكفاءات، والمستويات الأعلى للإيرادات.

كنا ننتظر معاً القطار في المحطة؛ كي أعود إلى باريس عبر خط فرعي يصل إلى مدينة ايبينال Epinal، والحقيقة أن «محطة» هي كلمة كبيرة تطلق على مبنى متواضع من الباطون، ترفض حافلة جديرة بهذا الاسم أن تتوقف فيها.

– هل تفهم لماذا تحتاج منطقة شرق فرنسا إلى القطار السريع؟

يتركني وهو يلقي علي سؤالاً آخر:

– ما هو الأفضل: أن يشتري الإنسان الأشياء بسعر أغلى قليلاً من نقود راتبه، أو أن يشتريها بسعرٍ أقلّ من نقود التعويضات التي يستلمها بوصفه عاطلاً عن العمل؟

عندما كان القطار الفرعي ينقلني إلى «أبينال» بسرعته القصوى (خمسون كيلو متراً في الساعة)، تذكرت دراسة طلَبَتْها حكومة توني بلير واحتفظت بها سراً. تبين من خلال هذه الدراسة -البعض يقول ببرود وآخرون باستخفاف- أن أرباح القوة الشرائية المتأتية من عمليات الشراء ذات التنافسية المرتفعة في المتاجر الكبيرة (السوبر ماركات) كانت تقارن بتكاليف البطالة التي تولدها تلك العمليات؛ لهذا قدم دعم متزايد للتوزيع ذات النطاق الواسع.

«الجينز بيورو واحد!».

كيف لا يؤخذ هذا الإعلان بدلالته الحقيقية، وهي احتقار العمل!

هكذا يمضي البشر في بلداننا المتطورة. يحتجون على العولمة، ويتدافعون في معابدها: المتاجر الكبيرة والمولات ومتاجر أخرى أكبر منها تمارس تجارة تحطيم الأسعار (ولكن على حساب مَنْ؟).

خلاصات

حديقة العودة

أنْ يسافرَ المرء فهذا يشبه التقاط السنابل التي تبقى بعد الحصاد. يفتح المرء حقيبته بعد أن يَعُودَ من الأماكن البعيدة، وعليه أن لا يقلق إذا اكتشف أنها خاوية؛ لا تكون أغلبية السنابل الملتقَطَة ظاهرة للعيان إذ إن منها ما هو خيبة أمل، أو مشاعر دهشة، أو عطور، أو أنواع موسيقى، أو وجوه، أو مناظر طبيعية، أو قصص. لم تكن الطريق الطويلة الجميلة للقطن بخيلة، فطوال الرحلة التي شملت خمس قارات، وامتدت من كاينكو (مالي) إلى وايت فيس (تكساس)، مروراً برصيف البصل (الإسكندرية، مصر)، وأمريكانا (البرازيل)، وبخارى (أوزبكستان)، وليبانج سور فولون (فرنسا)، وحاضرة الجوارب (الصين)، كان الخيط الناعم يبيح أسراره.

كان الملاحون يزرعون في القرن الثامن عشر النباتات التي جمعوها من أركان الأرض الأربعة، حال عودتهم إلى مسقط رأسهم، ويسمونها «حديقة العودة». وها أنا أعود إلى مقاطعة بريتانيا (غرب فرنسا) وأبدأ اهتمامي بالحديقة. السلة مليئة بالقصص وليس بالبذور. ما هي القصص التي سأتذكرها أكثر من غيرها؟ تطير قصص القطن التي جلبتها معي لمسافات قصيرة، وتضرب الأرض بأقدامها مثلها مثل مجموعة من الأطفال، كل واحد منهم يُريد أن يكون هو صاحب الحظوة.

اخترت من بينها عشر قصص تروي أحوال كوكبنا، إنها عشر قصص، وثلاث أفكار، أؤكد لكم أنها باطلة.

لا شك أن القارئ قد لاحظ أن هذا الكتاب سردٌ لنزهةٍ طويلة قبل أي شيء آخر، وأن آخر ما أفكر فيه اقتراح خطة عمل. ورغم ذلك، يبدو لي أن بعض المواضيع يمكن أن تُعرض مفصّلة من خلال هذه الأفكار الخاطئة الثلاث، وهذه القصص العشر الحقيقية.

قصة التسمية

ما الذي يتبقى من صفة «أولى» في هذه المادة المسماة «الأولوية» التي أسميناها «القطن»؟ تجعلنا هذه الصفة نستند -كما يبدو- إلى ديمومة قائمة في الأرض، منذ فجر الإنسانية كالنحاس أو الألماس: قد يكون النبات المزروع اليوم مشابهاً لذلك الذي زُرع عند البدايات.

إنه حقاً لتشابه مزيف بين العائلتين المعدنية، والنباتية لمجموعة «المنتجات الأساسية»، فبذور القطن الموجودة في زوايا إفريقيا الأكثر إنزواءً هي وريثةُ عمليةِ انتقاءٍ طويلة جداً.

فيما يتعلّق ببقية أنحاء العالم، إذ يتمُ التلاعب بالجينات بصورة جنونية... ألا يزال بالإمكان أن نطلق اسم «القطن» على شجيرة تحمل في أحشائها جينات رئة البحر (كي تضيء قرب المتفجرات)، أو العنكبوت (من أجل تحسين خيطها)؟ حقاً لقد انتصر الـمُكْتَسبُ على الفطري منذ أمد طويل، إن ما نطلق عليه قطن لم يعدْ هدية من الطبيعة، بل عملية خلْق دائمة.

يُحِبُّ أولئك الذين يفضلون تبسيط كل شيء الاعتقاد أن العالم سيكون أفضل دون وسطاء: سيتحاور منتجو القطن مباشرة مع أولئك الذين يستعملونه، وسيتفقون سريعاً على الأسعار والكميات.

واحسرتاه على هذا الحلم؛ لأن الواقع مختلف. إن أنواع القطن لا تعدّ ولا تحصى، ومصانع الحلج بعيدة عن مصانع النسيج التي تختلف احتياجاتها وفقاً للآلات التي تستعملها، والمنتج الذي تريد تسليمه، كما أن الحسابات الزمنية للصناعة لا تتوافق مع الحسابات الزمنية للزراعة...

قد يجدُ أصحاب العرض صعوبة في الالتقاء بأصحاب الطلب دون دعم. باختصار لا بد من وسطاء، وهؤلاء هم تجار الجملة (négociants). نعرف أصل الكلمة: النفي (ne) الموصوف باللغة اللاتينية (otium) ومعناها (الراحة). في الواقع قلّما يذوق تاجر الجملة الجيد طعم الراحة. لا يرضيه الحصول على المعلومات المتعلقة بالإحتياجات، والفرص المتاحة في أنحاء الأرض كلها باستمرار، بل يجب عليه أن يعرض أنواع الخدمات جميعها، وأن يتحمل أنواع المجازفات جميعها؛ كي يكون وسيطاً جيداً؛ عليه -مثلاً- أن يقدم قرضاً لبعض المزارعين؛ كي يتمكّنوا من الزراعة، وأن يحددَ النوعيات ويضمنها، وعليه أن يشتري بعملة، ويبيع بأخرى وأن يُرسل المواد الأولية بالشاحنات والقطارات والسفن،

وأن يحدد مهلاً للزبائن للتسديد.

تاجر الجملة وسيطٌ لا يرضى بإجراء الاتصالات فقط، بل يبتدع باستمرار أنواعاً جديدة من الوساطة؛ كي يجد شارٍ لكل طن قطن. يبلغ عددُ تجار الجملة في العالم نحو خمسمئة يشتغلون بالقطن بطريقة، أو بأخرى، من بينهم عشرة، كل واحد منهم يُعَالج سنوياً أكثر من ربع مليون طن. توجدُ أربع شركات ضخمة متعددة الجنسيات يفوق حجم القطن المُعالَج من خلالها المليون طن: كارجيل، ودونافان، ولويس درايفوس، ورينهارت؛ يمكن للمرء أن يتخيل ثِقْلَها في السوق.

قصة ثأر

تذكروا سنة 2000: اعتقد الناس أن الاقتصاد التقليدي قد دفن مع القرن العشرين. كانت الخدمات تنظر باستعلاء إلى الصناعة منذ أمدٍ طويل. وها هو الإنترنت –الموطن الافتراضي– يستولي على العالم. طبعاً تجرأت بعض النفوس اليقظة على التذكير أنه يجب إنتاج البضائع المطلوبة من خلال الشبكة العنكبوتية، وتخزينها وتسليمها بواسطة شاحنات. لكن الناس قلما كانت تنصت لهذه الأقوال السفيهة المتخلفة، إذ كان واضحاً أن الاقتصاد المسمى بـ «الفعلي» يعيش أيامه الأخيرة.

بعد ستة أعوام، أصاب الزهو، والصلف هذا «الفعلي» وجاء يقرع الباب ليقول: «آسف لاستمرار وجودي، ولكن ها هي فاتورتي».

وإذا كان الافتراضي، من حيث التعريف، ليس له حدود، فإن إحدى خصائص الفعلي هو الندرة. ومَنْ يتحدث عن النُدْرة يتحدث بالتالي عن السعر الباهظ. إلاّ أنه يُطلق على المادة الأساسية لِـ «الفعلي» «المواد الأولية»، وهذه بدورها هي الأحافير، التي لا تتجدّد... الحديد، والنفط، والنحاس... لماذا الدهشة إذا ارتفعت أسعارها؟ لقد نسيها الناس، أما الشخص الذي يحسن الانصات، فإنه يسمعها تضحك.

نرى أجمل مشهد لهذا الثأر الذي يقوم به «الفعلي» على نهر «هوانج بو»، أحد روافد نهر «يانغ – تشي» الذي يجتاز شانغهاي، إذ يمتدُ على الضفة الشمالية بقايا المدينة القديمة المشهورة باسم «بوند»، إذ توجد البنوك والإدارات. أما على الضفة الجنوبية المسماة «بودونغ» فتوجد غابةٌ من الأبراج التي تُطلُّ على الأراضي الجديدة، وهي مؤلفة من بنوك، وشركات تأمين، وإلكترونيات، واتصالات.

تمر بين الضفتين زوارق كبيرة لا ينظرُ إليها أحد، وكأن شانغهاي خجلة منها. صحيح القول: إنها تشوّه كل ما هو عصري برّاق في هذه العاصمة، إذ يمكن مقارنتها بمجموعة من عمال المناجم ذوي الأفواه السوداء التي تمر بوكالة إعلان[1]. هذه القوارب قذرة بنيّة اللون، وبسيطة، فلا يوجد أيّة كتابات على جوانبها، ولا تحمل أي ضوء غاز (نيون) يومض في الليل، وتنقل كل مستلزمات البناء من رمل، وحجارة،

(1) يريد الكاتب الإشارة هنا إلى التناقض الصارخ بين مشهدين: الأول ينتمي إلى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (عمال المناجم)، والثاني إلى القرن الواحد والعشرين (وكالة الإعلان): (المترجم).

وزجاج، وحديد، وفحم...

هذا الثأر – للأسف– لا علاقة له بالقطن، إذ يعلم الجميع أن من العبث توقعُ ارتفاعٍ عالٍ للأسعار في السنوات القادمة. القطن نبتة سنوية صالحة للزراعة في جميع البلدان الحارة قليلاً، وإنتاجه يتكيّف مع تقلّبات الطلب دون صعوبة.

ثلاث أفكار خاطئة

تذكي الجولة حول العالم ميْلَ الإنسان إلى الاختلاف، وتعلّمه أن يرى الأمور بمنظار النسبية، وتغذّي الارتياب لديه. وفضلاً عن ذلك، فإنها تعزز أيضاً بضع قناعات.

تعودُ وأنت على أحر من الجمر لمحاربة بعض الأفكار التي علّمتك رِحلتُك أنها ليست خاطئة فقط، بل وأقنعتك بمضارها.

1. إن الفكرة القائلة بوجود سعر عادل لهذا المنتج، أو ذاك هو سوء الفهم الأول. إن تحديد سعر القطن مسألةٌ معقدةٌ جداً بحيث يُفضَّل الحديث عن أسعارٍ لأشكال من القطن؛ ففي نيويورك، تُبرم العمليات التجارية وتنفكّ لأجلٍ مسمى. وفي ليفربول يُنشر متوسط التسعير لكل صنف، ولكل مصدر بانتظام.

وينشر موقع «ذو سيم» على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) عروضاً ثابتة موجهة إلى زبائن محددين قابلين لشراء هذه العروض. لكن تاجر

الجملة يحتاج إلى معلومات لتقدير توجهات السوق؛ لذلك يحرصُ كلُ تاجرٍ على الوثوق بعملائه المنتشرين في أماكن استراتيجية من العالم، الذين يُشكّلون شبكات حقيقية للمعلومات تأسست منذ عقود وأحياناً منذ قرون.

الحديثُ عن أسعارٍ أكثر عدلاً يعني قيام تجارة أكثر إنصافاً. كيف يمكن رفضُ مثل هذه الأهداف؟ ومَنْ سَيُحدِّدُ هذا العدالة؟ وما هي المبادئ التي يجب اتباعها لتطبيق هذه القيمة الأخلاقية؟ سيقبل أغلبنا متحمساً دفع سعرٍ أغلى للقطن الذي يشتريه؛ كي يحصل الفلاح الإفريقي على أجرٍ أفضل. لكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير بالعامل الزراعي البرازيلي، هل يكون قد اقترف خطأً إذا كان نمط الإنتاج الذي يشارك فيه غير معترف به نمطاً منصفاً؟ أمحرّمٌ عليه أن لا يستفيد من هذه العدالة الجديدة بسبب هذا «الخطأ» الذي يعلمُ كل واحد منا أنه غير مسؤول عنه؟

وماذا عن عمالة الأطفال؟

هل يمكن أن ترّق قلوبنا في الوقت نفسه أمام المحاصيل الإفريقية، وأن نستنكر بصراخ عال أعمال السّخرة الأوزبكية (حقاً إن الطغيان السوفيتي لم يمت!).

إذا كانت المبادرات الموفقة للتجارة المنصفة تشتري الضمير الطيب بتكلفة منخفضة، فإن الاقتصاد لا يفقد ذرّة من الوحشية التي تلازمه. إلا أن البحث عن الإنصاف يتيح المجال للتعرف بشكل أفضل على

واقع القطن، وعندئذ يكون الهدف قد تحقق: هناك ضمير يبدأ في النمو، وعندما يكون هذا مدعوماً من قبل المنظمات غير الحكومية، فسيلقي بثقله على المفاوضات التي تدور بين الدول.

2. ذات يوم جميل من نهاية القرن العشرين، اختارت فرنسا أن يعمل سكانها عددَ ساعات أقلّ. استنتجتُ أن القانون الذي حدد ساعات العمل بخمس وثلاثين ساعة في الأسبوع كان يعدّ، أينما ذهبتُ، نوعاً من الشذوذ، وخاصة هدية من السماء لم تكن منتظرة من طرف الدول الأخرى جميعها غير المنافسة، التي كانت تقدّر أن العولمة تُملي على الناس أن يعملوا ساعات أطول. والأمر الأسوأ من ذلك أنني استنتجتُ بعد أن عدتُ إلى موطني، أن العمل لم يعد يملك عندنا القيمة التي يحملها في مكان آخر. يعطيه الناس حصته ولا شيء غير حصته؛ لأنها محاصرة بالتسلية الضرورية التي يمارسونها. أما بدأت جميعُ حِقب الانحطاط على هذا النحو؟

3. وهمٌ آخر: يكفي أن تنتج، وبعد ذلك فإنَّ المشتري يرضى بالبضاعة. وباستثناء حالات محدودة (أوضاع الاحتكار وندرة النفط)، فإن الاقتصاد خاصة اقتصاد النسيج محكوم بالطلب وليس بالعرض. لا يتفوق القطن الأمريكي الذي تَجمعُ الآلات محصوله على الإنتاج الإفريقي، ولكن مما لا شك فيه أنه يقدم لزبائنه باستمرار النوعية الجيدة، والنظافة المضمونة للمنتج، وأنواع الالياف المرجّوة.

من الوجهة الرسمية، يعدّ التنافس في مجال الاقتصاد صنواً للديمقراطية في مجال السياسة: يوجد القانون الأخلاقي من ناحية، ومن الناحية الأخرى يوجد محرك التقدم.

في الواقع، البرازيل هي الدولة الوحيدة التي تلعب لعبة العرض والطلب بحذافيرها، تساعدها في ذلك المزايا الطبيعية التي تتمتع بها. تُدبّر جميع الدول الأخرى التي زرتها أمورها من أجل الهروب من صرامة السوق، وتقلباتها من خلال تقديم الإعانات المالية المفتوحة أو المموهّة، والتلاعب النقدي أو الجمركي، والمعارك المتعلقة بالمعايير، والعقود ذات الأفضلية، فالبلدان غير متساوية عند ممارستها لفن الهروب هذا.

كيف يمكن لمالي أن تصارع، وهي التي لا يتوفر أي من هذه الأسلحة المحظورة في متناول يديها؟ كيف يمكن عدم إدراك ضرورة إجراء مفاوضات متعددة الأطراف لوضع قواعد مشتركة للعبة، وفرض احترامها، وهما أمران لا يمكن تحقيقهما إلا من خلال عمل جاد تقوم به منظمة التجارة العالمية؟

تصلح الأسعار المعلنة كل يوم في نيويورك، وليفربول؛ كي تكون مؤشراً، وإطاراً مرجعياً. لكن من يعرفُ حقيقة العقود؟ ومن يستطيع أن يعرف السعر الذي تبيع به أوزبكستان قطنَها إلى الصين؟

يأتي التوتر الحقيقي من قاعدة التوزيع الذي -بفضل قدرته على مقارنة العروض جميعها والأسعار لحظة بلحظة- يفرضُ قانون الأجور[1] الخاص بالتنافس، والذي ترتقي أشكال صرامته مستويات المراتبية الإدارية جميعها درجةً درجةً. باختصار يتحالف المساهم مع المستهلك من أجل خنق المُنتج.

قصة دول

لا تكون الإدارة بعيدة أبداً عندما يتعلق الأمر بالزراعة؛ لحمياتها وتنظيمها. إلاَّ أن القطن يطغى على حقل الزراعة بما لا يقاس. إن شخصاً يجوب العالم بحثاً عنه سيلتقي في طريقه أنواع الدول الممكنة جميعها.

- النسخة الأمريكية من دولة الرعاية المعمِّرة التي تقدم الإعانات المالية بلا حياء، ولا منطق اقتصادي.
- الدولة المنتجة حيث تم تفكيك الكلخوزات (المزارع الجماعية) رسمياً في أوزبكستان، لكن القطن ظل القضية الأولى التي تشغل الدولة.
- في مالي يستمر وجود الكولخوز العملاق؛ لتعذر وجود المعرفة، أو الرغبة في تنظيم هياكل أكثر فاعلية.

(1) اسم منحه لاسال لقانونٍ يخفّض أجر العامل في ظل النظام الرأسمالي إلى الحد الأدنى الضروري: (المترجم).

- الدولة الاشتراكية المتحجرة على الطريقة المصرية، إذ تستمر في حظر إنشاء ملكيات واسعة مربحة، انطلاقاً من الوفاء لروح الإصلاح الزراعي الذي أراده جمال عبد الناصر.
- دولة الحد الأدنى، على الطريقة البرازيلية، أي التي لا تبالي بما يجري (خاصة عمليات القضاء على الغابات، وعمليات الابتزاز حول الأراضي) وتقوم بأقل ما يمكن على صعيد توفير البنية التحتية.
- أخيراً دولة الحد الأقصى، على الطريقة الصينية وهو أمر غير مألوف، وأشبه بحيوان هجين، تدور تحت دهان أحمر آلة مخيفة من الشمولية السياسية التي تضع نفسها في خدمة الرأسمالية الاقتصادية.

قصة الوطن

كلنا نعلم أن كُره الأجانب، والقومية والتزمّت الوطني (الشوفينية) أمراض لا تزال موجودة فوق كرتنا الأرضية، وهي تتفاوت في حدّتها، وترتبط بأراضٍ محددة. كما نعلم جميعاً أن النشيد الكوني لحرية التجارة لا يحول مطلقاً دون قيام ممارسات حِمائية عامة جداً.

أمّا أن يظل حب الوطن حتى اليوم حافزاً قوياً في قطاع القطن، فهذا مما يثير ولا شك دهشة المسافر. لنتذكر شعار «فخورٌ بكوني مزارعاً أميركياً» المنتشر فوق العديد من بطاقات الزيارة في تكساس، والأناشيد الطقوسية لقاطفي القطن الماليين التي تضاعف الجهود؛ من أجل أن

لا يتجاوز إنتاج بوركينا فاسو إنتاج بلدهم، والعامل البرازيلي الذي يترنّم بالنشيد الوطني أمام العلم مع رفاقه كل مساء، والحمّال الصيني الذي يرفع باعتزاز– وهو يقود دراجته الثلاثية الزرقاء –ملصقاً يشهر بلدته الصغيرة «داتانغ» عاصمة عالمية للجوارب... في كل مكان تعبئ الوطنية الطاقات، سواء بطريقة عفوية أم منظمة، وسواء أكانت طوعية أم إجبارية. ألم يموّل صينيّو المهجر في هونغ كونغ، وسنغافورة وتايوان تطوّر الصين؟

لا يملك المسافر لدى عودته إلى بلده إلا أن يعدّ تحقير الذات لدى الفرنسيين، وتراجع الشعور الأوروبي ظواهر تقود إلى الانتحار.

جميل أن تُردد اللازمة الرتيبة عن العولمة، والاتصال وتحويل المادة إلى طاقة، لكن هذا الغناء الممل عن الحداثة لا يُحدِثُ أي تأثير في تلك الظواهر؛ لأن المكان الذي توجد فيه الإرادة المشتركة ظل الرافعة الأولى للعمل.

قصة عائلات

كان يُعتقد أن العائلة لم تقاوم الهجمات المترافقة للعقلانية الاقتصادية، والمال مجهول المصدر، وتركّز رؤوس الأموال...وكان يُظن أنه لم يعد لها مكان في العالم الحديث، لكن ثبت خطأ ذلك.

لا يوجد مكان أفضل من العائلة؛ لجَمْعِ وتدريب اليد العاملة، وتنظيم

العمل، وتحفيز العمال (أحياناً يكون ذلك أكثر صعوبة مما يجري في المصنع)، وتقاسم الأرباح (دون ضمانٍ لتحقيق الانصاف، خاصة بين الأجيال). لا يوجد وحدة إنتاج أفضل منها؛ كي تفلت من المتطلبات القسرية الثقيلة للاستثمارات الرأسمالية، وكي تتكيف بمرونة مع مخاطر الظروف الاقتصادية السائدة.

العائلة هي التي تبذر، وتزرع، وتقطف ثمار القطن بمساعدة الأطفال سواء في إفريقيا أم أوزبكستان أم في دلتا النيل. وتتيح هذه اليد العاملة المجّانية غالباً المجال لمقاومة التنافس. وفي الولايات المتحدة، لا تزال الوِحدة الأساس هي الاستثمار المدار من جانب الأب، وأولاده في أغلب الأحيان. وفي الصين ولدت حمى صناعة النسيج في الورش العائلية التي تستمر، وتزدهر، وتتوسع إلى جانب الشركات الكبرى. وإذا كان شبّان كثيرون يأتون للعمل في مصانع المناطق الساحلية، فإنما يفعلون ذلك من أجل مساعدة عائلاتهم التي تظل قاطنة في أعماق الأرياف، إذ يرسلون إليها غالباً نصف أجورهم، موازنين بذلك الاختلال الصارخ قليلاً في الثروات بين هذين الجزئين من البلد – القارة.

أما التجارة، فإن قسطاً وافراً منها يظل قضية عائلية بفضل شبكات الوفاء، والمعلومات التي كانت تتراكم منذ زمن بعيد عبر أجيال وأجيال. قد تكون عائلات ممتدة، أو عائلات متنازع عليها أحياناً، لكنها عائلات في جميع الأحوال، كعائلة دونافان (الولايات المتحدة واستراليا)، وعائلة لوي–درايفوس (فرنسا وبلجيكا)؛ وعائلة رينهارت

(سويسرا)، وعائلة ويل براذور (الولايات المتحدة وإنجلترا)، وعائلة بلكسوس (يديرها شقيقان)...

تحاول الشركات متعددة الجنسيات أن تفرض قانونها في حقول الزراعة كما في أماكن أخرى، لكن العائلات تخوض في أكثر من مكان المعارك التي يتوقف عليها البقية الباقية من الإنسانية على كوكبنا الأرضي.

قصة يلعب فيها الوقت الدور الأول

لا يتخلى عنا الوقت، فهو يصل قبلنا، وهو مهيأ كي يبقى بعدنا، فهو شريكنا المفضِّل علينا. سوف تتوقف جودة حياتنا على علاقتنا معه، سواء أكانت علاقة ثقة أم علاقة نزاع، متيقظة أو مهملة.

تنطبّق هذه الحقيقة البديهية على الأفراد كما على المجتمعات. هذا واحد من أولى الدروس التي يتعلمها المرء، وهو يسير في درب القطن.

يشعر أغلبية المزارعين الأفارقة الذين التقيت بهم، بأن المجال يتوسع حيث تصل الأخبار كل يوم من مختلف أنحاء العالم من خلال الإذاعة والتلفاز. لكن الوقت يظل بالنسبة لهم حلقة تدور حول نفسها، يعقب موسم الأمطار موسم الجفاف، وتتوالى السنون، ويخشى الناس الكوارث المناخية، والحروب، ويأملون في حدوث تحسن على المستوى المالي أو الفنّي. أما فكرة التقدم، أي التضحية المفرحة بالحاضر من أجل

المستقبل، فإنها قلما تلعب دوراً هنا.

وللغرابة، بدا لي مزارعو أعالي تكساس البدينين متشابهين جداً من حيث علاقتهم بالزمن، وذلك بالرغم من آلاتهم، والتخمة التي ينعمون بها، إذ لديهم القليل من الروح المغامرة والقليل جداً من الشّهية للتطلع للمستقبل، يخزّن الواحد منهم الإعانات المالية، ويصعّر خديه، ويدفن رأسه في الرمل، كالنعامة؛ كي لا يرى العدو.

في البرازيل، نعثر على عالم عقليّ آخر، إذ إن الإله الوحيد هناك يطلق عليه «المستقبل» (وغالباً ما يسمى المال، وتبدو الكلمتان هناك قابلتان للتبادل بالنسبة للمسافر غير المتخصص باللغويات). من هنا، يمكن للمرء أن يفهم لماذا تعدّ المؤسسات الاقتصادية هذا البلد جنّة لها. لا يعود للماضي أي وزنٍ في مثل هذه الميثولوجيا الخاصة، أما المستقبل الذي يشبّهه البعض بسمكة الضاري[1] النهرية، فإنه على درجة من الجشع، والشراهة، فلا يكتفي باخضاع الحاضر من أجل ابتلاعه، بل يمكن أن ينتهي به الأمر إلى حد التهام نفسه. هكذا، قُضي على الأمازون بلا حياء، وهو مخْزن الاحتياط العالمي الأول للأشجار، أي للزمن. وهكذا قُلِبَ علم الوراثة رأساً على عقب، وهو الخزّان الأول للهويّات.

في الصين، لا يشابه الشغف بالمستقبل ذلك الذي يمتلكه الأغنياء الجدد. إذا أراد الإنسان المال، والقوة بهذا القدر، فلأنه سبق له وأن

(1) الضاري Piranha: سمك مشهور بشدة ضراوته، يبلغ طوله حوالي 11 سنتيمتراً، يعيش في أنهار أمريكا الجنوبية، ويمزق فريسته بأسنانه الحادة بسرعة مذهلة: (المترجم).

عرفهما، فالحرب ليست هي نفسها عندما يقاتل المرء من أجل التعرف عليها. لم يكن اليونان يتحركون عن طريق المصادفة تحت أسوار طروادة، فقد جاؤوا يبحثون عن شخص يعرفونه وهو «هيلانه»[1]، إذ يضفي حضور ماض عظيم بحد ذاته هدوءاً أعمق على الغزو، أريدُ أن أقول: قوة أكبر.

يريد عشاق السوق أن ينفوا هذا الدور الأول للزمن. كان الاقتصاد الوطني محمياً على مدى التاريخ من خلال الحواجز الجمركية أولاً. ذلك كان دور الحمائية المسماة «التعليمية»، إذ لم يُتْرَك لمجابهة التنافس إلا عند سن البلوغ، أي عندما كان يحصّن نفسه. أصبحت فترة الراحة هذه محظورة في هذه الأيام؛ لأن العولمة التي تلغي المكان تريد أيضاً القضاء على الزمان. ربما يعيد ارتفاع سعر الطاقة المكانَ إلى الواقع، وسيبعث الحياة في الزمان من خلال منح المواصلات أسعار تكلفتها الحقيقية من جديد.

دهاليز النعومة

لا يعيش الفلاح الذي يتعامل مع القطن حياة سهلة، سواء أكان يزرعه، أم يزيل الأعشاب الضارة عنه، أم يقطف ثماره، ففي بلدان كثيرة، لا تقدم الآلات لمساعدته في عمله. أيام العمل في الحقل طويلة

(1) هي بطلة الإلياذة في الأساطير اليونانية القديمة، ابنة ليدا وشقيقة ديسكور وزوجة مينيلاس؛ تسبب اختطافها على يد بارس إلى اندلاع حرب طروادة: (المترجم).

جداً، كما أن هذه الحركات التي تتكرر ألف مرة من أجل نزع القطن الأبيض من الشرنقة ذات الأوراق الجافة تدمي الأصابع؛ لأنها حادة وقاطعة. ويعمل عدد لا يحصى من الأطفال، سواء برضاهم أم قسراً في هذه الأعمال المضنية.

لا يملك العامل أو العاملة مستقبلاً أفضل سواء أكان يحلج أم ينسج أم يخيط، إذ تتسارع وتيرة العمل سنة بعد أخرى دون أن يكون هناك زيادة فعلية في الأجور. على الرغم من ذلك، يركض الملايين كل سنة، في كل مكان من أجل أن يضعوا أنفسهم في خدمة القطن. لا شك أن أسباب العيش أكثر قسوة في قطاعات أخرى أيضاً.

أتذكّر قصة البداية الاولى: «يمر رجل ويلاحظ وجود شجيرة تنتهي أغصانها بنديفات بيضاء. يمكن للمرء أن يتخيّل أنه دنا بيده منها، يتعرف البشر توّا على نعومة القطن».

بعد عشرة آلاف سنة، يكون الدرس الأول المستمد من جولةٍ حول العالم كالتالي: إن النعومة سلعة نادرة على الأرض، ويُدفع ثمنها غالياً.

اعتراف بالجميل

أود أن أعبّر عن شكري ألف مرة، إذ إن رحلة إلى بلاد القطن تجوب بك العالم من أقصاه إلى أقصاه لا يمكن أن تتم دون شركاء. سيتجوّلُ المسافر دونهم وبدون علمهم وثقتهم كالأعمى، ويظلُّ يقفز من قارة إلى أخرى، ويتنقل من شعب إلى آخر دون أن يدرك شيئاً. لذلك أقول لكم جميعاً: شكراً.

أولاً أشكر المخرج جويل كالميت، إذ جُبنا الكرة الأرضية معاً، ومعاً أجرينا التحقيقات. لقد أخرج الفيلم المستمد من رحلاتنا بعنوان «على طرقات القطن» الذي بُثَّ على قناة التلفزيون «آرتي» (ARTE) للمرة الأولى، أشكره على أخوّته ورؤيته المبدعة.

أشكر باسكال لامي، عندما يوجد صديق قديم بهذا المستوى العالي من اليقظة، فإن ذلك يجبرك باستمرار على أن تنظر إلى العالم كما هو دون أوهام لكن دون استكانة.

أشكر فريق شركة «داغريس»، ورئيسها «جيل بلتييه» الذي اقترح علّي الانضمام إلى لجنتها الخاصة بالمعايير الأخلاقية، ففضّلت أن أجري تحقيقاً قبل أن أقبل، وقد فتح لي الأبواب واسعة. أشكر بيير –هنري تكسييه، وديدييه ميرسييه وجان– بيير درلون، وكريستيل دوكور. أشكر خاصة رينالد إيفانجليستا. إن الثروة الرئيسة لرحلة ما هي في هذا

الجمع من الأصدقاء الجدد الذين هم بمثابة هدية لك. كان رينالد أولهم، وأشكره على علمه المتنوع المتواضع جداً، وعلى سخائه الدائم.

أشكر جميع الآخرين، وبشكل رئيس كريستوف غيمان، وكرستيان برجيه، وجيرالد استور، ودوني سيمونو، وبنوا ليزافر، وآن هيبير، وميشيل ديا، وممادو يوسف سيزيه، وفرانسوا تراوريه، واميناتا تراوريه، وبو شن، وكاترين بانوتييه، وجان – جاك سيفيا، ونيكولا نورمان، وجان– إيف أمبيرور.

الشكر الدائم للجنّية شارلوت (بروسييه)، الصديقة الثمينة للرحّل من أمثالي التي لا تكلّ أبداً عن فحص وإعداد المخطوطات الأكثر صعوبة.

أشكر هيلين غيّوم التي تتقن أكثر من أي شخص آخر تحويل النصوص إلى كتب. وأشكر فرانسوا شنغ إذ يجب أن يشاهده المرء، وهو يخط كلمة «القطن» أو «الجورب»؛ كي يفهم أن كتابة الخطوط هي طريقة ترويض، إنها القفص الوحيد الذي يُسجن فيه تنوّع العالم بإرادته المحضة.

قائمة مختصرة (جداً) بالمراجع

كُتِبَ عن القطن منذ قرنين من الزمن أكثر مما كتب عن نابليون، لذلك فإن اختياراً صارماً غير عادل يفرض نفسه.

أقترح أربعة كتب من بين الكتب جميعها ذات الصفة العامة:

– مقدمة واضحة وظريفة: كتاب «القطن»، بروكسل، مطبوعات «مارابو»، 1970.

– السرد المسلّي (المفيد علمياً) لأنطوان زيسشكا، كتاب «حرب القطن السرية»، باريس، دار النشر «بايو»، 1934.

– النزهة الجميلة والغنية: جاك أنكوتيل، كتاب «طرقات القطن»، باريس، دار النشر «لاتيس»، 1999.

– تحقيق شامل (لأنه موثق بطريقة رائعة): جان –بيير بوريس، كتاب «التجارة المنصفة: الرواية السوداء للمواد الأولية»، باريس، دار النشر «آشيت»، سلسلة الأدب، 2005.

– أحدث الكتب، وأكثرها حيوية: ستيفن يافا، «القطن الكبير» (بالانجليزية)، نيويورك، دار النشر «فايكنغ»، 2005.

– دون اغفال الكتاب الأساس لعلماء النبات، ومحبّي القطن: جورج باري، كتاب «شجرة القطن ومنتوجاتها»، باريس، ج. ب. دار

النشر «ميزون نوف ولاروز»، 1982.

- وكذلك مطبوعات اللجنة الدولية الاستشارية للقطن، ذات المستوى الرفيع دائماً التي غالباً ما تكون من تأليف جيرالد أستور.

ويُعدّ فيليب شالمان، الأستاذ المشارك في جامعة باريس التاسعة/ دوفين بلا شك أفضل فرنسي خبير في المواد الأولية. وتقدم مجلته Cyclope معلومات ثمينة كل سنة.

حول إفريقيا

الكتاب الأبيض حول القطن. المفاوضات الدولية، وخفض الفقر، بإشراف إريك هازار، «أند العالم الثالث»، داكار، الدراسات المستقبلية والحوار السياسي، 2005.

حول البرازيل

«عندما تصبح البرازيل مزرعة العالم»، ملحق لصحيفة «لوموند»، 24 آيار (مايو)، 2005.

حول الولايات المتحدة

يعطي الكتاب المذكور أعلاه لستيفن يافا، «القطن الكبير» المعلومات، والمراجع الضرورية.

حول مصر

س.هـ. براون، كتاب «القطن المصري»، لندن، دار النشر «ليونارد هيل ليمتد»، 1953.

يعدّ الكتاب الصغير لجان – إيف أمبيرور، «الإسكندرية، أمس وغداً»، باريس، دار النشر «غاليمار»، 2001، منجماً للتبحّر الممتع في العلم. كذلك النزهة الجميلة جداً لدانيال روندو، «الإسكندرية»، باريس، مطبوعات النيل، 1997.

ولأولئك الذين جذبهم سحر الإسكندرية ويريدون معرفة المزيد عنها، يوجد مجلدان ضخمان ل «روبرت إلبرت»: «الإسكندرية 1830–1930»، القاهرة، المعهد الفرنسي لعلم الآثار الشرقي، 1996.

حول أوزبكستان

يمكن للمتخصصين، أو أولئك الذين يريدون أن يصبحوا في عدادهم، مراجعة الوثائق (النادرة) التي صاغها مبعوثو البنك الدولي.

يوجد كتاب يعطي صورة إجمالية عن هذا البلد: كاترين بوجول، «أوزبكستان»، باريس، برلين 2005. وهناك دليل قيّم يحمل الاسم نفسه من تأليف س. ماكليود و ب. ماهيو/ جنيف، اوليزان 2004.

حول الصين

لا يمضي يوم واحد دون أن تظهر عشر مقالات عن هذا البلد، من بينها خمس عن صناعة النسيج.

من أجل تحليل هذه المعلومات، لا شيء يفوق في القيمة كتاب إريك إزرائيلويتش، «عندما تُغيِّر الصين العالَم»، باريس، دار النشر «غراسيه»، 2004.

كتب للمؤلف

لويولاز بلوز(Loyola's Blues)، رواية، منشورات «سوي» (Seuil)، 1974؛ مجموعة «نقاط».

الحياة مثلما هي في لوزان، رواية، منشورات «سوي»، 1977؛ مجموعة «نقاط»، جائزة «روجيه — نيمييه».

كوميديا فرنسية، رواية، منشورات «سوي»، 1980؛ مجموعة «نقاط».

مدن المياه، بالتعاون مع جان — مارك تيراس، رامزي، 1981.

المعرض الاستعماري، رواية، منشورات «سوي»، 1988؛ مجموعة «نقاط»، جائزة «غونكور»

الحاجة لإفريقيا، بالتعاون مع إريك فتورينو و كريستوف غيمان، فايار، 1992؛ LGF.

حب عظيم، رواية، منشورات «سوي»، 1993؛ مجموعة «نقاط».

روشفور وصناعة الحبال الملكية، صور فوتوغرافية لـ إيدي كوليغوسكي، باريس، CNMHS، 1995

حوادث مزعجة في الجنّة، لحن كوبي، صور فوتوغرافية لبرنار ماتوسيير، منشورات «سوي»، 1996.

تاريخ العالم من خلال 9 غيتارات، مترافقاً مع تييري أرنو، رواية، فايار، 1996.

صَيْفان، رواية، فايار، 1997؛ LGF.

طويلاً، رواية، فايار، 1998؛ LGF.

صورة رجل سعيد، أندريه لو نوتر، فايار، 2000

قواعد (اللغة) أغنية عذبة، دار النشر «ستوك»، 2001.

السيدة با Madame Bâ، رواية، فايار/ستوك، 2003.

فرسان صيغة نصب الفعل، ستوك، 2004.

صورة قلمية لخليج ستريم، منشورات «سوي»، 2005.

نبذة عن المترجم:

أنهى دراساته العليا في فرنسا؛ باحث وناشط في حقوق الإنسان، وحائز على جائزة رابطة الكتاب الأردنيين لعام ١٩٩٥ في هذا المجال. عمل في التدريس والإعلام. يعمل حالياً في الترجمة، ولقد ترجم العديد من الدراسات.

رحلة في بلاد القطن

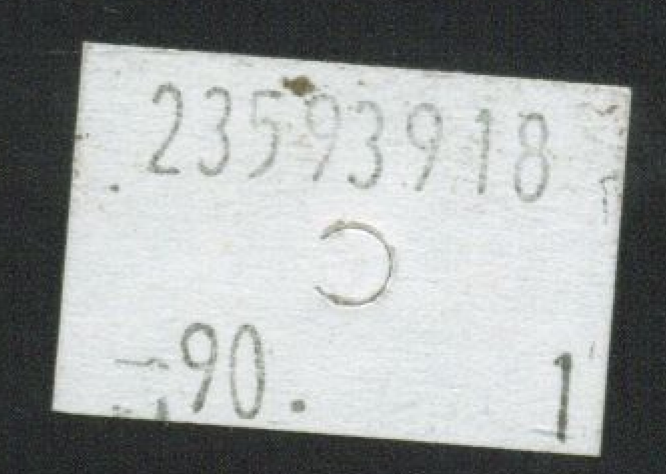
رحلة طويلة وممتعة يسافر فيها القارئ بصحبة المؤلف، ويتعرف من خلالها على أسرار مادة خام، في زمنٍ يكاد يتحول الاقتصاد والمال فيه إلى عالم افتراضي.

يستعرض الكتاب التنوع الكبير للبلدان المنتجة للقطن (مالي، مصر، أوزبكستان، البرازيل، الولايات المتحدة، الصين..)، بأسلوب «التحقيقات الميدانية» الموثقة والتفصيلية، الغنية باللمسات الإنسانية الحميمة، ويعالج موضوعات كثيرة لا يزال الجدل يحتدم حولها، كالعولمة والعولمة البديلة والإفرازات الاجتماعية والثقافية الناجمة عنها.

كتاب يساعد في فهم آليات العولمة التي يتداخل تاريخها مع تاريخ تحولات الشجيرة البيضاء.

الكتاب حائز على جائزة «يوليسيس» لعام ٢٠٠٦.





ISBN 978-9-94801-610-6







المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة